مآسي حلب

الثورة المغدورة
ورسائل المحاصرين

إعداد: صبر درويش - محمد أبي سمرا

من الكتاب

سمعنا أصوات قذائف، لم نعتد سماعها، فيما مضى. حددنا جهتها بخبرة السكن الطويل في الحي، ولم نتيقّن مما حدث. تهامس الأهالي عن وصول مقاتلي الجيش الحر من الريف، وخوضهم معارك قاسية مع القوى الأمنية، وتطورت؛ لتتحول مع قوات عسكرية مدعومة بالدبابات. رأيت في الصباح آثار جنازير الدبابات على الإسفلت، وسمعت من شبان الحي عن سيطرة الجيش الحر على حي هنانو، بالكامل. رأيت الخوف في عيون الناس، وهم يخشون ردة الفعل على هذا التقدم العسكري. شاهدت أثناء نزولي إلى وسط البلد دورية أمنية، تدير أمور سير السيارات والحافلات عند تقاطع دار المعلمين بحي بستان الباشا، وكأن ذلك إعلان شكلي عن وجود السلطة. كانت وجوه رجال المخابرات، مرتبكة على غير عادتهم.

المتوسط

مآسي حلب

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٦ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

"The tragedies of Aleppo" ***by*** "Saber Darwish & Mohamed Abi Samra"
Copyright © 2016 by **Almutawassit Books**.

إعداد: صبر درويش ومحمد أبي سمرا / عنوان الكتاب: مآسي حلب
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

صدر بالتعاون مع مركز شرارة آذار الإعلامي

شرارة آذار

ISBN: 978-91-87373-68-8

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

مآسي حلب

الثورة المغدورة
ورسائل المحاصرين

إعداد: صبر درويش - محمد أبي سمرا

المتوسط

مقدمة

مدينة حلب، في شمال سورية الغربي، تبدو اليوم منكوبة مهدمة، على نحو شبه كامل. فهي ترزح تحت وطأة حرب مستمرة منذ ما يربو على ثلاث سنوات، وأدت إلى نزوح معظم سكانها، وانقسامها إلى شطرين: شرقي، تسيطر عليه قوى المعارضة السورية المسلحة، وغربي ما يزال تحت سيطرة قوات نظام الأسد.

ولحلب مكانتها الخاصة في ذاكرة السوريين. ليس لأنها ثاني أكبر مدن البلاد، ولا لأنها العاصمة الاقتصادية لسورية، فحسب، بل لأنها تعرضت إلى مذبحة في مطلع ثمانينات القرن العشرين، على الرغم من كونها أقل مأساوية من مذبحة حماة وتدمير أحيائها الداخلية القديمة. فالمدينة الشمالية الكبرى، كانت إحدى ضحايا حكم آل الأسد، شأن حماة. وقد أُشبعت ذاكرة الحلبيين بالألم والمآسي في زمن البعث وديكتاتوريته الأسدية. وما يعيشه السوريون اليوم من مذابح وتدمير وتشريد، عاشوا مقدماته، على يد نظام الترويع الذي جمّد حياتهم، وكتم أنفاسهم، وقوّض اجتماعهم، وأذاقهم رعب السجون والموت فيها طوال عقود مضت. وكانت حصة حلب من ذلك كله حصة الأسد.

حلب هي المدينة السورية الأكبر والأهم بعد العاصمة دمشق. فعدد سكانها يقارب ٥ ملايين نسمة، لكن النشاط الاقتصادي المهم فيها جعلها العاصمة الاقتصادية لسورية. أما نسيجها الاجتماعي؛ فمتنوع: يشكّل المسلمون السّنّة ٨٥ في المئة، من سكانها، غالبيتهم من العرب، إضافة إلى الكرد والتركمان والشركس. ويشكّل المسيحيون ١٥ في المئة، من سكانها، غالبيتهم من الأرمن، إضافة إلى السريان واللاتين والموارنة والكاثوليك

والأرثوذكس. أحياء المسيحيين هي: الجديدة، العزيزية، السليمانية، محطة بغداد، العروبة، والميدان. وهذه الأحياء لا تزال خاضعة لسيطرة النظام الذي حرص - منذ بداية الحركة الاحتجاجية السلمية في سورية - على تحييد حلب، وعزلها عما حدث من احتجاجات وتظاهرات مشهودة في ريفها، فعمد إلى تكثيف الانتشار الأمني في المدينة، ومنع أي تجمع، يزيد عدد أفراده عن خمسة أشخاص.

*****

تتعدد الأسباب التي أخّرت مدينة حلب عن الالتحاق بركب الثورة السورية السلمية، بعد انطلاقها في آذار ٢٠١١. قد يعترض «الحلبية» على هذه «التهمة»، لكن الوقائع تشير إلى تأخّر مدينتهم عن إخراج أولى مظاهراتها، قبل أن تدخل بزخم في أتون الثورة، السلمية أولاً، والمسلحة تالياً. فهي كانت من أولى المدن الكبرى التي حملت مجموعاتٌ من أهلها السلاحَ في وجه حملة آلة النظام السوري الأمنية والعسكرية الدموية ضد المتظاهرين المسالمين. كما كانت المدينة الأولى التي فرضت على النظام التخلي عن سيطرته على مساحات واسعة، من أحيائها، ومن ريفها القريب.

لكن ما اصطلح على تسميته «التحرير»، تحرير المناطق والمدن، يبدو اليوم ملتبساً لدى السوريين. بل يظهر في صورته وواقعه مأساة مروعة، ألمّت بسورية كلها. مأساة شرع في تنفيذها وأرسى مسارها النظامُ الأسدي الذي تكشّف عن قسوة وعنف احتلاليين استعماريين في القتل والتدمير. ثم أكملت الكتائب المسلحة مأساة المدن «المحررة»، وفي طليعتها حلب التي يشير تدميرها ونزوح أهلها، إلى تحوّلها مكاناً، يصعب، بل يستحيل، العيش فيه. وهكذا صُنّفت المدينة واحدة من أخطر الأماكن في العالم.

*****

لم تمضِ بضعة أشهر من الحراك الثوري السلمي في مدينة حلب، حتى حُمِل السلاح في بعض أحيائها الشرقية الفقيرة، لحماية المتظاهرين

أولاً، ولمقاومة قوات النظام فرض الانسحاب عليها تالياً. وذلك بالتزامن مع وصول طلائع الكتائب المسلحة من الريف الحلبي إلى المدينة. وهكذا «تحررت» مساحات واسعة من حلب، وباتت تُعرف بحلب الشرقية التي تسيطر عليها قوى المعارضة السورية.

لكنْ؛ كيف تأخرت حلب، وخرجت إلى الاحتجاجات السلمية؟ ومن أين خرجت المظاهرات؟ وما هي قواها وفئاتها الاجتماعية؟ وكيف حملت بعض أحياء المدينة السلاح؟ وكيف انقسمت وجرى تدميرها وتهجير سكانها، وخصوصاً شرقها وأحياءها التقليدية القديمة، المصنّفة على لائحة التراث العالمي الإنساني؟ وكيف عاش ويعيش مَن تبقى من سكان حلب المأساة في حياتهم اليومية؟

*****

في كثير من فصولها تشبه حكاية حلب حكايات باقي المدن السورية الثائرة ضد حكم الأسد، وتتقاطع معها. بدأ الحراك الثوري في المدينة من أكثر المناطق فقراً وهامشية فيها، كحي صلاح الدين والسكري. بداية شارك في المظاهرات بضعة عشرات من الشبان والشابات، معظمهم من جامعة حلب. فيما بعد، ارتفع الزخم، وتوسعت مشاركة سكان الأحياء، ثم رفدتها الحركة التي أفرزها الحراك الشبابي في الجامعة، والذي ضم طلبة جامعيين، من مناطق سورية مختلفة، يدرسون ويقيمون في جامعة حلب.

توسعت رقعة الاحتجاجات في المدينة، واتسع زخم المظاهرات الشعبية. وكما في كل المدن السورية الثائرة، سقط شهداء من المحتجين في حلب، على يد قوات الأسد وشبيحته. خرج الحلبيون في تشييع شهدائهم، فسقط - أيضاً - شهداء آخرون في التشييع. ومع سقوط كل شهيد، كانت تُثار بين الناشطين قضية حمل السلاح، وحق الدفاع عن النفس. وهذا ما حصل فعلاً بعد مرور بضعة أشهر على انطلاق الاحتجاجات في المدينة.

بدأ الأمر، بمجموعات صغيرة من الأفراد الذين سعوا إلى حماية المتظاهرين. ثم ما لبثت هذه المجموعات الصغيرة أن توسعت، ونظمت صفوفها، فتحولت كتائب وألوية مقاتلة، سعت إلى السيطرة على المدينة، وطرد قوات الأسد منها. وهذا ما حدث فعلاً؛ إذ أخذت تنسحب قوات الأسد تدريجياً من الأحياء الشرقية من حلب؛ لتركّز وجودها غربي المدينة، على وجه التحديد.

ومثلما فعلت قوات النظام بعد سيطرة قوى المعارضة المسلحة على إحدى المدن السورية، قامت قوات الأسد بتسليط نيرانها على أحياء حلب السكنية «المحررة»، مستخدمة كل أنواع الأسلحة: من البراميل المتفجرة سيئة الصيت، إلى المدفعية بعيدة المدى. هكذا بدأ تدمير المدينة، ونزوح أغلب سكانها، وباتت الحياة فيها أشبه بالجحيم.

في ظل هذه الظروف، سعى مَن تبقى من السكان المدنيين، الذين رفضوا، أو لم تتح لهم إمكانية مغادرة المدينة، إلى النضال، بكافة الوسائل، من أجل البقاء والاستمرار في تدبير شؤون حياتهم، التي لم تعد تشبه الحياة، على أي حال. سعى الناس إلى بناء هيئات مدنية في سبيل تسيير خدماتهم الملحة، وإدارتها، بطريقة، تحدّ من الفوضى التي خلّفها انسحاب مؤسسات الدولة، من المدينة. فأنشئت الهيئات القضائية (أصبحت هيئات شرعية، فيما بعد)، وأسِّست المشافي الميدانية، بإمكانيات متواضعة، وأُطلقت العملية التعليمية، لما تبقى من تلامذة، ونشأت عشرات من الدوائر والمؤسسات المدنية، التي سعى السكان - من خلالها - إلى التخفيف من وطأة الحرب عليهم.

*****

يسعى هذا الكتاب إلى إلقاء الضوء على أحوال حلب، في زمن الاحتجاجات والتظاهرات السلمية، في أحيائها وجامعتها، وفي أثناء بروز الكتائب المسلحة فيها: نشوء الحراك الثوري السلمي، آليات توسّعه،

والهوية الاجتماعية للفئات التي كانت أكثر ديناميكية وفاعلية فيه، وكيفية تطور هذا الحراك وانتشاره، وكيف عبّرت القوى المنتفضة عن مطالبها؟

هذا قبل إلقاء الضوء على الظروف والعوامل التي دفعت المنتفضين إلى حمل السلاح، دفاعاً عن النفس بداية، وبهدف طرد قوات الأسد ثانياً.

أما بعد اشتداد المعارك في المدينة؛ فتتقصّى فصول الكتاب ما طرأ من تحوّلات على تركيبة القوى الاجتماعية المنتفضة، وبدء التيارات الإسلامية بالبروز في خضم الأحداث: بدايةً ببعض التشكيلات ذات التوجه الإسلامي المحافظ، ونهاية بدخول تنظيم «الدولة الإسلامية» (داعش) إلى المدينة.

هذه التحولات تعبّر عن نفسها بأشكال وطرق متعددة: اعتقال العديد من الناشطين، على أيدي هذه التشكيلات العسكرية. إرغام المحتجّين على استبدال شعاراتهم التي أطلقوها في بداية الثورة، بشعارات إسلامية المدلول. استبدال علم الثورة برايات مختلفة الشكل، وإسلامية المضمون. استبدال شعار الدولة المدنية، بشعار دولة الخلافة. تحوّل الهيئات القضائية إلى هيئات شرعية إسلامية... وبدأت رحلة نزوح أخرى للناشطين السلميين، ولكنْ؛ هذه المرة هرباً من «أخوة السلاح»، لا من قوات الأسد.

ويسعى الكتاب - أيضاً - إلى عرض أحوال جملة المؤسسات التي نشأت في حلب الشرقية، بعدما باتت تحت سيطرة قوى المعارضة. ويسعى كذلك إلى إلقاء أضواء على طبيعة حياة ما تبقّى من سكان، في المدينة، وأشكال إدارتهم شؤونهم، في ظل الحرب الدائرة، في أحيائهم.

ويتألف الكتاب من سبعة فصول:

الأول، «المدينة المتثاقلة بين الجامعة والريف»، يروي بدايات الحراك الثوري السلمي في المدينة.

الثاني، «المدينة تُخرِجُ أثقالها»، وهو شهادة حية عن المتغيرات التي

طرأت على حياة السكان، وانتشار ميليشيات الشبيحة، وأثرها في دورة الحياة اليومية، ومشاهدها، وتبدل نمط العيش، وتدبير المعاش، مع توقّع هبوب ريح الحرب.

الثالث، «فوضى الإدارة المحلية والقضاء الشرعي»، يروي وجوهاً من أشكال إدارة السكان لأحيائهم، وشكل المؤسسات الناشئة في ظل «تحرر» أحياء من المدينة، وسيرورتها المرافقة لسيرورة الحراك الثوري السلمي والمسلح.

الرابع، «يوميات ورسائل من حلب الشرقية والغربية»، يقدم مجموعة من اليوميات التي تروي تفاصيل من حياة مَن تبقّى في حلب الشرقية، وأشكال إنتاجهم لحياتهم، في ظل الحرب والتدمير.

الخامس، «في انتظار الموت في حلب»، هو مجموعة من التحقيقات الميدانية المترجمة التي أجراها الصحفيان ماثيو أيكنز، وكريستوف رويتر. وهي تروي - بكثير من الدقة والمهنية والفن الكتابي - مظاهر من حياة سكان حلب الشرقية، في ظل الحرب المتواصلة عليهم، من قوات الأسد. هذا إضافة إلى تحقيق ميداني عن الأفغان الشيعة المهاجرين في إيران، والذين استعملهم الحرس الثوري الإيراني كمرتزقة إجباريين في حرب الأسد في حلب.

السادس والأخير، «التشكيلات العسكرية في حلب الشرقية وريفها»، يعرض لأهم التشكيلات العسكرية المعارضة التي نشأت وتناسلت وتنافرت وانقسمت وانحلت واندمجت واقتتلت، ولا تزال حاضرة في المدينة: أهم قادتها، ومعاركها، أدوارها العسكرية.

*****

لا يسعى هذا الكتاب إلى تقديم «آراء» حول ما يجري وما جرى في حلب. بل يحاول - قدر الإمكان - عرض التجربة على لسان شهودها، من

دون تدخّل من المعدَّين اللذَين جمعا المادة، وحرّراها. وقدر الإمكان يعرض سيراً وشهادات ومشاهدات ومعلومات عن طبيعة الأحداث ومساراتها وتحولاتها في المدينة. وذلك بأسلوب سردي استقصائي. وتحت عنوان كل فصل من الكتاب، يُذكر أسماء أصحاب السير والشهادات، واسم من جمع المادة، وكتبها كتابة أولية. وهو - بهذا المعنى - كتاب جماعي عن حلب، في زمن الثورة.

وبعد كتابي «موت الأبد السوري» - الذي قدم سيراً وشهادات عن «جيل الصمت والثورة» في «سورية الأسد»، وصدر عن «دار رياض نجيب الريس» في ٢٠١٢ - وكتاب «تجربة المدن المحررة في سورية» الصادر عن الدار نفسها، يقدم هذا الكتاب عملاً ميدانياً آخر في السير والشهادات والتحقيقات عن حقبة أخرى راهنة في الثورة السورية، كما عاشتها حلب.. لكنْ؛ من دون ادعاء الإحاطة بجميع جوانب تجربة هذه الثورة في المدينة.

الفصل الأول
المدينة المتثاقلة بين الجامعة والريف

شهادات

محمد يوسف، فؤاد محمد فؤاد، أحمد الحاج،
جيفارا نبي، بيشنيك ألو، عماد القاسم، ومعن محمد.

١. تمهيد

من المرويات الحلبية عن بدايات عهد الوحدة المصرية - السورية في العام ١٩٥٨، يُروى أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، عندما زار حلب للمرة الأولى، أبى المبيت في فندق لوبارون الذي كانت المدينة تخلو من فندق فخم سواه، يناسب استضافة الرؤساء. فالرئيس العروبي الوحدوي، داعية التحرر من الاستعمار الأجنبي، رفض استضافته في فندق أجنبي الاسم. وهذا ما حمل رجلاً عروبياً ناصرياً ووجهاً بارزاً من عائلة حلبية عريقة في أريستوقراطيتها وثرائها وتحدّرها عن مشايخ التصوف، فضلاً عن حملها كنية عائلية ملحمية الأصداء: صائم الدهر - على دعوة زعيم الأمة العربية وداعية وحدتها وتحررها آنذاك، إلى النزول في قصره. وتضيف الرواية أن الرئيس الضيف بهرته فخامة القصر وبذخه في العشاء المشهود الذي أقيم على شرفه، كما أذهلته ملاعق الذهب التي تناول بها أشهى مآكل المطبخ الحلبي العريق. ويقال إن المضيف، الحاج سامي صائم الدهر، سأل ضيفه الرئيس متحققاً منه عن صحة الإشاعات التي يتناقلها الناس عن نيّته تأميم المصانع، ورجاه أن يصدقه حقيقةَ الأمر، كي يعدل عن توسيع مصنعه، إذا كان الرئيس عازماً على تطبيق نظام التأميمات. أكد الرئيس لمضيفه أن لا تأميم، وأنه على استعداد ليساعده ويساعد الصناعيين الحلبيين في توسيع مصانعهم. لكنْ؛ بعد عودة رئيس جمهورية الوحدة إلى القاهرة، صدر قرار التأميم، ونُزعت من الحاج سامي صائم الدهر ملكيته لقصره ومصنعه وسواهما من أملاكه!

في مجتمعات لا تزال تروي تاريخها، منعطفاته وحوادثه، على مثال الحكايات الشعبية، تشير هذه الحكاية الحلبية وأمثالها إلى ذلك المنعطف التاريخي الكبير الذي انعطفه المجتمع السوري في خمسينات القرن العشرين، مدشناً حقبة مديدة، استغرقت زهاء ستة عقود من التحولات والمآسي التي تحاول الثورة السورية المأسوية البادئة في العام ٢٠١١ أن تضع خاتمة لها، لا تزال غامضة ومجهولة حتى الآن. لكن الأكيد أن السوريين في ثورتهم هذه يحاولون رواية تاريخهم على مثال جديد، يخالف أشكال مثول التاريخ وحوادثه في الحكايات الشعبية التي تكنّي عن امتناع روايته رواية تاريخية، كانت مستحيلة طوال العقود الستة الماضية.

*****

حلب هي المدينة السورية الأكبر والأهم بعد العاصمة دمشق، فعدد سكانها يقارب ٥ ملايين نسمة، لكن النشاط الاقتصادي المهم فيها يجعلها العاصمة الاقتصادية لسورية. أما نسيجها الاجتماعي؛ فمتنوع: يشكّل المسلمون السّنّة فيها ٨٥ في المئة، من سكانها، غالبيتهم من العرب، إضافة إلى الكرد والتركمان والشركس. ويشكّل المسيحيون ١٥ في المئة، من سكانها، غالبيتهم من الأرمن، إضافة إلى السريان واللاتين والموارنة والكاثوليك والأرثوذكس. أحياء المسيحيين الحلبية هي: الجديدة، العزيزية، السليمانية، محطة بغداد، العروبة، والميدان. وهذه لا تزال خاضعة لسيطرة النظام الذي حرص - منذ بداية الحركة الاحتجاجية السلمية في سورية - على تحييد حلب، وعزلها عما حدث من احتجاجات وتظاهرات مشهودة في ريفها، فعمد إلى تكثيف الانتشار الأمني في المدينة، ومنع أي تجمع، يزيد عدد أفراده عن خمسة أشخاص.

*****

إلى جانب تأخّرها الزمني عن سواها من المدن السورية، تتميز الحركة الاحتجاجية في حلب بذلك الدور المحوري لجامعتها وطلابها في

مسار تلك الحركة، خارج الجامعة وداخل الحرم الجامعي. فمن «جامعة الخواء البعثي» والأسدي في حلب ماقبل الثورة - وفقاً لعنوان الفصل الأول من كتاب محمد أبي سمرا «موت الأبد السوري: شهادات جيل الصمت والثورة» - لعب الناشطون من طلبة جامعة حلب دوراً أساسياً في إطلاق حركة الاحتجاج والتظاهر في المدينة في أيار ٢٠١١. لذا؛ يتطلب تقصّي أحوال المجتمع المديني الحلبي، علاقاته وأطره وتحولاته وأشكال تنظيمه في خضم الحركة الاحتجاجية السلمية والمسلحة، التركيز على تقصّي أحوال جامعة حلب في الحراك الثوري في المدينة.

مادة هذا التقصي هو الشهادات الميدانية الحية التي رواها سوريون حلبيون على معرفة وثيقة وداخلية بأحوال المدينة ومجتمعها وجامعتها، وشهدوا مراحل الحركة الاحتجاجية فيها، وعايشوها، وبعضهم شارك في نشاطاتها في الجامعة وخارجها.

٢. الشبيحة وتمويلهم

بما أن جماعات الشبيحة في حلب وسواها من الديار السورية، لازم ظهورها ونشاطها النظام البعثي الأسدي، وعملت منذ بداية الاحتجاجات السلمية على الإغارة على المتظاهرين وترويعهم واعتقالهم وقتلهم، نستهل رواية سيرة الثورة وأطوارها في حلب، بالتعريف بالشبيحة ونشاطهم في المدينة، استناداً إلى شهادة طبيب حلبي، ومن عائلاتها، ومقيم في مدينته حتى انطلاق الثورة المسلحة في ٢٠١٢.

كان مقر المحافظ في المدينة قصراً عريقاً، في زمن ما قبل التأميمات، وكان أحد قصور العائلات المماثلة لعائلة صائم الدهر. عراقة القصر ووظيفته الجديدة، أدتا إلى تسمية الحي السكني العريق بحي المحافظة، إلى جانب حي آخر، يماثله عراقة، يُدعى حي السبيل؛ حيث أُنشئت مدارس نخبوية، منها الفرنسيسكان والمعهد الأميركي. وفي حي المحافظة، غير بعيد من القصر القديم، يقوم منزل جميل أمامه حديقة، يملكه رجل

حلبي من آل عجم العاملين في تجارة المواد الغذائية. قبل سنوات من الثورة، وهب التاجر منزله هذا لقائد جهاز الأمن العسكري في حلب، علي حمود الذي صار لاحقاً وزيراً للداخلية السورية، فأنهى إقامته في المنزل الذي ظل مهجوراً، حتى قام مالكه بوهبه مجدداً - قبل ثلاث سنوات من بداية الثورة - إلى رجل، يدعى أحمد علي قزق، ولقبه أبو علي قزق، العلوي المذهب، الوافد من جبلة الساحلية، إلى حلب للعمل مديراً لمؤسسة الإسكان العسكري وتاجر عقارات. هذا قبل أن يصير وكيلاً لأعمال رامي مخلوف في حلب، أي وسيطاً مالياً واقتصادياً نافذاً بينه وبين تجار المدينة ورجال أعمالها. في بدايات الثورة سرعان ما تبين أن الوسيط هذا تحول منظماً لمجموعات الشبيحة في حلب، وحوّل منزله مقراً لإدارتهم، وتسيير عملياتهم باسم «اللجان الشعبية» الذي سمّى به النظام السوري هذه المجموعات، وأوكل اليها «حماية الأهالي» من ما يسميه «العصابات المسلحة».

تشكلت مجموعات الشبيحة من فئات ثلاث في حلب:

- رجال العشائر النازلة على أطراف المدينة الشرقية، وعلى رأسها وأشهرها عشيرة آل بري. ما قبل خمسينات القرن العشرين كانت هذه العشائر السّنّيّة البدوية تترحل بمواشيها في ريف حلب الشرقي؛ حيث تقتتل لتحصيل رزقها ومواردها، قبل مباشرتها أعمال تهريب المواشي والسلاح والمخدرات وفرض الخوات، إلى أن أقام نظام حافظ الأسد حلفاً معها، وثبّتها في أعمالها هذه منذ السبعينات، وأوكل لعشيرة آل بري زعامتها وتصريف المنازعات في ما بينها.

- السجناء من صغار المجرمين والمهربين، وأولئك الذين أُطلق سراحهم من السجون بمراسيم عفو رئاسية في الأشهر الأولى من الثورة التي سمّى الرئيس بشار الأسد، في واحدة من إطلالاته الخطابية، المشاركين فيها «عصابات مسلحة»، وقال إن عديدها في سورية يبلغ «٦٥ ألف من المجرمين الذين يجب القضاء عليهم». العدد هذا هو نفسه عدد السجناء الذين شملتهم مراسيم العفو الجمهوري؛ لتعيد أجهزة أمن النظام تأطير

معظمهم، وتنظيمهم في مجموعات الشبيحة التي خُصَّت مدينة حلب بنصيب وافر منها لمنع أهاليها من التظاهر.

- قوات حفظ النظام، وهي جهاز الشرطة الذي يستعمله النظام السوري، فيضبط الأمن أثناء المباريات الرياضية، وفي تسيير التظاهرات والعراضات المؤيدة والموالية له.

في حلب، كما في سائر المدن السورية، تشكلت مجموعات الشبيحة -«اللجان الشعبية» وفقاً لتسمية النظام- من هذه الفئات الثلاث، فبلغ عدد مجموعاتها في عاصمة سورية التجارية والاقتصادية وفي ريفها القريب، ٢٠٠ مجموعة تشبيح مدفوعة الأجر، تضم أكثر من ٨٠ ألف عنصر مسلح، من ضمنهم عناصر أجهزة الأمن المختلفة. والعدد الكبير هذا هو الذي مكّن النظام من السيطرة الشديدة على حلب، ومن إضعاف قوة التظاهرات، وعدم توسعها في أحياء المدينة. المجموعات هذه تولى تنظيمها وتمويلها في حلب أبو علي قزق الذي جعل منزله في حي المحافظة، مقراً لإدارتها، وجمعت في عديدها أشخاصاً من الأحياء على استعداد للمراقبة والوشاية، بينهم بعض من المسيحيين والكرد المتحمّسين في ولائهم للنظام. وإذا كان هذا النظام قد اعتمد على قوات حفظ النظام في قمع الحراك السلمي وتظاهراته في بدايات الثورة، فإنه سرعان ما زجّ مجموعات الشبيحة من العشائر والسجناء الذين أطلق سراحهم في قمعه العنيف للمظاهرات، بعد توسعها في أحياء المدينة، وخصوصاً في الجامعة، محتفظاً برجال أجهزة الأمن في خلفية المشهد، لزجّهم -لاحقاً- في العمليات الأمنية والعسكرية.

كان أجر الشبيح في بدايات الثورة السلمية خمسة آلاف ليرة سورية في الشهر، ثم انخفض إلى ألفين، في وقت قول الرئيس السوري في واحد من خطاباته إن كل مشارك في «العصابات المسلحة» يحصل على أجر قدره ألفا ليرة. وهو في قوله هذا استعاد واقعة تمويل الشبيحة، وألصقها بالمتظاهرين، على مثال عمليات التضليل التي يعتمدها النظام مذهباً إعلامياً وحيداً.

في البدايات، جرى تمويل مجموعات الشبيحة - التي كان يرتفع أجرها في نهارات الجمعة حين تتسع التظاهرات، وتتكاثف - من كبار تجار حلب وصناعييها ومستثمريها، الذين فرضت عليهم أجهزة الأمن خوّات وإتاوات. فرق من رجال هذه الأجهزة أخذت تجول على التجار والصناعيين والمستثمرين للحصول منهم على مبالغ محددة، قائلين لهم إن هذه المبالغ تُصرف على «اللجان الشعبية» التي تقوم بحمايتهم من «العصابات المسلحة». وكان يُقال للموّلين إن هذه «اللجان» وضباط الأمن سوف يؤمنون لهم حاجاتهم من المحروقات (المازوت) التي أخذ توزيعها يشحّ، وترتفع أسعارها مع توسع الحراك الشعبي الاحتجاجي، إضافة إلى وعدهم بتأمين زبائن لسلعهم التجارية والصناعية من العراق، بعد انكماش الطلب عليها في السوق السورية الداخلية. لكن هذه المعادلة المعتمدة في تمويل الشبيحة أخذت تختلّ وتنكسر مع اشتداد الأزمة الاقتصادية والاحتجاجات والتظاهرات التي كان النظام يَعِدُ الناس جميعاً وممولي شبيحته بإنهائها سريعاً. ومع تزايد الوعود هذه شهراً بعد شهر، كانت الأزمة تشتد وتتعمق، فأخذ الممولّون يتذمرون متمنعين عن دفع المبالغ المفروضة عليهم، والتي أخذت ترتفع، كلما تزايد عديد مجموعات التشبيح. ثم لم تلبث فئات شبابية من أبناء هؤلاء التجار والصناعيين والفئات المتوسطة في المدينة، أن أخذت تشارك في التظاهرات الاحتجاجية، وخصوصاً في الجامعة، إضافة إلى مشاركتها في عمليات إغاثة النازحين من الأرياف إلى حلب. هكذا تضاءل تمويل الشبيحة، فقرر النظام الأمني إطلاق يد مجموعاتهم للحصول على المال من النهب وعمليات الخطف التي سرعان ما استشرت في المدينة، وشملت أثرياء وميسورين من سكانها، وخصوصاً التجار والصناعيين. وفي أيام كثيرة، شمل الخطف عشرات من الرجال، للحصول منهم ومن عائلاتهم على فدية لإطلاق سراحهم. ولأن المخطوفين في هذه الموجة كانوا - غالباً - من التجار والصناعيين الذين يفاوضهم الخاطفون، فإن الفدية التي أخذ يتقاضاها الخاطفون، لم تكن مرتفعة؛ لأن الخاطف والمخطوف هما مَن كانا يتفاوضان مباشرة. لذا؛ لجأت مجموعات

الشبيحة إلى موجة جديدة من الخطف أشد وقعاً وإرعاباً؛ إذ شملت الشبان والفتيات والأطفال من أبناء الأثرياء الذين لن يتهاون آباؤهم في دفع الفدية العالية المطلوبة لإنقاذهم. ذلك أن المفاوضة مع التاجر أو الصناعي المخطوف نفسه تمكّنه من مساومة الخاطفين وتخفيض الفدية، وهذا ما يعجز عنه عجزاً تاماً في حال خطف ابنه الشاب أو طفله، مما يعرّضه لامتحان مروع في عاطفته الأبوية، ويعرّض زوجته، والدة المخطوف، لامتحان أشد ترويعاً في عاطفتها الأمومية. هكذا شمل الرعب فئات واسعة من أهالي المدينة، بينهم أصحاب المهن الحرة، من أطباء ومحامين ومهندسين، فتزايدت عمليات نزوح هؤلاء من المدينة، خوفاً من خطف أبنائهم وأطفالهم، بعدما كانت فئات واسعة منهم مؤيدة لحركة الاحتجاج والتظاهر السلمية ومتضامنة معها، قبل تحوّل الثوار إلى النشاط المسلح.

وفي هذه الأثناء، وفد إلى حلب قادة من «خلية إدارة الأزمة»، بينهم آصف شوكت وهشام بختيار. وذلك في غرفة الصناعة والتجارة، فاوض الوفد التجار والصناعيين، لإقناعهم بعدم مغادرة المدينة، لقاء وقف عمليات الخطف والترويع التي يتعرض لها أبناؤهم وأطفالهم. بعد ذلك الاجتماع الذي سبق عملية اغتيال رجال تلك «الخلية» في دمشق، تدنّت عمليات الخطف في حلب، لكنها عادت إلى سابق عهدها، وأقوى، بعد عملية الاغتيال التي شكّلت منعطفاً في تحول التظاهرات والاحتجاجات السلمية في حلب، مجابهات مسلحة مع الجيش وأجهزة الأمن والشبيحة.

قبل مدة من ظهور اسم الجيش الحر ومجموعاته المسلحة في حلب، تعرّض منزل أبو علي قرق - مقر إدارة الشبيحة في شارع أقفلته مجموعات أمنية، وأقامت فيه حواجزها في حي المحافظة - لهجوم مسلح في يوم من أيام كانون الثاني ٢٠١٢، فجرى إطلاق نار كثيف، وحصلت مجابهات حول المقر وفي الشارع، على ما روى شاهد عيان من سكان الحي، مرجحاً أن المهاجمين استهدفوا في عمليتهم اغتيال أبو علي قرق الذي يبدو أنه نجا من العملية. لكن الهجوم على المقر، أدى إلى التخلي عن استعمال

المنزل مقراً للشبيحة، وغابت من حوله ومن الشارع المظاهر والحواجز الأمنية، واختفى أبو علي قزق.

كان الهدف من التخلي عن المقر واختفاء الرجل بعد العملية، الحفاظ على الهدوء في الشارع، وفي حيَّي المحافظة والسبيل المتجاورين والراقيين في حلب. فالحيَّان هذان تسكنهما فئات اجتماعية مستقرة من التجار وكبار الموظفين والمحامين والأطباء، إضافة إلى بعض مدرّسي الجامعة. فاستمرار منزل قزق مقراً لإدارة الشبيحة بعد عملية الهجوم عليه، كان سيجرُّ عمليات أخرى مماثلة، مما يؤدي إلى خوف سكان الحيين، وإرعابهم، وإقدامهم على النزوح الذي يسمح لمقاتلي الثوار بالتسلّل إليهما، واستعمالهما في عمليات الكرّ والفرّ على الشبيحة في مقرهم. غير أن الهدوء الحذر والقلق الذي ساد في الحيين بعد وقف تجميع الشبيحة في المقر وفرار منظم عملياتهم، لم يستمر طويلاً. فما إن بدأت المجابهات العسكرية العنيفة بين وحدات من جيش النظام ومجموعات الجيش الحر التي ظهرت في الأحياء الشعبية الفقيرة والمكتظة مثل صلاح الدين وسيف الدولة في شرق حلب، وبدأ جيش النظام يقصف المدينة من خارجها بمدفعية الميدان والطائرات الحربية والمروحيات، حتى دب الذعر والرعب في معظم أحياء المدينة، وأخذت موجات النزوح تشمل سكان الحيين الراقيين، المحافظة والسبيل.

٣. التريث والأمل

في البداية، كما كان لا أمل للسوريين بتمدد الربيع العربي إلى بلادهم، كانت حلب كذلك، لا ثقة لها بالثورة السورية بعد بدئها في بعض من مدن سورية وبلداتها، من دون أن تبلغ عدواها حلب. ومع اشتداد عود الثورة في أغلب مناطق التراب السوري، أخذ يحاصر حلب، ويضغط عليها ظهورها متقاعسة متخاذلة، فيما كان يراود السوريين إحساس بأن ثورتهم لن تقوم لها قائمة -حسبما رددوا- لثقتهم العمياء بهذه المدينة العريقة.

لكن السوريين بدؤوا يجدون الأعذار لحلب، فيقولون إنها تتريث، فيما كان أهل حلب يتحسّسون الخطر الذي يتهددهم من الثورة التي جلبت القمع والموت والخراب، في بداية الحل الأمني، إلى باقي المحافظات، ولا يريد الحلبيون لأمهاتهم أن تبكي بكاء أمهات درعا ودوما وحمص، وسواها.

كان يمكن تلمّس ذلك الموقف السلبي من الثورة لدى كثير من الأوساط الاجتماعية والناس في حلب، كسائقي السيارات، وأصحاب المحلات، وصولاً إلى جارك في المنزل، وزميلك في العمل، والأستاذ، وطالب الجامعة، وبائع الفطائر.

فأهل حلب لايتردّدون في القول - تبريراً - بأن أهل سورية تركوا حلب في عام ١٩٨٢ لتلاقي مصيرها الدموي من النظام، فيما كانوا هم - أي غير الحلبيين- ينعمون بحياتهم. وهكذا، حيال لامبالاة حلب، صار لزاماً على كل ناشط العناية الفائقة بتربية الأمل والانتظار الممض للحظة انفجار أول مظاهرة/ينبوع في أي مكان. وكانت الأنظار دائما وأبداً مشدودة إلى حلب ومساجدها وصلوات الظهر فيها نهارات الجمعة.

لكن شهادات بعض الحلبيين ترى أن الرواية الإعلامية المتداولة عن تأخر الاحتجاجات والتظاهرات زمناً، وعن ضآلتها حجماً، في حلب، ليست صحيحة وحقيقية إلا في حدود نسبية، قياساً على حجم القبضة الأمنية العاتية والثقيلة التي جيّشها النظام، واستعملها لخنق حركة المحتجّين والمتظاهرين، في كثير من أحياء المدينة، وفي الجامعة. فثقل هذه القبضة وقوتها،لم يمنعا الحركة الاحتجاجية السلمية من الظهور والخروج - ولو بصعوبة - إلى الشوارع، ومن تسيير تظاهرات طالبية حاشدة داخل الحرم الجامعي، منذ شهر نيسان ٢٠١١. لكنّ تصدّر درعا، ثم حمص وحماة مشاهد حركة الاحتجاج القوية، سلّط الأنظار على التظاهرات الحاشدة الدامية في هذه المدن، وصرفها عن متابعة التظاهرات الأقل حجماً وحشداً في حلب، قياساً على ضخامة عدد سكانها ونشاطها الاقتصادي القوي في

سورية. إضافة إلى ثقل القبضة الأمنية، فإن الفئات الوسطى والعليا الحلبية أكثر استقراراً وثقلاً وتدرجاً وبطأ في استجابتها إلى الاحتجاج والتظاهر، وخصوصاً في الأحياء السكنية المستقرة وشبه المتجانسة اجتماعياً وطبقياً في ميلها المتدرج إلى اليسر والثراء الماديين، كلما اتجهنا من وسط المدينة التجاري إلى أحيائها الغربية، كالمحافظة والسبيل، وصولاً إلى الحمدانية. وهذا الحي يعتبر مدينة شبه مستقلة ولصيقة بحلب في أقصى غربها، وقامت «مؤسسة الإسكان العسكري» بإنشاء الحمدانية في سبعينات القرن العشرين، ويغلب العلويون على سكانها.

الأحياء هذه وسواها في غرب المدينة وشمالها الغربي، لا تخلو من اختلاط سكاني، وإن كان يغلب عليها التجانس والاستقرار وإقامة الفئات الوسطى والميسورة. وحتى تسعينات القرن العشرين كانت مقار أجهزة المخابرات (العسكرية، والجوية، وأمن الدولة، الأشد بعثاً للرعب والترويع) قائمة في مباني ومنازل قديمة مصادرة في وسط المدينة التجاري، وفي بعض الأحياء الراقية غرباً. ففي حي المحافظة مثلاً، وهو الأرقى في حلب حتى الثمانينات، استولى جهاز أمن الدولة على فيلا فخمة قريبة من قصر المحافظ، وجعلها مقراً له. لكن الاسترخاء الذي نعم به النظام حمله، بدءاً من العام ٢٠٠٠، على استملاك أراضٍ واسعة في أقصى الغرب، خارج المدينة، فشيّد عليها مبان جديدة ضخمة، مستقلة ومحصّنة، ثم جعلها صروحاً لأجهزته الأمنية كلها، إضافة إلى المستشفى العسكري.

وفي ربيع عام ٢٠١١ كانت في حلب ثلاث جهات أو قوى تتريث منتظرة لحظة انطلاق الثورة:

- جبهة الناشطين/الثوار (معظمهم من الشبان والطلاب) الذين كانوا يراقبون ما يجري في بلدان الربيع العربي، وفي باقي المحافظات السورية، ويترقبون.
- جبهة النظام السوري الذي يستعد للمواجهة، كعادته وطبيعته، بمباشرته القمع السافر.

- الجبهة الثالثة كانت تتألف من جلساء الكنبة الذين يراقبون المشهد بصمت وحذر، أو ينأون عنه.

لكن ظاهر حلب، التي كانت تمارس حياتها اليومية في منأى من الثورة، ليس كباطنها الذي كان يتهيأ للحظة البدء بالشعار المفتاح: واحد واحد واحد/ الشعب السوري واحد.

لقد بات ليوم الجمعة طعم خاص في سورية كلها، وكذلك في حلب: الجميع ينتظر صلاة الجمعة، ويترقب خروج المظاهرة الأولى. عشرات من الناشطين الذين يريدون فعل شيء ما، إرادوي، بالرغم من قلة نضج الظروف. لكن متابعة المظاهرات في المحافظات السورية من على شاشة التلفزيون، كانت تولد إحساساً بأن ثمة شيئاً ما يلوح في أفق حلب.

لقد جاء تأخر الثورة في حلب عن ركب المظاهرات في سورية، على خلفية جملة معطيات متراكبة منها:

- -عهّد تجار المدينة وفاعلياتها الاقتصادية للأسد- أثناء زيارته الاستباقية الشهيرة إلى حلب، باستجابتهم إلى خطة التصدي للثورة بكل السبل والوسائل.
- استعدادات النظام الأمنية للبطش الوحشي: الفروع الأمنية الكثيرة، الشبيحة، الجهاز الحزبي البعثي، والمخبرين. وبكثافة منقطعة النظير، تكاثرت عناصر هذه الأجهزة في مفاصل المدينة كلها. وجنّد النظام أيضاً الكثير من الشبيحة المرتزقة، ولاسيما آل بري، وهم من عشيرة البكارة، ولهم تاريخ مافيوي سابق في تجارة المخدرات والإرهاب.
- خوف الأهالي الشديد على أبنائهم بعد فوبيا مجازر الثمانينات من القرن العشرين، وترسيخ فكرة أن النظام لا يمكن الخروج والاعتراض عليه. الأمر الذي دفعهم، في الكثير من الأحيان والأحياء، إلى التعامل مع الثورة المظاهرات على أنهما أفعال تخريبية يجب قمعها. لذا؛ أخذوا، في حالات معينة، يتعاونون مع الأمن، ويخبرون عناصره عن المظاهرات الأولى وأماكنها.

- التعتيم الإعلامي الذي كانت تعاني منه حلب في أوائل الثورة، لعب دوراً في صرف الأنظار عن بدايات ثورتها. فعندما كانت تخرج مظاهرات عديدة فيها، لم يكن يتم تصويرها أو نشر خبر عن خروجها في وسائل الإعلام أو مواقع التواصل الاجتماعي.

٤. مزاج حلب الخاص

تتعدد الآراء في ما يعتبر المزاج المديني الخاص بحلب. فهناك من يقول إن أهاليها، على وجه الإجمال، لم يكونوا يستبعدون قيام ثورة في سورية، بل يخافون من قيامها، ويرفضون أن تشمل مدينتهم بعدما خرجت تظاهرات في دمشق ودرعا وبانياس. ذلك لأن الحلبيين يعتبرون أن لمدينتهم مزاجاً خاصاً بها، مستقلاً ومختلفاً عن سواه في المدن السورية الأخرى.

من عوامل هذا المزاج أن حلب لديها شعور بالتمييز والاختلاف، يعصمها من الاستجابة لما يحدث في سورية، على اعتبار أنها تعتمد تقويماً خاصاً لدورها وللحوادث العامة في سورية التي تحاول المدينة النأي بنفسها عن قضاياها وشؤونها السياسية، فيكتفي أهلها بالانصراف إلى تحصيل معاشهم وتدبيره وتحسينه من طرق الأعمال الصناعية والتجارية وسواها من المهن. ولعل هذا يصدر عن عدد من الاعتبارات المتضافرة والمتداخلة: شعور الحلبيين أن مدينتهم عريقة في تاريخها وأدوارها وقوتها الاقتصادية وفي موقعها التجاري. لكن تَنافُسَها التاريخي مع دمشق سلبها - منذ قيام الدولة السورية الحديثة ما بعد الحرب العالمية الأولى - أهليتها؛ لأن تكون عاصمة لدولة مستقلة. هذا الحلم الحلبي المجهض لم يعوّضه اعتزاز المدينة بصدارتها، بوصفها العاصمة الاقتصادية لسورية في مجالي الصناعة والتجارة، ما دامت تستقطب حوالى ٣٠ في المئة من الإنتاج السوري. فالاعتزاز هذا ينطوي على شعور آخر، كامن وعميق في الوعي الحلبي: لقد أزيحت المدينة إلى المرتبة الثانية بعد دمشق، بل هُمّشت وأُهملت سياسياً وإدارياً ومعنوياً، وخصوصاً منذ تولي حافظ

الأسد سدة الرئاسة في الدولة السورية التي تمركزت وزاراتها وإداراتها الحكومية في العاصمة.

هذه العوامل والمشاعر الملتبسة عزّزت لدى الحلبيين شعوراً بأن مدينتهم تعرّضت لقهر وقمع ونسيان قد تكون في أصل انكفائهم عن الانشغال بالقضايا والشؤون السياسية العامة، في بلد ودولة، يمتنع فيهما هذا الانشغال أصلاً منذ مطالع ستينات القرن العشرين، إلا على الخاصة في أروقة الحكم وقيادات الجيش والأمن والحزب الحاكم وبطانته المغلقة ومنظماته الخاصة.

لكنْ؛ في مقابل هذا الانكفاء، لم تفقد الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في حلب حيويتها وسيولتها وكثافتها، فظلت مدينة نابضة ومسكونة برغبتها في العيش طوال ساعات النهار والليل، حتى في حاراتها وأحيائها الداخلية الضاجة بالحياة في البيوت والمقاهي والمطاعم والأسواق وعلى الأرصفة، وصولاً إلى ريفها الذي لا ينام أهله قبل منتصف الليل. فحارة كرم الميسر العشوائية الفقيرة يظل دبيب الحياة اليومية متصلاً فيها طوال ٢٤ ساعة تقريباً. والحلبي حين يزور دمشق يصدمه هدوء الحياة فيها مقارنة بقوته في مدينته.

ومن صفات حلب الشائعة أنها مدينة الفقير، والمكتفية ذاتياً، والتي لا تنام. والشائع - أيضاً - أن الحلبي لا يقصد بيروت للعمل المياوم والتشرد فيها. فإلى أن لديه مدينة صناعية كبرى في حلب، يستطيع تدبير حاجات عيشه بالقليل. حتى مَن لا يعمل عملاً منتظماً، أو لا يعمل قط، يقيه من العوز تقليد التكافل والتضامن وتوزيع الصدقات السائدين كعرف في المدينة التي يندر فيها بيع ماء الشرب وشراؤها. تُغني الناس عن ذلك سُبُل الماء المنتشرة بكثرة في الشوارع، هذا إضافة إلى وجود بعضٍ من المطاعم التي تُطعم المعوزين مجاناً.

وطوال شهر رمضان تتكاثر في الحارات موائد مجانية للإفطار. وهناك

تجار يقدّمون، إلى هذه الموائد في رمضان، مواداً غذائية مجانية، كالسكر والأرز واللحوم. أما أصحاب رؤوس الأموال الحلبيون، فليس لديهم سعي لاستثمار أموالهم سياسياً عبر التقرب من رجالات النظام وبطانته الاقتصادية، على خلاف ما هي عليه الحال في دمشق.

هذه الصور الكثيرة لحلب تؤكد بعضَها شهادةُ شاب حلبي في العشرين من عمره. وهو من الشبان الذين شاركوا - بقوة - في تظاهرات الجامعة والأحياء الحلبية منذ بدايتها. ويقيم مع أهله في حارة كرم الميسر (عدد سكانها حوالى ٣٠ ألف نسمة، وهي من حارات العمران العشوائي المزدحم أفقياً، والشديدة الفقر في حلب). كما أنه ابن لضابط في سلك الشرطة طوال ١٥ سنة، قبل سجنه ٣ أشهر وتخفيض رتبته إلى مساعد أول؛ لأنه لم يستجب أمراً عسكرياً: إطلاق النار في إعدامات ميدانية في شوارع حلب، أيام حملات مطاردة محازبي «الإخوان المسلمين» ودهم بيوت عائلاتهم وأقاربهم واعتقالهم وإعدام بعضهم رمياً بالرصاص في الشوارع العام ١٩٨٢. وإذا كان امتناع والده عن المشاركة في تلك الإعدامات ينطوي على كسره حاجز الخوف (وهذه العبارة من صنيع الثورة السورية منذ آذار ٢٠١١) في الحقبة الأشد إرعاباً من حكم الرئيس الراحل حافظ الأسد (١٩٧٠ – ٢٠٠٠)، فإنه امتنع مذ ذاك عن أي كلام، يتصل بالسياسة، مع أولاده في البيت، وفي دوائر أصدقائه ومعارفه. وكانت هذه حال أهل الحارة جميعاً. وامتناعه عن التحدث في السياسة استمر على حاله إلى ما بعد تقاعده من الخدمة في سلك الشرطة العام ١٩٩٧. حتى إن عزوفه ذاك تزايد أثناء انفجار الثورات العربية في بداية العام ٢٠١١. وحين أخذ ابنه يكلمه عن احتمال اندلاع ثورة في سورية، استبعد الأمر مردداً العبارة التي شاعت آنذاك: سورية لن تثور قط، فهي تختلف اختلافاً كبيراً عن مصر وليبيا واليمن.

وروى الشاب أنه وشلة أصدقائه كانوا منصرفين إلى الانشغال بالأدب والشعر، تعويضاً عن امتناع اهتمامهم بالشؤون السياسية العامة، ونسجاً على منوال شلل من أجيال حلبية، سبقتهم في ذلك التعويض. وكان لسان

حال شبان تلك الشلل أن ٩٨ في المئة من الحلبيين تعودوا، بل ألفوا، الإقلاع عن التفكير والانشغال بالأمور السياسية. وبعدما اندلعت التظاهرات في كثير من مناطق سورية، وأخذ الشاب الراوي وأصدقاؤه يتظاهرون في بعض الحارات والأحياء، راحوا يتعرضون لزجر وإهانات من أهلهم وسواهم من الأهالي. لذا؛ هربوا، من حارتهم كرم الميسّر، كي يتظاهروا في حارات أخرى، تلافياً لغضب الأهل ومنعهم أولادهم من التظاهر.

لكن حارة كرم الميسر العشوائية الفقيرة تتدنّى فيها نسبة المتعلمين، ولا يتجاوز عدد مَن تجاوزوا التعليم الثانوي إلى الجامعي، العشرين شاباً. وإلى محام واحد، لا يتجاوز عدد الأطباء في الحارة الأربعة. وبعدما خرجت بعض التظاهرات في أحياء حلب الشرقية القديمة، أخذ شبان كرم الميسر يقولون: لو أن أطفالاً من حلب هم مَن قاموا بما قام به أطفال درعا، لما حصلت ثورة في سورية، لأن أهل الأطفال الحلبيين، كانوا سيذهبون إلى مسؤول المركز الأمني، ويعتذرون منه، بعدما اعتقل عناصر المركز أطفالهم، وعذبوهم. وبعد إطلاق سراح الأطفال، كان أهلهم سيقدمون على صفعهم ومعاقبتهم؛ لأنهم كتبوا تلك الشعارات على جدران مدرستهم.

أما اليوم؛ فإن أهالي حارة كرم الميسّر منقسمون ما بين الجيش الحر وجبهة النصرة في ولائهم وفي انتماء شبانهم ورجالهم.

٥. حلقات التعبير وأشكاله

إذا أردنا رسم صورة ما لأشكال التعبير الاجتماعي وظواهره القديمة والمستجدة في أوساط ودوائر شبابية وغير شبابية في حلب، فيمكن أن نحصي خمساً من هذه الأشكال والظواهر.

أ. التصوف

يرقى حضور الطرق الصوفية، حلقات وزوايا وتكايا في حلب، إلى عهود

وأزمنة قديمة. وقد يكون هذا الحضور الأوسع انتشاراً بين سائر مدن البلدان العربية المشرقية، ولا يضاهيه سوى انتشاره في المدن التركية التي يتصل التصوف فيها بالتصوف في حلب التي لا شك في أنها الموطن والمعقل والمقلع الأول والأقدم للتصوف في سورية. وروى الشاب الحلبي نفسه أنه نشأ وتربى في مناخ عائلي صوفي. فعائلته الموسعة ينتشر فيها التصوف على نطاق واسع. وأمه وأبوه من مرتادي الحلقات الصوفية منذ كانا في العاشرة من عمريهما. وقد لا يخلو بيت وعائلة من حلب من حضور ما للممارسات والأخلاق الصوفية الروحانية. ولا يدري الشاب إن كانت قوة هذا الحضور واتساعه من عوامل الاستكانة والاستقرار والانكفاء في المدينة، وإن كان متنفساً تعبيرياً واجتماعياً قديماً ومستجداً في المدينة. لكن الأكيد أن التصوف شكل من أشكال التعبير والتنظيم الاجتماعيين في استقطابه العائلات وأهالي الأحياء والحارات إلى المساجد والحلقات والزوايا والطرق المختلفة ومشايخها الكثيرين، فتضم مريدين من أعمار وأجيال وبيئات وفئات اجتماعية متفاوتة. ففي كل جامع في حلب هناك خطيب صوفي، كانت حلقاته ما قبل الثورة تستقطب جماعات من المدينة وريفها ومن بعض المدن السورية، وصولاً إلى مدن عراقية. لكن النشاط الصوفي لا يقتصر على الحلقات في المساجد والزوايا والتكايا، بل يتعداها إلى إقامة مناسبات اجتماعية ودينية، كالموالد والزفاف والأعياد وزيارات الأولياء والأضرحة. وبعض حلقات التصوف الحلبية كانت تضم مئات من الشبان. ولا شك في أن الثورة السورية قوّضت أركان النشاط والتنظيم الصوفيين اللذين سيأفل حضورهما عن المدينة، في زمن ما بعد الثورة على الأرجح.

ب- مشجّعو فرق كرة القدم

اتسعت ظاهرة مشجّعي نوادي كرة القدم وفرقها في حلب في السنوات العشر الأخيرة. وهذا في ظل رعاية بعض من رجال الأعمال الجدد، التابعين لنظام بشار الأسد، أندية رياضية، لاستعمالها في تجديد سيطرة النظام، وتفعيلها في أوساط الأجيال الشابة. وقد تكون هذه الظاهرة، الحالة الاجتماعية العلنية الأقوى حضوراً شعبياً وجماهيرياً صاخباً في استقطابها

فئات عمرية واجتماعية وأهلية مختلفة، يتصدرها الشبان في مدرجات الملاعب، وبعد خروج جمهور المشاهدين منها إلى الشوارع.

نادي «الاتحاد» وفريقه لكرة القدم، هما الأوسع والأقوى استقطاباً جماهيرياً في حلب. ففي كل مباراة بين فريق هذا النادي وأي من الفرق السورية أو غير السورية، كانت تكاد تتوقف معظم النشاطات المدينية، وخصوصاً في الأحياء الشعبية. يضم جمهور نادي «الاتحاد» فئات واسعة من البورجوازية، ومن الطبقتين الوسطى والشعبية السّنّيّة الحلبية. علم هذا النادي أحمر اللون، فيما يجلل اللون الأخضر علم نادي «الحرية» الكردي، الند والمنافس لـ«الاتحاد» الذي يقوم مقر ناديه في منطقة الشهباء الأرقى اجتماعياً في حلب، بينما يقوم مقر نادي «الحرية» في منطقة شعبية كردية فقيرة. وفي أوقات المباريات ما بين فريقي هذين الناديين، غالباً ما كان يقوم جمهور مشجعي نادي «الاتحاد» بالاعتداء على سيارات التاكسي التي تضيء على سقفها الإشارة الخضراء علامة إلى أن السيارة فارغة، وفي حاجة إلى ركاب.

الحق أن ظاهرة انقسام مشجّعي فرق كرة القدم كانت تشمل معظم المدن السورية، ويتلون الانقسام في كل منها وفقاً لتركيبها السكاني الطائفي والعرقي. في اللاذقية مثلاً كان السؤال الشائع ما قبل الثورة: أنت حطّيني (نسبة إلى نادي «حطين» وفريقه السّنّيّ الذي يستقطب جمهور مشجّعيه من الفئات السّنّيّة)، أم أنت تشريني (نسبة إلى نادي «تشرين» وفريقه العلوي الذي يستقطب جمهور مشجّعيه من العلويين). أما في حمص؛ فإن جمهور مشجّعي نادي «الكرامة» وفريقه لعبا دوراً مشهوداً في ثورة المدينة ونشاطاتها منذ بدايات طورها السلمي. والمعروف أن «الكرامة»، فريقاً رياضياً وجمهوراً، يستقطب السّنّة في حمص، وكان النظام السوري ما قبل الثورة يستعمله حربة سياسية لتشاوفه والدعاية له، لأن هذا الفريق الرياضي نال جوائز كثيرة في مباريات عربية، هزم فيها الكويت وقطر، ووصل مرة إلى تصفيات الأمم الآسيوية.

لاعبو «الكرامة» متديّنون تديّناً «تقليدياً» عادياً في معظمهم، وتكسو وجوههم ذقون خفيفة مشذّبة، ولعبوا مع جمهور مشجعي الفريق دوراً مشهوداً في ثورة حمص، وخصوصاً في طورها السلمي، فاشتهر حارس مرمى «الكرامة» عبد الباسط الساروت كمنظّم وهتّاف في التظاهرات في ساحات حمص الداخلية، إلى جانب الممثلة السورية العلوية فدوى سليمان. أما الفريق الحمصي الآخر المناوئ لـ«الكرامة»؛ فهو فريق «الوثبة» العلوي في لاعبيه وجمهوره مشجعيه. وفي ملاعب سورية لكرة القدم، كانت تتصدر الملاعب صورة ضخمة لحافظ الأسد في كل مباراة، فيقف رجال الأمن تحتها لحمايتها، فيما ينشغل المصوّرون في تصويرها.

الموقع الإلكتروني على الإنترنت، «عكس السير»، الذي أُنشئ العام ٢٠٠٧ في حلب، كان يهتم اهتماماً كبيراً في نقل أخبار فرق كرة القدم، لاعبين ومباريات وجمهور مشجعين في الملاعب. كان الموقع من مشجعي فريق «الاتحاد» الحلبي، وفي سنة نشوئه، ظهرت جماعة الألتراس لتشجيع «الاتحاد»، فأنشأت لذلك موقعاً خاصاً على الإنترنت باسم «حلب أون لاين»، فبلغ عدد المشاركين فيه حوالى مئة ألف مشجع. وبالرغم من أن جماعة «ألتراس الاتحاد» لم يتجاوز عددهم ٣٠٠ شاباً، في معظمهم من الطلبة الجامعيين، ومن أبناء العائلات الميسورة الحلبية، فإن حضورهم في مدرجات ملاعب كرة القدم، أضفى طابعاً جديداً على أجواء المباريات. فأعضاء الألتراس هؤلاء درجوا على دفع اشتراكات مالية شهرية، وأخذوا يرتدون ملابس موحدة خاصة بهم، ويطلقون الأسهم والمفرقعات النارية، ويرددون هتافات خاصة أثناء المباريات. وهذا أطلق مناخاً احتفالياً جديداً بين المشجعين، وأدى إلى كسر رتابة أسلوب التشجيع والتعبير، من دون أي حضور للطابع والمعاني السياسية لتلك الاحتفالات، على خلاف السلوك التمردي لجماعات الألتراس في مصر، وعدائها المستفحل لأجهزة الأمن والشرطة، وصداماتها العنيفة والمتكررة مع عناصرها في الشوارع، وصولاً إلى مشاركتها البارزة في الثورة المصرية. فألتراس الاتحاد مال معظم أعضائه إلى تأييد النظام السوري الأسدي ضد الثورة.

ت- الإسلاميون غير «الإخوانيين»

«جماعة الإخوان المسلمين» محظورة في سورية منذ الحملة الدموية التي قام بها نظام حافظ الأسد ضدها، وتوّجها بمذبحة حماة في العام ١٩٨٢، وأصدر قانوناً، يجيز إعدام المنتمين إليها. وفي ظل الحظر والرعب اللذين أصابا «الإخوان»، نشأت جماعات إسلامية سلفية دعوية واسعة، وراحت ببثّ دعوتها أثناء خروجها الدعوي في رحلات وصل بعضها إلى أفغانستان. أما موقف النظام السوري من هذه الجماعة؛ فتراوح ما بين غض النظر عنهم، وتركهم يقومون بنشاطاتهم، واعتقالهم وسجنهم، وقيام الأجهزة الأمنية باستعمالهم بعد إطلاق سراحهم. والحق أن الشبان السلفيين في حلب شاركوا بقوة في الحراك الثوري ضد النظام تحت راية أميرهم الذي تجاوز الستين من عمره. وقبل الثورة، كانوا على حضور لافت في جامع آمنة الذي اتخذوه بؤرة أساسية لحلقاتهم.

ث- موقع «عكس السير» الإلكتروني

في العام ٢٠٠٧ أنشأ عبد الله عبد الوهاب موقع «عكس السير» الإلكتروني»، فجمع حوله سبعة شبان حلبيين من المداومين على الجلوس ساعات أمام شاشات الكومبيوتر في مقاهي الإنترنت في حلب، للتسلية والاطلاع والتعارف عبر غرف المحادثة الإلكترونية. كان عبد الوهاب أكبر سناً من أولئك الشبان، وتجاوز الثلاثين من عمره، ويقيم مع أهله في حارة كرم الميسّر، ودرس متأخراً الإعلام في جامعة دمشق. أما الشبان؛ فكان اثنان منهم يدرسان الاقتصاد، وثالث يدرس الترجمة، إضافة إلى فتاتين من مستوى دراسي ما قبل جامعي. اعتمد الموقع على نشر أخبار مثيرة وشبه فضائحية عن الممثلات والممثلين العرب والعالميين، إلى جانب أخبار عن حوادث اغتصاب، تحدث في حلب وريفها، فأقبل الناس على هذه الأخبار، وصارت من مدارات أحاديثهم اليومية في المدينة. وهذا ما حمل شاباً من إعزاز يدعى عامر ياسين على اقتراح فكرة الاستفادة التجارية الإعلانية من اتساع جمهور الموقع، فقدم مبلغاً من المال لتمويل مرتبات

العاملين فيه. كان ياسين - أيضاً - أكبر سناً من الشبان العاملين في الموقع، من دون أن يتجاوز المرحلة الثانوية في تعليمه، ويعمل في التجارة الحدودية الصغيرة ما بين سورية وتركيا. في العام ٢٠٠٨ اتسع الإقبال على الموقع، وتجاوز جمهوره مدينة حلب. حتى أهالي حارة كرم الميسّر أخذوا يتحدثون عنه، بعدما صار معروفاً، وبشكل ظاهرة عامة، ويحصّل أرباحاً مالية وفيرة من نشره إعلانات لمؤسسات تجارية حلبية، فبلغت أرباحه ما بين ٥٠٠ ألف ومليون ليرة سورية في الشهر.

هذا ما رواه شاب حلبي بدأ العمل في الموقع الإلكتروني العام ٢٠٠٩، عندما كان طالباً في المرحلة الثانوية وفي السادسة عشرة من عمره، وأخذ يتقاضى مرتباً شهرياً كبيراً في المعايير السورية، قدره ١٠ آلاف ليرة سورية (حوالى ٢٢٠ دولاراً)، فيما كان مرتب مؤسس الموقع عبد الله عبد الوهاب ٣٠ ألف ليرة سورية.

وسط الإقبال الكثيف على «عكس السير» جرى تطويره، فأنشئت فيه أقسام جديدة: قسم للتحقيقات الاجتماعية المحلية، وآخر تاريخي - سياحي، في عنوان «عالبال» ينشر مواد تاريخية عن مدينة حلب وتراثها، وثالث في عنوان «طافشين» (أي هاربين) يتناول أخبار المهاجرين الحلبيين. ثم أخذ الموقع يتناول أخبار حوادث، تهم الرأي العام في سورية. فهو تتبع مثلاً قضية إعدام شخصين حلبيين قاما بسرقة متجر مجوهرات، وقتلا فتاة، ونشر شريط فيديو عن الحادثة. ثم أخذ ينشر - أيضاً - أخباراً عن حوادث اغتصاب فتيات، والقبض على عاهرات. هذه الحوادث وأمثالها كانت أخبارها تخرج للمرة الأولى إلى العلانية في سورية، الأمر الذي جعل الموقع أوسع انتشاراً وأقوى تأثيراً بكثير من الصحف الورقية، فدبّ حماس فائض بين العاملين فيه، واستقطب شباناً جدداً، وراودت كثيرين منهم رغبات في تطويره. وفي هذا الإطار، ظهرت على الموقع بعض من التحقيقات حول سجن حلب المركزي وكثرة والمشاكل فيه، وحول جنوح الفتيان، وفسادهم.

هنا لا بد الإشارة إلى أن قوة «عكس السير» وتأثيره الواسع، تزامنا مع تسلّم ماهر الأسد، شقيق الرئيس بشار الأسد، الملفّ الأمني في حلب العام ٢٠٠٩. فشكّل ذلك حدثاً - منعطفاً في المدينة، بعد اعتقال حوالى ١٤ ألف شخص من أصحاب الميول الإسلامية، ومن المعتقلين السابقين المطلق سراحهم، ومن الذين يقبلون على شرب الكحول، ومن الذين يحملون سكّيناً في الأماكن العامة. ووسط هذه الحملة الأمنية الشعواء في حلب اعتُقل حوالى ٣ آلاف شخص، لا ذنب لهم، تحت شعار «تنظيف المدينة من الزعران وتثبيت الأمن والأمان فيها»، فأقيمت في شوارع المدينة أكشاك لرجال الشرطة، لا يفصل بين الواحد منها والآخر أكثر من ٣٠٠ متر. وهذا ما لم تشهده أي مدينة أخرى في سورية. نقل موقع «عكس السير» أخبار هذه الحملة، ووثّقها، مما حمل الناس على الاتصال هاتفياً بإدارة الموقع، لدى حصول حادثة ما في أحيائهم السكنية، فيحضر مندوب من العاملين فيه إلى مسرح الحادثة مع مصوّر؛ حيث يقومان بدور صحافة ميدانية غير معروفة، ولا مسبوقة في سورية التي ترتبط مؤسساتها الصحافية والإعلامية ارتباطاً وثيقاً بأجهزة السلطة. جدة عمل الموقع الإعلامي وحيويته، حملتا الأهالي في الأحياء على الاحتشاد حول مندوبيه الميدانيين، كلما حضروا إلى مسرح الحوادث لاستطلاعها، وتسقط أخبارها من الناس. وهذا أدى إلى تزايد عدد متصفحي «عكس السير»، فبلغ حوالى ١٤ مليون شخص في سورية، بمعدل ٣٠٠ ألف متصفّح في الشهر.

هنالك مسألتان ترجّحان أن يكون منشئ الموقع، عبد الله عبد الوهاب، على ارتباط ما بأحد أجهزة النظام، أو بأحد النافذين فيها: المسألة الأولى هي تغطيته أخبار حملة ماهر الأسد الأمنية في حلب. والمسألة الثانية تتعلق بذلك العقد العرفي غير المعلن ما بين النظام والإعلاميين ومؤسساتهم. يتلخّص هذا العقد بأنه يضع سقفاً وحدوداً غائمة ومطاطة وغير معلنة لتداول الرأي والأخبار والنقد، غالباً ما يلتزمه الإعلاميون. هذا

ما فعله «عكس السير» في عمله، فالتزم في أخباره عدم التعرض للأجهزة الأمنية والجيش والرئيس. لكن هذا الالتزام لا يعصم الإعلاميين ومؤسساتهم من تدخّلات النظام، ما دامت الحدود المتاحة للرأي وتداول الأخبار، غامضة ومحفوفة بالشائعات والكتمان والخوف.

وما يرجّح صلة منشئ الموقع بأحد النافذين في السلطة، هو هرب عبد الوهاب من حلب إلى اللاذقية؛ حيث صار من كبار الشبيحة فيها، بعدما تكاثر خروج التظاهرات في حلب. وفي عشايا الثورة في سورية، وفي بداياتها، حصلت خلافات بين عبد الوهاب وممولّ الموقع عامر ياسين الذي مال إلى مناصرة الثورات العربية في مصر وليبيا. وعندما انتشرت في سورية أخبار عن عزم الحكومة السورية رفع مرتبات الموظفين السوريين في خضم تلك الثورتين، وقام «عكس السير» بنشر أخبار زيادة المرتبات، اتصل وزير المالية بإدارة الموقع مهدّداً، وطلب حذف تلك الأخبار، فاستجاب عبد الله عبد الوهاب للأمر سريعاً. تكرر مثل هذا الأمر عندما نشر الموقع إعلاناً لمحطة الـ (BBC) الإذاعية حول برنامج لها، عنوانه «هل ستندلع الثورة في سورية أيضاً؟»، لقاء ١٠ آلاف دولار، دفعتها المحطة للموقع الذي جاءه الاتصال هذه المرة من أحد الضباط الكبار في جهاز أمني، قائلاً: احذفوا الإعلان، وإلا سوف يجري حذفكم، فحُذِف الإعلان بعد أيام من نشره.

قبل ذلك، كان نجاح «عكس السير» قد شكّل نموذجاً إعلامياً، استُنسِخت على منواله عشرات المواقع الإلكترونية في حلب، منها «عكس السير دوت نت»، و«عكس السير دوت أورغ». أما في خضم الثورات العربية وفي بدايات تناقل الأخبار عن التداعي إلى التظاهر في مدن سورية، وخصوصاً في دمشق؛ فقد دارت مناقشات بين العاملين في الموقع (حوالى ١٥ شاباً)، حول الموقف من الثورات. كان رأي المؤسس عبد الله عبد الوهاب أن يقف الموقع على الحياد، لكنه ظل حائراً ما بين تغطية أخبارها، أو عدم تغطيتها، وشاع بين العاملين فيه القول إنها لن تكون أكثر

من عاصفة في فنجان، وسوف تخفت وتتلاشى في غضون أيام معدودة.

وأثناء تلك الدعوات التي انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي (فايسبوك) ذهب الشاب الراوي والعامل في الموقع، مرات كثيرة إلى ساحة سعد الله الجابري في وسط حلب، ليشهد إن كانت ستحصل تظاهرة؛ ليغطي أخبارها للموقع. أخيراً شاهد في الساحة تظاهرة صغيرة، فشارك فيها، واعتُقل للمرة الأولى. لكنه بعد إطلاق سراحه، ترك العمل في «عكس السير» الذي هرب مؤسّسه إلى اللاذقية بعد مدة، فتولى مموّله عامر ياسين إدارته، وأخذ ينقل أخبار الثورة.

ج- حلقات الميول الأدبية

في العام ٢٠٠٨ كان الشاب العامل في موقع «عكس السير» الإلكتروني، واحداً من شبان مرحلة التعليم الثانوي الذين جذبتهم حلقات الميول الأدبية والفنية في كافيتريات جامعة حلب. فأخذ يخالط حلقات أولئك الطلبة الجامعيين في جلساتهم اليومية الطويلة، منجذباً إلى أحاديثهم ومناقشاتهم المستفيضة في شؤون الأدب والفن والشعر والمسرح. كانت هذه الحلقات قد استعادت نشاطها بعد وفاة الرئيس حافظ الأسد في العام ٢٠٠٠، على ما علم أثناء مخالطته روّادها، وعلى ما قرأ في كتاب «تاريخ حلب المصور» الذي وضعه ونشره علاء السيد، مسؤول قسم «عالبال» في موقع «عكس السير». ما قبل الحملة الأمنية الدموية العاتية التي شنّها نظام حافظ الأسد في عموم سورية في مطلع ثمانينات القرن العشرين، كانت تلك الحلقات ناشطة في الجامعة. ولكنها خبت مذ ذاك، بعد تكميم الأفواه والعقول وإخراس الألسن وقتل لغة التواصل والتعبير، وتمزيق النسيج الاجتماعي وعلاقات التعارف والتبادل بين الناس. لكن الحلقات الجامعية انبعثت مجدداً وبطيئاً بطيئاً في العقد الأول من الألفية الثالثة، بعدما كانت فئات واسعة من المجتمع السوري والطلبة الجامعيين قد ارتدّت إلى أشكال من العلاقات والتواصل والتعبير، مدارها الانكفاء والتديّن والحياة العائلية والتصوف وتشجيع فرق كرة القدم.

كان انبعاث تلك الحلقات في الجامعة تعبيراً وتعويضاً عن كبت اجتماعي وسياسي وثقافي طوال سني العقدين المنصرمين اللذين اشتدت فيهما القبضة الأمنية على المجتمع السوري، فخنقت الفضاء العام والحياة اليومية، وخصصتهما لطقوس عبادة القائد والرفيق المناضل والرئيس الأب، حافظ الأسد. وهذا ما يفسر كثافة إقبال طلبة الكليات العلمية، كالطب والهندسة، على الانضواء في حلقات الميل والهوى الأدبيين والفنيين، لأنها الوحيدة المتاحة للخروج من ذلك التصحّر المديد للسياسة والحياة العامة. وبما أن جامعة حلب يقصدها طلبة من محافظات سورية ومدنها الأخرى، كحماة وإدلب وحمص والحسكة ودير الزور والرقة، فإن تلك الحلقات كان يحضر فيها طلبة غير حلبيين، يقيمون في مبنى السكن الجامعي، أو في مساكن طالبية مشتركة في أحياء حلب، فيتخالط هؤلاء في الجامعة وحلقات كافيتریاتها، على تنوّع منابتهم الجهوية والمدينية ومجالاتهم الدراسية، تجمعهم ما تتيحه الميول والأهواء الأدبية والثقافية والفنية من تعارف وتواصل ومناقشات. وكانت هذه الحلقات البؤر الأساسية التي بدأت تتململ وتتحرك بطيئاً في جامعة حلب، متأخرة زمناً عن خروج التظاهرات الشبابية في المدن السورية الأخرى.

٦. الجامعة والأحياء الفقيرة

ما سبق في ما يتعلق بمزاج حلب الخاص، وتريّثها وتأخّرها عن اللحاق بركب الانتفاضة، لم يمنع انطلاق المظاهرات في ريفها الشمالي، بمدينة مارع، في ٩ نيسان ٢٠١١، وفي مدينة كوباني (عين العرب) في ١٢من الشهر نفسه، وفي جامعة حلب، كلية الآداب تحديداً في ١٣ نيسان إياه. وما إن هتف حوالى مائة شاب في الجامعة، لمدّة خمس دقائق: حرية، حرية، حرية. وواحد واحد واحد/ الشعب السوري واحد. وبالروح بالدم/ نفديك، يا درعا؛ حتى هجمت عليهم، بتحريض من اتحاد الطلبة المؤلف من مجموعات من طلاب البعث، فركض المتظاهرون هاتفين: سلمية، سلمية، سلمية. جرى اعتقال خمسة شبّان من المتظاهرين، وتحوّلت التظاهرة مسيرة مؤيّدة للنظام، وغطّاها تلفزيون «الدنيا» التابع له.

بعد ذلك، اعتمد الناشطون المظاهرات الطيّارة في كلٍّ من أحياء: طريق الباب، الصاخور (من جامع أبو بكر الصديق)، مساكن هنانو، الشعار، المرجة، الفردوس، بستان القصر، السكري، جمعية الزهراء، حلب الجديدة، سيف الدولة (من جامع آمنة)، وصلاح الدين. كانت المظاهرات الطيارة تبدأ وتنتهي بسرعة في هذه الأحياء، بسبب قدوم أرتال أو قطعان من الأمن والشبيحة لقمعها، واعتقال الكثير من المّارة وأصحاب المحلات وأهالي الأحياء، وأحياناً يطال الاعتقال خطباء وأئمة المساجد التي كانت تخرج منها المظاهرات، وساعدت على كسر حاجز الخوف لدى المتظاهرين.

أولى المظاهرات خارج الجامعة كانت مظاهرة سيف الدولة في ٢٥ أيار ٢٠١١. وهي مظاهرة تجريبية، اكتشف فيها الناشطون حقيقة قوتهم، فبدؤوا بالتخطيط لأماكن انطلاق المظاهرات ومواعيدها. ويمكن اعتبار حيّيْ سيف الدولة وصلاح الدين، أولى مناطق التظاهر في مدينة حلب، اعتباراً من أيار ٢٠١١، تلاهما حيّا الأشرفية والشيخ مقصود.

فبعد التوسع المتدرج وغير المتزامن لتظاهرات الحركة الاحتجاجية في مدن سورية وأريافها عقب انتفاضة درعا وريفها في آذار ٢٠١١، خرجت أولى التظاهرات الطيارة في حلب من حي صلاح الدين الفقير والمكتظ في شرق المدينة الجنوبي المتاخم لحي آخر، يماثله - تقريباً - في فقره واكتظاظه، هو حي سيف الدولة.

في بدايات نشوئهما العمراني، كان هذان الحيّان نظاميين عمرانياً (غير عشوائيين) قبل أن تنشأ إلى جانبهما الشرقي والجنوبي الأحياء العشوائية الأشد فقراً واكتظاظاً في حلب. أما الأحياء النظامية الجديدة عمرانياً لسكن الفئات الوسطى والميسورة؛ فنشأت كلها وتوسّعت في غرب المدينة. كأن حلب وفئاتها الاجتماعية الجديدة الميسورة، تتوق إلى الغرب، والى كتابة تغريبةٍ عمرانية شوقاً إلى البحر البعيد وهوائه البحري.

يقع حي صلاح الدين الذي خرجت منه التظاهرات الأولى، غير بعيد

من مركز حلب التقليدي القديم؛ حيث القلعة الأثرية والأحياء القديمة، مثل الصاخور والكروم.

في خمسينات القرن العشرين، بدأ صلاح الدين النظامي عمرانياً، يتحول حياً فقيراً ومكتظاً، مع صيرورته ملجأ لفقراء الفئات المتوسطة الحلبية التي خرجت إليه من أحياء المدينة القديمة.

أما حي سيف الدولة المتصل به والمماثل له عمرانياً، وخرجت منه تظاهرات منذ بدايات الحركة الاحتجاجية؛ فأصبح - بدوره - فقيراً ومكتظاً، مع تحوله ملجأ للفئات الوسطى الأقل فقراً بعد خروجها من الأحياء القديمة نفسها.

في هذين الحيين وسواهما من الأحياء العشوائية البائسة إلى الشرق والجنوب الشرقي، تكوّن ما يمكن اعتباره الجسم الأهلي لحركة الاحتجاج والتظاهر في مدينة حلب التي تشدّد النظام في فرض قبضته الأمنية على أحيائها حتى الاختناق، محاولاً تحييدها وإبقاءها في منأى من تمدد الثورة السلمية إليها.

البؤرة أو النواة الثانية للتظاهر في حلب، هي جامعتها، أو المجمع الجامعي الكبير في مساحته، وفي أعداد طلابه. فالتظاهرات في الحرم الجامعي الذي يحوي مباني للسكن الطالبي، بدأت بالتزامن مع تظاهرات صلاح الدين وسيف الدولة تقريباً، ثم أخذت تشتد وتتسع أسبوعاً بعد أسبوع في نهارات الجمعة، حتى أصبحت يومية طوال السنة الدراسية ٢٠١١-٢٠١٢.

مع دخول المراقبين الدوليين إلى حلب في أيار ٢٠١٢، وصل عدد الطلبة المشاركين في إحدى التظاهرات داخل الحرم الجامعي وخارجه، إلى حوالى مئة ألف متظاهر. هؤلاء خليط اجتماعي وطبقي. وإذا كانت الطبقة الوسطى والميسورة الحلبية السّنّيّة المقيمة في الأحياء الغربية

من المدينة، لم تشارك في الحركة الاحتجاجية وتظاهراتها، برغم تعاطفها المكتوم معها، فإن مجموعات طالبية جامعية من أبناء هذه الفئات، شاركت في التظاهرات داخل الحرم الجامعي، فيما ظلت الأحياء السكنية لأهالي هؤلاء الطلبة هادئة مستكينة.

حلب (وربما دمشق) على خلاف حمص وحماة وبانياس، على سبيل المثل، لا الحصر، لم تتمكّن من خوض غمار التجمهر والاعتصام السلميين في الشوارع والساحات الكبرى والمركزية. كما أن حلب - بخلاف درعا - لم تعثر على ذلك الجسم الأهلي الداخلي، العميق والمتماسك، لحركة الاحتجاج السلمي فيها، إلا على نحوٍ جزئي في صلاح الدين وسيف الدولة وأحياء شرق المدينة، كالصاخور ومساكن هنانو والشعار، وعلى نحوٍ واسع، في أرياف حلب. وهذه - أيضاً - حال دمشق مع أريافها القريبة.

في المقابل، هبّ طلبة جامعة حلب إلى خوض غمار الاحتجاج والتظاهر السلمي داخل الحرم الجامعي الذي شهد حراكاً شبابياً متصاعداً ومتصل الحلقات، من دون أن يحظى بتغطية إعلامية واسعة، ربما لأن حركة الاحتجاج والتظاهر المنفلتة - بقوة - في سواها من المدن والأرياف، هي التي تصدّرت مشاهد الثورة السورية، وجذبت المتابعة الإعلامية المتواصلة.

حالُ حلب الخاصة هذه، تخالف قاعدة أساسية في ثورة السوريين، بوصفها ثورات متفرقة في مرحلتها السلمية المديدة، والتالية المسلحة والمديدة أيضاً. القاعدة المعنية هي أن الطبيعة العامة الأساسية لثورة السوريين تتمثل في كونها ثورة بؤر متفرقة شديدة التشتت، لا تتحرك، ولا تتصل أفقياً، ولا تنحو نحو التمركز والتزامن، حتى في المدينة الواحدة. ذلك أن هذه الثورة عملت على التجذر عمودياً وعميقاً في بؤرها، فيما هي تنتشر، وتتسع أفقياً. كأنها في تشتّتها هذا وليدة ما صنعه النظام الأسدي الذي سجن المجتمع السوري، قدر ما ذهبت (الثورة) في اتجاه تفكيك، بل تحطيم، ذلك السجن والنُّظم والبنى السلطوية الساحقة للمجتمع

والعمران والتاريخ حتى الركود في سورية الأسد. وهذا في سبيل الخروج من السجن الأمني الذي أقامه النظام، وسجن فيه السوريين، ومجتمعهم.

٧. المظاهرة والتنسيقية والطالبات

بعد التظاهرة الأولى في حي الأشرفية الحلبي يوم استشهاد مشعل تمّو بتاريخ ٧ أيلول ٢٠١١، تشكّلت تنسيقية التآخي.

ويمكن القول إن المظاهرة الأقرب إلى العفوية، مع الحد الأدنى من التنسيق والتنظيم، كانت سابقة في ظهورها على التنسيقية كإطار تنظيمي جديد على حياة السوريين منذ حوالى ٥٠ سنة. مشاركة الناشطين في المظاهرات الأولى مكّنتهم من التعارف والتجمع، ومن تأسيس التنسيقيات، وتنظيم المظاهرات، وتوزيع المنشورات، ومن القيام بحملات كتابة الشعارات على الحيطان، لخلق الرأي العام، وتحفيز الناس على المشاركة في المظاهرات.

كان مصطلح التنسيقية ومفهومها ومعناها جديدة كلها على الشارع الحلبي. لكن ذلك لا يعني أنّ المظاهرة كانت تخرج دونما تنسيق بين بعض الشبان. تشكّلت التنسيقيات الأولى في الأحياء؛ حيث بدأ الشبّان المتقاربون في الأفكار يتعرفون على بعضهم في المظاهرات، وبادروا إلى إنشاء غرف للمحادثة عبر السكايب، بأسماء وهمية. هذه الغرف مكّنتهم من الاتفاق على مواعيد المظاهرات وكتابة اللافتات وتجهيز الأعلام.

وبعد مدة قصيرة، تشكلت مجموعة من التنسيقيات في حلب: أحفاد الكواكبي، الفلاورز (مشاعل الحرية بالكردية)، التآخي، اتحاد طلبة سورية الأحرار في جامعة حلب، تلتها أحرار الصاخور، وأحرار المرجة.

غالباً ما كان الناشطون في هذه التنسيقيات زملاء في جامعة حلب. وهذا ما سهل عملية التنسيق الجيد وتمدّد الثورة في أرجاء المدينة، وتزايد نقاط التظاهر وحشودها، بسبب تفاهم مجموعات الناشطين وانسجامهم، ودعمهم نقاط التظاهر.

تضيء شهادة إحدى الناشطات الحلبيات الخطوات التي ذهبت في اتجاه بلورة الحراك الشعبي، وكيفية تحوله من عمل عفوي إلى عمل منظم في المدينة.

تروي زينة أنه كان لديها موقع إلكتروني إخباري، بدأت تنشر عبره الأخبار عن الثورة، وخاصة المظاهرات التي راحت تنتشر في حلب. كانت تنقل عن رويترز وغيرها من الوكالات التي تنشر أخبار الثورة في سورية، مرفقة ذلك بما تنشره سانا السورية من أكاذيب. وسرعان ما جرت مداهمة الموقع الذي أفادها بعد توقّفه، في إنشاء صلة وصل بالثوار والناشطين في مدينتها، لتبدأ المرحلة الأهم في حياتها: دعتها مجموعة من الأصدقاء إلى الخروج في مظاهرة، تنطلق من كلية الآداب في الجامعة. وهي لا تزال تذكر تلك اللحظة جيداً، بكل تفاصيلها، كأنها خالدة في وعيها ومشاعرها: كانت واقفة في بهو كلية الآداب الضخم، فيما أصوات آلاف الطلاب حولها يمشون، وتتضخم أصواتهم في سمعها. رأت بعض الأصدقاء الذين دعونها، فركضت إليهم، وقفت معهم، كأنها تعرفهم منذ ألف سنة. لم يتجاوز اللقاء الدقائق الخمس، قبل تفرّقهم السريع وسط الهتافات المتعالية. نبضات قلبها أخذت تتسارع، وتزداد عنفاً، فسمعتها تخفق صاخبة في رأسها. كانت تنظر نحو باب البهو، ظانة أن المظاهرة ستخرج منه. لكن من الخلف، من أول الدرج في وسط البهو، فاجأتها صيحة مرتفعة: تكبير. تجمّد الدم في عروقها، وللحظة لم تعد تسمع شيئاً أبداً. رأت الجميع يركضون نحو مكان الصوت هاتفين. لم تصدق أنها في وسط الحدث، وصارت هي الخبر الذي كانت تنقله إلى الموقع، أو تشاهد صوره على اليوتيوب.

من الملاحظ أن غالبية شهادات الناشطين والناشطات الشبان والشابات في حلب - وفي غيرها من مدن سورية - تتقاطع في الكثير من النقاط. حتى تكاد تتطابق. وهذا ما يشير إلى الآليات المحورية المشتركة التي تبلور الحراك على أساسها.

تتابع زينة سرد تجربتها الخاصة. لقد تكرّرت مشاركتها في المظاهرات المتكاثرة: أحياناً في الجامعة، وأخرى في الأحياء، أو حولها، وفي بعض الأحيان بعيداً منها. لكن نشاطها ارتطم بحائط الصد الأكبر مدركة ما أدركه غيرها من قبلها: إنها أنثى. لم يكن الأمر يبدو لها معقداً في بداية الثورة، مع العلم أنه كان يحمل بعداً اجتماعياً معيقاً. عائلتها أخذت تمنعها من الخروج في المظاهرات، خشية عليها من الاعتقال والاغتصاب الذي تكرر حدوثه في فروع الأمن. حتى أصدقاءها الشبان من المظاهرين أخذوا يتذمّرون من خروج الفتيات للتظاهر، بدافع الخوف عليهن.

بعد وقت من انطلاق الثورة في حلب، نشأت صفحة على فايسبوك باسم «حرائر حلب»، معبّرة عن مجموعة نسوية ثورية. لكنْ؛ خُصِّصت للنساء نشاطات معينة: كالحياكة والتمريض وأمثالها. زينة اتجهت إلى العمل الإعلامي والإغاثي. صادفت عدداً من الفتيات اللواتي اخترن ذلك أيضاً. وبعد دخول الثورة المرحلة المسلحة، بات الأمر أكثر تعقيداً، لكنْ؛ أكثر وضوحاً في ما يتعلق بدور المرأة: تذكر المرة الأولى التي دخلتْ فيها المناطق المحررة، ووجدت أنها محطّ أنظار، تستغرب سفورها، وعدم ارتدائها الحجاب.

تؤكد الشهادات الدور الحاسم الذي لعبته جامعة حلب في الحراك الثوري في المدينة. كانت الجامعة البؤرة التي يُطبخ فيها النشاط الثوري الحلبي، ومنها كانت تدار دفّة المظاهرات والكتابة على الجدران وغيرها من النشاطات. إحدى الناشطات تروي أنها في أواخر الشهر الأوّل من عام ٢٠١١، التقت بكثرة من الشبان والشابات الراغبين والراغبات في كسر حاجز الصمت والتظاهر، منهم: معتز، هديل، إيفان، وسواهم، من الجالسين في مقصف كليّة الآداب، يتحادثون في كيفية إطلاق تظاهرة. كانوا يعوّلون على يوم الغضب السوري في ٤ - ٥ شباط، حين انطلاق الدعوات على مواقع التواصل الاجتماعي. وتروي الناشطة نفسها أنها فوجئت بامتلاء ساحة سعد الله الجابري بعناصر الأمن. وصلت إلى

الساحة في التاسعة صباحاً؛ أي قبل ساعتين من موعد التجمّع، فأوقفها عنصران أمنيان مدنيان، ووجّها لها تنبيهاً بعدم الوقوف في الساحة. اقتصر عمل الناشطين والناشطات - آنذاك - على توزيع المنشورات المطالبة بالحرية، وتم اعتقال معظم أصدقاء صاحبة الشهادة.

كان للطالبات دور بارز في الحراك الجامعي. وتروي إحدى الناشطات أنها كانت من المنسّقين في اتحاد طلبة سورية الأحرار مع مجموعة من الشبان الكرد: جيكر خوين الذي اعتُقل قرابة السنتين، وأبو محيو، وأبو آدم، ومحمود خندش، من تنسيقيّة الفلاورز التي كانت تنشط في الجامعة والأحياء الحلبية. واستطاع الناشطون الطلاب توحيد مواعيد التظاهر الأسبوعي، في مختلف الكليات ما بين التظاهرات السريعة (الطيارة)، والمركزيّة والتي كانت تنتشر - بقوة - في كلية العلوم، أو الزراعة، أو المكتبة المركزية وساحة الجامعة ونزلة أدونيس. وكان لبعض المكتبات الطلابية دور كبير في حماية المتظاهرين. كما كان للطالبات دور في الحد من الاعتقالات. فمجموعات منهن كان عملها مطالبة رجال الأمن بترك الشبان المعتقلين أثناء المظاهرات.

وسرعان ما استعان النظام بعناصر من فروعه الأمنية، تصدرها فرع المخابرات الجوية، فتحول مقر حزب البعث في الجامعة ثكنة عسكرية. ثم استُعين - أيضاً - بالشبيحة، فاستعملوا القوة المفرطة: العصي الكهربائية والأسلحة البيضاء الحادة والرصاص. والسيء الحظ من المصابين مَن كان يضطر إلى تلقّي الإسعافات في المستشفى الجامعي المكتظ بعناصر الأمن والمخبرين؛ حيث يتعرض الجرحى للتعذيب والقتل أحياناً. وهذا قبل إنشاء المشافي الميدانية في الأحياء التي ينشط فيها المتظاهرون.

٨. حلم ساحة سعد الله الجابري

بعد التزايد المستمر للتظاهر في الجامعة الأحياء الحلبية الثائرة، أخذ يلوح في أفق المتظاهرين حلم المظاهرة المركزية في ساحة سعد الله

الجابري، كبرى ساحات المدينة، بعد فشل محاولاتهم المتكررة للوصول إليها من محاور الجميلية وشارع بارون والأسواق القديمة. والفشل بسببه الكثافة الأمنية في الساحة.

ما هي أهمّيّة الوصول إلى ساحة سعد الله الجابري؟ وما هي المحاولات التي قام بها الناشطون للوصول إلى الساحة؟ ولماذا لم يتمكّنوا من ذلك؟

كانت أهمّيّة الوصول إلى الساحة منذ بداية الثورة، معنويّة وإعلاميّة. فالنظام كان يقيم فيها المهرجانات وحفلات التمجيد للقائد، وكذلك المسيرات على مدى عشرات السنين. ووصول المتظاهرين إليها كان يرمز إلى إزاحة النظام، والجري على منوال الثورة المصرية في الوصول إلى ميدان التحرير في القاهرة.

وفي ١٧ نيسان ٢٠١١ اجتمع مئات الناشطين عند ضريح إبراهيم هنانو في منطقة الفيض، تمهيداً للتوجّه إلى ساحة سعد الله. أحبطت قوات حفظ النظام ومجموعات من الشبّيحة المحاولة. قبل ذلك كانت دعوات فايسبوكية كثيرة للتجمّع في الساحة قد فشلت، لأنّ عناصر المخابرات قد أحاطت بالساحة تماماً، يرتدي كلّ منهم سترة جلديّة سوداء وممسكا كأساً بلاستيكياً، يرتشف منه السحلب. ودائماً حرص النظام على وضع عناصر أمن وشبّيحة على أطراف الساحة، وفي داخلها، حتّى تفجير ٣ تشرين الأوّل، حينما أخلاها تماماً، ومنع المرور فيها إلا للمشاة فقط.

مع اشتداد القمع، بدأت المهمة تتعقد أمام القيادة الناشطة، فتم اعتماد غرف السكايب واللقاءات السرية للتشاور بين التنسيقيات التي كان يحضر ممثلوها بمعدل ٢ - ٣ من الناشطين من كل تنسيقية. وجرى التخطيط لتنفيذ إضرابات وإقفال المحلات التجارية والجامعة. وأحياناً كان الناشطون يغلقون الشوارع الرئيسية، لإيقاف السير وتوزيع المناشير على نطاق أوسع. لكن قوات الأمن كانت تقوم بتحطيم أبواب كل محل مغلق، أو يغلقونه نهائياً. وهذا ما كان يردع أصحاب المحلات عن الاستجابة الواسعة للإضراب.

لم يُولِ الناشطون قطاعات العاملين في الدولة، أي أهمية أو دور، بذريعة خوف الموظّف على لقمة عيشه. هذا في مقابل التركيز على دوائر الأمن التي كانت تزود التنسيقيات ببعض المعلومات، علماً أن منابع المسيرات المؤيدة للنظام كانت تجف شيئاً فشيئاً، وتتقلص أعداد الحضور فيها، بصورة ملحوظة.

لم تكن سرية قرارات التنسيقيات ناجعة. ذلك لأن للنظام بتشعّباته المخابراتية، وانتشاره في كلّ الأماكن، بالإضافة إلى تجنيده العديد من المخبرين الذين كانوا يشاركون في المظاهرات، هذا كله جعل أمر سرية المظاهرات صعباً. لذلك تمت الدعوة إلى المظاهرات، بشكل علني.

بقيت ساحة سعد الله الجابري الشغل الشاغل للتنسيقيات والنظام، على السواء، نظراً لقيمتها العملية والرمزية للجميع. لذا؛ ظلت ساحة صراع حاسمة، يضع النظام كل ثقله القمعي /الدموي فيها، لسحق حلم المتظاهرين في الوصول إليها. وكانت أولى محاولات الوصول من محور الجميلية، لكنْ؛ ظهر أن المظاهرة مخترقة أمنياً، وحصلت اعتقالات كثيرة. تم وضع بديل للخطة، بحيث اعتمد الوصول إلى الساحة من محاور عدة: الجامعة وسيف الدولة والفيض، على أن يتحرك المتظاهرون في توقيت واحد. حصلت هذه المحاولات في ٢٦-٥ و١-٦- و١٧-٨- من العام ٢٠١٢.

كان المتظاهرون يهتفون: ساحة سعد الله/ جاينك والله، فيما عيونهم تدمع، وقلوبهم تتلهف للوصول إلى الساحة، تحفّزهم وتتراءى في مخيلاتهم صور الثوار المصريين في ميدان التحرير. وتم العمل بجهد كبير من التنسيق والدعوة إلى التظاهر للوصول إلى الساحة بدءاً من ٥ شباط (يوم الغضب السوري)، وإلى الأيام التالية التي سُمّيت: بركان حلب، بدر حلب. في هذه الأيام، اقتربت التظاهرات من الوصول إلى الساحة، بعد الوصول إلى ساحة الرئيس، ومنطقة الامتحانات، وبعد انطلاق العديد من التظاهرات من الجميلية والعزيزية.

بالرغم من كل تلك المحاولات الفاشلة، كانت مظاهرة ٢٦-٥-٢٠١٢ قد وصلت إلى أمام القصر البلدي، منطلقة من كل المناطق، واتجهت إلى الساحة، برفقة سيارات المراقبين الدوليين، ولكن قوات النظام أطلقت النار والقنابل المسيلة للدموع، واعتقلت كثيرين.

كثيرون كانوا - آنذاك - على يقين أنّ نهاية النظام قد اقتربت. خرجت التظاهرة من الحرم الجامعي، واتجهت إلى ساحة سعد الله الجابري، وانضم إليها الكثير من الناس. لكن المراقبين، أخبروا المتظاهرين أنّهم لن يذهبوا معهم. مجموعات من الفرقة الحزبية واتحاد الطلبة رشقت المتظاهرين بالحجارة على مرأى المراقبين، فشكّل شبان طوقاً بشرياً حول المظاهرة. بعد ثلاث ساعات تقريباً، ابتعدت سيارات المراقبين، وبدأ عناصر حفظ النظام والأمن بإطلاق الرصاص في الهواء، فتفرقت المظاهرة الحاشدة.

لكن الحراك الجامعي استمر وكبر بعد ذلك، وكثرت الإضرابات والاعتصامات أمام أبواب الكليّات، وكان لبعض الدكاترة الجامعيين ورؤساء الأقسام مجهود طيب في حماية المعتصمين. وتشكل تجمّع جامعة الثورة، واستمرّت التظاهرات في الجامعة، وشارك الطلاب مع المظاهرات المسائية في أحياء الأشرفية وبستان القصر وصلاح الدين.

الدعم الإسلامي المسيّس لعب دوره في أسلمة الحراك. فظهر شعار: الشعب يريد إعلان الجهاد متصدراً هتافات الجامعة، وظهرت مجموعات من الشباب بالأسلحة الفردية الخفيفة، لينتهي دور الحراك السلمي بعد دخول الجيش الحر، وتقسيم حلب إلى حلبين: شرقيّة وغربيّة؛ لتغدو جامعة حلب يوماً بعد يوم مدينة أشباح، وخالية من طلاب الحريّة.

٩. حلب وثورة الريف الحلبي

لم تتأخر الحركة الاحتجاجية عن الانطلاق قوية في ريف حلب. فمن بلدة عندان الكبيرة، ثم بلدة حريتان، إلى الشمال الغربي من المدينة، على الأوتوستراد الذي يتجه من حلب شمالاً مروراً بهاتين البلدتين وسواهما

مثل حيَّان وبيانون، وصولاً إلى إعزاز القريبة من الحدود التركية. انطلقت الاحتجاجات في الريف الحلبي. من عندان، خرجت التظاهرات الأولى كثيفة، وأخذت تكبر وتمتد تدريجاً، وتتسع في ريف حلب. وحدها القرى الشيعية، مثل الزهراء ونبّل القريبتين من عندان، لم تخرج منها تظاهرات، فاستعملها النظام قاعدة لمحاولاته السيطرة على البلدات والقرى الثائرة. بعد إطلاق قوات الأمن والشبّيحة النار على الأهالي المتظاهرين، وسقوط عدد كبير من القتلى والجرحى، وقيام تلك القوات بحملات دهم واعتقالات واسعة، بادر الأهالي إلى حمل السلاح لحماية بلداتهم وقراهم وتظاهراتهم من الهجمات الأمنية والعسكرية عليهم. مع استمرار التظاهر والمجابهات، أخذ النظام يستعمل الجيش النظامي لإخماد الحركة الاحتجاجية التي توسعت، وتجذرت، وشملت الريف الحلبي كله، بما فيه بلدات شرق حلب الكبيرة والكثيفة السكان، مثل منبج والباب.

اعتمد الجيش - في البداية - أسلوب الهجمات على البلدات والقرى الثائرة، فجعلت قواته تدخل إليها، تقتل وتعتقل مجموعات من المتظاهرين والأهالي، ثم تنسحب؛ لتعود التظاهرات أقوى من ذي قبل، فيجدّد الجيش هجماته. استطالت هذه الحال حتى قرر النظام تغيير استراتيجيته، فبدّل القيادة العسكرية المشرفة على العمليات، واعتمد أسلوب القصف المدفعي العنيف على البلدات والقرى الثائرة من خارجها لإخضاعها. من مرابض مدفعية الميدان التي نصبها الجيش في مدرسة المدفعية غرب حلب، وفي مدرسة المشاة إلى الشمال، أخذت القنابل تنهمر غزيرة، وبلا توقف، على أتارب وعندان وحريتان وصولاً إلى إعزاز وسواها من القرى التي بدأ سكانها يفرّون منها هاربين إلى حلب، وإلى تركيا.

هكذا بدأت تنشأ كتائب «الجيش الحر» في الريف الحلبي، وشرعت تقوم بهجمات كرّ وفرّ على القوات النظامية الأمنية والعسكرية. بعد اشتداد القصف المدفعي العشوائي على البلدات والقرى، أخذت هذه الكتائب تنسحب منها، تاركة فيها مجموعات صغيرة. المجموعات المنسحبة والأهالي لجؤوا إلى أحياء حلب الفقيرة والعشوائية؛ حيث لهم معارف وعلاقات وأقارب.

في غمرة هذه التحولات والمجابهات والهجرات إلى حلب، بدأت المجابهات المسلحة بين المنتفضين في حيي صلاح الدين وسيف الدولة الحلبيين وسواهما من الأحياء العشوائية شرق المدينة، وبين قوات النظام الأمنية والعسكرية، وبدأ التركيز الإعلامي على الثورة في حلب. مع تكاثر مجموعات «الجيش الحر» في الأحياء الشرقية من حلب، لم يعد النظام يعتمد على الشبّيحة الذين تراجع دورهم في مجابهة الثائرين، فاندفعت القوات العسكرية النظامية في حربها على هذه الأحياء.

في المقابل، أخذ الثوار المسلحون يقومون بهجمات وعمليات على المراكز والمواقع الأمنية والعسكرية في المدينة، شرقاً قرب المطار ومناطق الشعار ومساكن هنانو والصاخور، ثم شملت العمليات مدينة الحمدانية في الجنوب الغربي. وفي هذه الأثناء، بدا الحراك في حلب يتحول من السلمية إلى المسلح، وانقسمت المدينة إلى شطرين، لكنْ؛ من دون أن تتوقف التظاهرات في أحيائها المحررة. وفي هذا الإطار، شهدت المدينة تغيرات وتحولات سكانية، أبرزها:

أ. إجلاء العلويين والأرمن.

أحياء حلب الغربية للفئات الوسطى والميسورة التي كانت هادئة، تسلل إليها الخوف وشيء من الاضطراب والنزوح مع توسع العمليات واشتدادها. وإذا كان السكن في حي الحمدانية يغلب عليه الضباط العسكريون والأمنيون والموظفون الإداريون وأسرهم من الطائفة العلوية، بعد استقدامهم من مدن الساحل وأريافه في ثمانينات القرن العشرين، فإن أحياء المدينة الغربية الراقية، مثل المحافظة والسبيل وسواهما، تسكنها الأسر والعائلات الحلبية من الأكثرية السّنّيّة، وتخالطها كثرة من المسيحيين والأرمن، من دون أن يغيب العلويون عن هذا الخليط.

في حزيران ٢٠١١، مع توسع الأعمال الأمنية والعسكرية، قامت في يوم واحد ١١ رحلة طيران، من مطار حلب، إلى مطار باسل الأسد قرب

اللاذقية، لنقل أسر الضباط والموظفين العلويين إلى مدن الساحل وأريافها العلوية. لكن عملية الإجلاء هذه استمرت قوية في الأيام التالية. فتحت شعار «استهداف الأقليات» تكرر ما حدث في مطالع ثمانينات القرن العشرين، حينما جرى إجلاء العلويين من حلب إبان الحملة العسكرية على «الإخوان المسلمين»، بعد مذبحة حماة العام ١٩٨٢. غير أن موجات الإجلاء الجديدة جاءت أشد اتساعاً بكثير من سابقتها القديمة. وشمل النزوح والهجرة في ٢٠١٢ المسيحيين والأرمن المعتبرين أقليات كبرى، مستقرة وقديمة في حلب. ففي غضون أيام ثلاثة، انتقل حوالى ٣٢ ألف أرمني حلبي إلى عاصمة أرمينيا التي قدمت منها طائرات إلى مطار حلب، فشاركت في عملية إجلاء الأرمن، من دون تأشيرات سفر. أما المسيحيون الحلبيون؛ فنزحت فئات واسعة منهم عبر مسالك الهجرة غير الشرعية إلى تركيا، فاليونان، ومن ثم؛ إلى بلدان اسكندينافيا، كأسوج والدانمرك.

ب. حال الكرد

يعتبر الكرد - عموماً - من الجماعات الأشد فقراً في حلب، ويتركز سكنهم في أحياء شديدة الفقر والاكتظاظ، أكبرها الشيخ مقصود والأشرفية. أما الملاّك والميسورون من صناعيين وتجار كرد؛ فينزلون في أحياء حلبية حديثة. ويبلغ إجمالي عدد السكان الكرد في حلب حوالى ٣٠٠ ألف نسمة، يعانون من اضطهاد تاريخي، شكل دافعاً أساسياً لمشاركتهم في الثورة الراهنة. لكن خطة النظام تركّزت على تحييدهم، منذ ظهور بثينة شعبان على شاشة التلفزيون السوري في ٢١ آذار ٢٠١١، مهنئةً الكرد في عيدهم السنوي، النوروز، الذي كان النظام السوري يحرّم على الكرد الاحتفال به. في ظهورها الإعلامي نفسه، أعلنت شعبان عزم الحكومة السورية منح الجنسية للكرد المحرومين منها.

منذ بدايات الاحتجاج والتظاهر في صلاح الدين وسيف الدولة، خرجت جماعات كردية متظاهرة في أحيائها، لكن النظام لم يعتمد العنف في مجابهة المتظاهرين الكرد، تاركاً لـ«حزب العمال الكردستاني» الواسع النفوذ

في الأحياء الكردية، تسيير هذه التظاهرات، واحتوائها، في عملية توزيع أدوار بينهما، قوامها ما يمكن تسميته «المتاركة» بين الكرد والنظام الذي أوكل إلى «حزب العمال» التوسط لدى أجهزته الأمنية لإطلاق المعتقلين الكرد أثناء مشاركتهم في التظاهرات. ظل الكرد على هذه الحال طوال حركة الاحتجاج السلمي في حلب. ومع بدء المجابهات المسلحة، أطلق «حزب العمال» النار على الثائرين الكرد، وسيطر على الأحياء الكردية، بذريعة حمايتها.

ت- بستان القصر: العلمانيون والسلفية

في الحقبة المسلحة من الثورة في حلب، تزايد النشاط والحضور السلفيان والإعلاميان في حي بستان القصر الشعبي، بعدما تمكن الجيش السوري الحر من تحريره عقب دخوله حلب في ٢١ أيار ٢٠١٢. هذا ما أدى إلى طغيان شهرة هذا الحي على شهرة الجامعة. مجموعات كثيرة من الناشطين الإعلاميين والمدنيين في التنسيقيات اتخذت من بستان القصر القريب من حي صلاح الدين مقراً وحاضنة لها، في حماية الجيش الحر الكثيف الحضور في صلاح الدين. نشطت التظاهرات في بستان القصر، يتقدمها السلفيون وشعاراتهم وهتافاتهم، وخلفهم العلمانيون والإعلاميون حاملين شعارات ومطلقين هتافات مختلفة. يهتف السلفيون مثلاً: بدنا (نريد) دولة إسلامية، فيرد عليهم العلمانيون: بدنا دولة مدنية. وسرعان ما بدأت تحصل خلافات ومشاجرات عنيفة بين الطرفين.

أهالي بستان القصر أحبوا الإعلاميين، واحتضنوهم، في مقابل نفورهم من جماعة جبهة النصرة، ومحاولتهم طردهم من الحي، بعد تزايد عددهم فيه، وافدين من معقلهم الأساسي في مدينة الباب، على مسافة ٣٠ كلم شمال حلب. هناك كانوا قد اعتدوا على موظفي البريد في نهايات العام ٢٠١١، ورموا موظّفين من شباكٍ عالٍ في المبنى، بعدما أنشؤوا هيئة شرعية للتحكيم في الخلافات بين أهالي المدينة. أما في بستان القصر؛ فإن لواء التوحيد - وهو من ألوية الجيش الحر، ويقتصر تديّن عناصره على إسلام

شعبي تقليدي - ناصر الإعلاميين والعلمانيين في صداماتهم المتكررة مع جبهة النصرة التي لها جمهورها في حي صلاح الدين أيضاً. حصلت واحدة من هذه الصدامات بعدما قام إعلاميون وعناصر من لواء التوحيد بنزع أعلام النصرة السود، ورميها أرضاً، مما دفع عناصرها إلى إطلاق النار في الهواء تخويفاً، فعمد مسلحون من التوحيد إلى اعتقال مطلقي النار.

ث- سيف الدولة وصلاح الدين

منذ مطالع شهر رمضان ٢٠١٢، تكاثرت مجموعات الجيش الحر في أحياء سيف الدولة وصلاح الدين وسواها من العشوائيات المتصلة بها في شرق حلب وجنوبها، بعد هجرة كثيفة إليها من أرياف حلب. قررت هذه المجموعات القيام بحملة عسكرية واسعة على قوات النظام العسكرية والأمنية المتجمعة حشودها على أطراف المدينة، والعاملة على قصفها بالمدفعية والإغارة على أحيائها الثائرة بالطائرات الحربية والمروحيات. تتركز مواقع المدفعية التابعة للجيش النظامي في مدرسة المشاة شرق حلب، وفي مدرسة المدفعية جنوب غرب الحمدانية، وعلى تلة في قلب المدينة قرب ثكنة المهلب العسكرية القديمة.

أما مجموعات الجيش الحر المحتضنة من أهالي الأحياء الفقيرة في شرق المدينة وجنوبها؛ فمنتشرة في هذه الأحياء، وتنطلق منها في عملياتها، من دون أن يكون انتشارها وتمركزها ثابتين. لذا؛ يمكن القول إن الحاضنة الأساسية للثورة في حلب، في طورها السلمي المديد، وفي طورها الثاني المسلح، هي الأحياء الفقيرة والعشوائية الأشد فقراً. وإذا كانت هذه الأحياء سنّيّة السكان، فليست سنّيّتها هي العامل المحرك والدافع للثورة في طوريها، بل الفقر والتمييز والتهميش والإقصاء اجتماعياً واقتصادياً، إضافة إلى القهر الأمني، طوال عقود متعاقبة.

وإذا كانت التظاهرات الأولى في حلب قد خرجت من حيّي سيف الدولة وصلاح الدين، فإن طلبة من الجامعة شاركوا في تلك التظاهرات،

لأن كثرة من الطلبة الوافدين إلى الجامعة من إدلب وحماة ودير الزور والحسكة وريف حلب كانوا يقيمون في هذين الحيين، غير بعيد من الجامعة، وخصوصاً حي صلاح الدين الذي تقيم فيه، إلى الكثير من الطلبة الأدالبة، كتل سكانية أهلية من إدلب، ومن سراقب (السراقبة) ومن ترمانين، ومن عنجارة (العناجرة)، إضافة إلى الوافدين من ريف حلب. وكان العناجرة مسلحين أقوياء الشكيمة، وعلى عداء مستفحل مع عشائر آل بري المسلحة والموالية للنظام. وهذا العداء لعب دوراً في انطلاق التظاهرات الأولى في صلاح الدين، فكانت - في وجه من وجوهها - انتفاضة ضد آل بري وتسلطهم الذي لم يكن قوياً وثقيلاً في هذا الحي، بفضل قوة العناجرة وسواهم من الأهالي والعشائر التي تناصرهم ضد آل بري الذين كانت قبضتهم شديدة القوة في السيطرة على الأحياء والحارات الحلبية العشوائية والأشد فقراً بدرجات من صلاح الدين وسيف الدولة المتماسكين عائلياً وعشائرياً، على خلاف الأحياء العشوائية الفقيرة التي لم تتظاهر إلا لاحقاً، كحي كرم الميسّر.

هنالك عامل آخر أدى إلى انطلاق التظاهرات الأولى من صلاح الدين، ومن سيف الدولة تالياً: احتقان الطلبة غير الحلبيين المقيمين في صلاح الدين، بفعل تعرّض الشبان والأهالي المتظاهرين في مدنهم (حمص، حماة، إدلب، دير الزور، والرقة) للاعتقالات والقتل، فأدى ذلك الاحتقان إلى مبادرتهم إلى التظاهر في حي صلاح الدين؛ حيث يقيمون بعيداً من أهلهم وأصدقائهم في منابتهم ومدنهم الأولى السبّاقة إلى التظاهر. لذا؛ لا بد من القول إن الطلبة غير الحلبيين في جامعة حلب، ساهموا - بقوة - في إطلاق التظاهرات الحلبية، وفي إنشاء التنسيقيات في مدنهم، بعدما عملوا على إنشائها في حلب، إلى جانب طلبة حلبيين.

ج- الهجوم على الجامعة وإفراغها

بعد انتقال التظاهر إلى داخل الحرم الجامعي في حلب، ظهرت بقوة لافتة مشاركة طلبة كليتي الهندسة والطب في التظاهرات، فجرى

طرد ما بين ٣٠ و٤٠ طالب من كلية الطب وحدها. وهذا أدى إلى تغيير الصورة الشائعة عن طلبة الطب، بوصفهم مرفهين وأبناء عائلات ميسورة، وتستحيل مشاركتهم في التظاهر والثورة. والحق أن الطلبة المتدينين تديناً تقليدياً غير جهادي في كليتي الطب والهندسة، كانوا أكبر عدداً بأضعاف وأشد تأثيراً في إطلاق التظاهرات وتنظيمها داخل الجامعة من تأثير حلقات طلبة الهوى والميل الأدبيين، أصحاب الثقافة العلمانية القليلي العدد، والذين شاركوا في تظاهرات خارج الجامعة.

كان الطلبة الناشطون في جامعة حلب محركاً أساسياً للتظاهرات في حيّي صلاح الدين وسيف الدولة؛ حيث كانوا يتجمعون في مسجد آمنة بنت وهب، ومنه يخرجون متظاهرين مع سواهم من الأهالي. استعمل الطلبة وسيلتين إعلاميتين للإعلان عن مواعيد التظاهرات، وأماكنها: البيانات التحريضية المطبوعة، وشبكة الفايسبوك. وبما أن توزيع البيانات الورقية داخل الحرم الجامعي كان شديد الصعوبة، بسبب كثرة كاميرات التصوير الثابتة التي كانت تصور تلقائياً حركات الطلبة وسكناتهم طوال ساعات اليوم في الحرم الجامعي، وضع طلبة ناشطون أقنعة على وجوههم، وقاموا بتحطيم الكاميرات ليلاً. لكن الجامعة لم تكن تحت رقابة هذه الكاميرات وحدها، بل - أيضاً - في حراسة جماعات «اتحاد طلاب سورية» البعثي المرتبط بالنظام، وسواه من طلبة مخبرين مرتبطين مباشرة بأجهزة أمنية. لذا؛ عمد منظّمو التظاهرات إلى تحديد موعدين اثنين للتظاهرة الواحدة، ومكانين اثنين لانطلاقها: في البيانات الورقية تعارفوا على تحديد موعد ومكان وهميين. أما الموعد والمكان الحقيقيان؛ فيحددان على الفيسبوك الذي أنشأت كل كلية صفحة خاصة بها على شبكته، كما أُنشئت - أيضاً - صفحات لمجموعات من الناشطين، إضافة إلى صفحات فردية مغلقة. لكن رجال الأجهزة الأمنية غالباً ما كانوا يسبقون المتظاهرين في الوصول إلى الأماكن المحددة للتظاهر، فيهاجمونهم، ويعتدون عليها، ويعتقلون كثيرين منهم.

مع تزايد عدد الشهداء من المتظاهرين في حمص وإدلب، عمد

الطلبة الناشطون في جامعة حلب إلى التظاهر داخل الحرم الجامعي. أسبوعاً بعد أسبوع، وخصوصاً في نهارات الجمعة، تحولت الجامعة بؤرة أساسية للتظاهر، وارتفع عدد المشاركين في التظاهرات في داخلها. لذا؛ ظهرت في حلب القاعدة العامة التي على أساسها اتسعت التظاهرات، وتجذّرت، وارتفع سقف مطالبها، وتصلبت قوة إصرارها في سائر المدن السورية وأريافها: كلما ارتفع عدد القتلى بين المتظاهرين، ارتفعت وتائر الاحتقان والغضب بين الناس، واتسعت مشاركتهم في التظاهرات، وتزايد عددها. والاستثناء الحلبي في ما يتعلق بهذه القاعدة - أي اتساع التظاهرات وتجذرها في حلب وجامعتها كرد على تزايد أعداد القتلى من المتظاهرين في مدن غير حلب - لا ينفي القاعدة قدر ما يؤكدها. فجامعة حلب يبلغ عدد طلبتها عشرات الألوف، وقسم كبير منهم يفدون إليها من ريف حلب، ومن مدن سورية أخرى، في طليعتها إدلب ودير الزور والرقة والحسكة التي راحت أعداد القتلى ترتفع بين المتظاهرين فيها. وهذا ما دفع الطلبة الوافدين من تلك المدن للدراسة في جامعة حلب، والمقيمين في مبنى السكن الطالبي الجامعي الحلبي وفي أحياء المدينة، إلى رفع وتائر احتجاجهم في حلب محتقنين بالغضب جراء تساقط قتلى من أهلهم وأصدقائهم ومعارفهم في مدنهم.

هكذا أخذ الطلبة في جامعة حلب يتظاهرون بالألوف داخل حرمها. ويوم وصل المراقبون العرب إلى المدينة، تجاوز عدد المتظاهرين في الجامعة ٢٠ ألف طالب وطالبة. وبعدما كانت الجامعة بؤرة أساسية للنشاط الثقافي وحلقاته في حلب ما قبل الثورة، تحولت بؤرة أساسية للحركة الاحتجاجية في المدينة طوال النصف الثاني من العام ٢٠١١، والنصف الأول من العام ٢٠١٢. وإذ كان أساتذة كثيرون في الجامعة قد قاموا بتزويد رجال الأجهزة الأمنية بأسماء الطلبة الناشطين، فإن صورة جامعة حلب تألقت في خضم الحركة الاحتجاجية وتوسعها في المدينة، وخصوصاً بعد تحرر الريف الحلبي.

كان العمل التنظيمي والتأطيري ضعيفاً في حركة الاحتجاجات في حلب، فاقتصرت شبكاته على صلات التعارف والصداقة بين الطلبة. لم تكن التنسيقيات في حلب وجامعتها حاضرة وقوية ومنظمة في الحراك الذي اعتمد على مبادرات شبابية، لم ترقَ إلى التنظيم والتأطير، على خلاف ما حدث في داريا ودوما والزبداني، في ريف دمشق، حيث كانت التنسيقات قوية الفاعلية التنظيمية. فمعظم تنسيقيات حلب كانت صفحات على الفيسبوك أكثر مما كانت حاضرة وفاعلة في الواقع الميداني الحي.

في مطالع أيار من العام ٢٠١٢ قامت مجموعات من رجال الأمن والشبيحة باقتحام مبنى السكن الطالبي في جامعة حلب، فحطّموا محتوياته، واعتدوا على الطلبة، وسحلوهم في الغرف والممرات، ورموا بعضهم من النوافذ.

قُتل في الهجوم ٤ طلاب، وجُرح عشرون، وبلغ عدد المعتقلين ألفي طالب. كان الهدف من الهجوم ترويع البؤرة الأساسية الثابتة والناشطة في الحرم الجامعي، لطردها منه. البؤرة هذه كانت في معظمها من المقيمين في مبنى السكن الطالبي الذي لم يكن يحق للطلبة الحلبيين الإقامة فيه، وكان نزلاؤه من الطلبة الوافدين من إدلب ودير الزور والرقة. هؤلاء كانوا ينقسمون مناصفة بين الإناث والذكور، وشاركت الفئات بقوة لافتة في حركة الاحتجاج والتظاهر في الجامعة وخارجها. وجاء الهجوم - أيضاً - تتويجاً لما كانت الحواجز الأمنية في شوارع حلب تقوم به من اعتداءات ومهانات، تمارسها يومياً ضد الطلبة الوافدين من إدلب ودير الزور والرقة، وضد أهالي هذه المدن المقيمين في حلب، لحملهم على مغادرتها، ولكسر العمود الفقري الطالبي الناشط في الجامعة.

التظاهرة الكبيرة التي خرجت من الجامعة احتجاجاً على الهجوم على مبنى السكن الطالبي، كان معظم المشاركين فيها من الطالبات والفتيات. والحق أن الحركة الاحتجاجية الطالبية في حلب، تميزت منذ بداياتها بحضور الفتيات الذي فاجأ أهالي المدينة، وصدمهم؛ لأن حلب مدينة

محافظة في عاداتها وتقاليدها. لكن محافظتها لم تكن لتلغي تنوّعها، وحضور الأرمن والمسيحيين الذين يبلغ عددهم فيها المليون نسمة تقريباً.

وبعدما شاركت الطالبات مشاركة واسعة في النشاطات الاحتجاجية - من الإعداد للتظاهر، إلى تأليف الشعارات والهتافات، وكتابتها على الجدران، إلى تصدّر كثيرات مقدم المظاهرات، وصولاً إلى بروز ناشطات قائدات - نظم كل من الناشطات والناشطين حملات لتعليم الأطفال والتلامذة الذين أقفلت مدارسهم في الأحياء الحلبية أبوابها بعد توافد مجموعات الجيش السوري الحر المسلحين إلى تلك الأحياء، وتحصنهم فيها، وانضمام مجموعات من أهلها إليهم. ثم لم يلبث النظام أن سيطر أمنياً على الجامعة، فأُخليَ مبنى السكن الطالبي من المقيمين فيه، ولجأ إليه حوالى ٦٠ ألف نسمة من مهجري الريف الحلبي، وصارت الجامعة كلها تحت حراسة أمنية مشددة، بعدما جرى تسليح مناصري النظام فيها بالبنادق الرشاشة والعصي الكهربائية. وهذا ما أدى إلى انطلاق التظاهرات الطيارة من خارج الجامعة، بزخم أقوى، وبمشاركة قوية من الفتيات اللواتي غيّرت الحركة الاحتجاجية حياتهن واهتماماتهن وعلاقاتهن، كما غيّرت حياة الشبان، فأخذت تنشأ في الفضاء العام والهواء الطلق وسط التظاهرات وفي الإعداد لها، علاقات جديدة غير مسبوقة بين الناشطين والناشطات.

كم كان جديداً وغريباً وممتعاً - يروي أحد النشطين - أن أسمع رفيقة لي على مقاعد الدراسة الثانوية، تحدثني عن شاب، تعرفت إليه، وأحبته وسط التظاهرات، فيما حدثتني أخرى عن أنها أحبت شاباً، أسعفها، بعدما جُرِحت في إحدى التظاهرات التي كسرت الحواجز الاجتماعية والنفسية بين الجنسين وبين الفئات الاجتماعية وبين طلبة الكليات المختلفة. فالتعاون ما بين طلبة الطب والهندسة الكهربائية، وخصوصاً المتدينين منهم تديناً تقليدياً، أدى إلى تطوير قناصات حربية وأنواع أخرى من الأسلحة التي استعملت في الطور العسكري من الثورة في حلب. وكان معروفاً أن العدد الأكبر من المنتسبين إلى «جمعية المخترعين السوريين» التي

مقرها العاصمة دمشق، هم من حلب، وكانوا في زمن ما قبل الثورة يريدون الانفصال عن الجمعية، وإنشاء جمعية جديدة مستقلة، باسم مدينتهم.

في مطالع العام ٢٠١٣ سقط صاروخ سكود قرب جامعة حلب التي كان التدريس فيها مشلولاً. فالطلبة الوافدون إليها من خارج حلب غادروا المدينة، وحتى الطلبة الحلبيون تضاءل حضورهم في قاعات التدريس، وكاد يقتصر على الموالين للنظام، وخصوصاً المقيمين منهم قرب الجامعة. هذا فيما إعلام النظام لا يتوقف عن الإعلان أن الجامعة مفتوحة كالمعتاد، والتدريس فيها على حاله، والامتحانات تُجرى في مواعيدها المقررة، بينما الحياة الطالبية الجامعية في الحقيقة والواقع غير قائمة إلا شكلياً، وفي دعاية النظام الذي ينكر أن ثورة حدثت وتحدث في سورية.

تبرز الشهادات أن جامعة حلب كانت رائدة للحراك الثوري المدني في حلب. وهذا يدحض ترويج النظام حكاية أن الثورة عبارة عن مجموعة مأجورين تكفيريين وإرهابيين ومجرمين.

ففي كلية الآداب، في نيسان ٢٠١١، خرجت أولى التظاهرات من كلية الآداب، وبعدها؛ تسلمت كليات العلوم دفّة التظاهر، وكذلك المدينة الجامعية التي كان جميع شبّانها من أبناء الريف الحلبي وباقي المحافظات، ولاسيما مدينة كوباني الكردية. وهذه عُرفت بمظاهراتها الليلية وإضراباتها، واعتقال الآلاف واستشهاد العشرات من أبنائها.

١٠. بين السلمية والسلاح

ذروة المظاهرات في حلب كانت قبيل حوالى شهرين من دخول الجيش الحر إليها صيف ٢٠١٢. قبل ذلك، كانت حلب رائدة بكثافة نقاط التظاهر وبالأنشطة اللاعنفية، مقارنة بباقي المدن السورية. وكان من الطبيعي أن تكبر المظاهرات في أثناء تشييع الشهداء، الذي كان له دور كبير في شحذ الهمم والتعاطف الشعبي، بدءاً من تشييع عبد العزيز أكتع في باب الحديد، مروراً بالتشييع الأكبر لإبراهيم السلقيني وعبد الواحد هنداوي

وعمار حاوي، وكذلك أنس سمو في الجامعة، وفي كوباني التي شهدت أكبر مظاهرة (أكثر من عشرين ألف متظاهر) يوم استشهاد (ولات حسي). وقد وصل عدد الشهداء في حي صلاح الدين، وبمظاهرة واحدة، إلى ٢٠ في ٢٢ حزيران ٢٠١٢. وهنا بدأت تشتغل آلية جديدة، تتولد فيها جنازة كل شهيد مظاهرة عارمة، تشترك فيها جميع التنسيقيات؛ ليزداد عدد الشهداء. هذا ما حصل في ١٧حزيران ٢٠١٢، حينما اعتقل باسل أصلان، ومصعب برد، وحازم بطيخ، بتهمة حيازتهم مواد طبية وأدوية (كمية بسيطة من الشاش والدواء). وبعد أسبوع، أي في ٢٤ من الشهر نفسه، أعادتهم القوى الأمنية جثثاً محروقة، يصعب التعرف عليها، فتحولت جنازاتهم في شارع سيف الدولة، مظاهرة عارمة، ضمت الآلاف من أحياء الزبدية وسيف الدولة والإذاعة.

وربما يكون مرد ذلك إلى أن المجتمع الحلبي مجتمع يغلب عليه الطابع العائلي والعشائري، فيستنفر سقوط الشهيد الحاضنة الشعبية، ويدفعها إلى ردود فعل تضامنية، تمنح التشييع زخماً قوياً. لكن التنسيقيات ساهمت بذلك الزخم بنشرها على الإنترنت مكان التشييع وزمانه.

في البداية، التفت المظاهرات حول كلمة حرية، من دون أي تدخل أيديولوجي، لاسيما الدور الإسلامي. لم تكن تسمع مفردات إسلامية في الهتافات والشعارات، على الرغم من خروج معظم المظاهرات من المساجد. ولكنْ؛ فيما بعد، بدأت الأيديولوجية الإسلامية تلقي بظلالها على نقاط التظاهر في كل من أحياء الصاخور والمشهد والأنصاري. ومع أن جميع التنسيقيات كانت متفقة على استبعاد الإخوان المسلمين، لكنْ؛ لم يلتزم بذلك غير نقطتي الأشرفية والشيخ مقصود اللتين كانتا من أقوى نقاط المظاهرات ذات الطابع المدني. وهذا ما لعب دوراً في استقطاب عدد كبير من طلاب الجامعة إلى الأشرفية والشيخ مقصود. وكذلك كان ناشطو هاتين النقطتين حين يشاركون في نقاط أخرى، يغلب عليها الطابع الإسلامي، يفرضون شعارات مدنية فوق الدينية.

وفي كل ذلك، لم تكن هناك إيديولوجية محددة، يستند إليها شباب التنسيقيات في حلب في ٢٠١١. لكنْ؛ مع تنامي العاطفة الدينية، وتعزز دورها في ٢٠١٢، وبالاستناد إلى الأجندة والمال السياسي- تمّ عرض مبلغ مالي كبير على شباب ثورة حلب لقاء إضفاء طابع إسلامي على المظاهرات والأنشطة المختلفة - فإن دور الإخوان المسلمين بدأ بالظهور من خلال ضخ الأموال وشراء الذمم، الأمر الذي أفسد كل ما تم فعله وإنجازه منذ بداية الثورة.

ومع ذلك، كان للمال السياسي دور إيجابي من حيث الاستفادة منه في التظاهرات وتأمين مقرات للتنسيقيات وتجهيز الأعلام واللافتات والبافلات والأنشطة المدنية المختلفة بدلاً من البيوت الخاصة للناشطين التي باتت مهددة بمداهمات الأمن.

تعقيدات عمل التنسيقيات كانت كثيرة بدءاً بالتنسيق للتظاهرات (مواعيدها، تحديد أماكنها، أوقاتها، تكتيكاتها، خططها البديلة في حالة الفشل.. إلخ)، إلى العمل في الشأن الإغاثي، ولاسيما الإسعافي (مشافي ميدانية). مثلاً كانت تنسيقية التآخي تنقل جرحى التظاهرات من صلاح الدين وسيف الدولة إلى مشفى الأشرفية، وتسعفهم، ولاحقاً بعد نزوح أهالي تلك الأحياء إلى الأشرفية عملت التنسيقية في الشأن الخدمي أيضاً نظراً لغياب الخدمات بعد تحرير المناطق، وخروجها عن سيطرة النظام، فتم تأسيس المجالس الخدمية (مجلس محافظة حلب، مجلس مدينة حلب. ولاحقاً زادت التعقيدات بوجود القاعدة (جبهة النصرة)، وزاد الطين بلة وجود تنظيم (داعش).

وكان من المصاعب كذلك - بالطبع - الضغط الأمني في حلب والأعداد الكبرى للشبيحة، ومراقبتهم لمواقع التواصل الاجتماعي، ومراقبة الأمن لبعض خطوط الهواتف. هذا صعّب التواصل وتأمين المواد اللازمة. فأصبح بيع بخاخات الدهان مثلاً يتم على الهوية الشخصية، وتزايد عدم الوثوق

بالخياطين لتفصيل أعلام الثورة، بسبب الخوف من الأمن. وكانت عناصر قليلة جداً من الأمن متعاونة مع الثورة ومع المعتقلين. وقد اخترقت عناصر الأمن بعض التنسيقيات، من خلال اعتقال ناشطيها، ومصادرة هواتفهم، وتسجيل الدخول لحساباتهم (سكايب، فايسبوك). وكانت أغلب الاجتماعات تتم عبر مجموعات السكايب، بسبب عدم تمكّن الأمن من التجسس عليه. ولكنْ؛ في حال اعتقال أحد أعضاء التنسيقية يتم إخراجه من جميع المجموعات.

ومن الصعوبات كذلك يأتي التمويل وحاجة الناشطين إليه لتغطية نفقاتهم، وكان في البداية تمويلاً ذاتياً. ففي حي مساكن هنانو جرى جمع مبلغ رمزي من المتظاهرين لشراء البخاخات والأقمشة لتفصيل الأقنعة والأعلام وطبع المنشورات. وكانت جميع الأعمال والاستعدادات تحدث في المقرات، أو في بيوت الأصدقاء، أو المحلات، أو الحدائق العامة، أو الملاعب. وكانت هناك مساعدات تأتي من مغتربين وتجار متعاطفين مع الثورة. وبعد ذلك، تشكلت مجالس، تدعم بعض الأمور مثل المجلس الانتقالي الثوري في حلب وريفها.

قبل دخول الجيش الحر إلى المدينة، هناك بعض المجموعات الصغيرة المسلحة داخل حلب، لحماية المظاهرات وتصفية الشبيحة المتورطين بقتل متظاهرين. أيام السلمية كانت أعداد المظاهرات ونقاطها وأعداد المتظاهرين أكبر بما لا يقاس مما بعد دخول الكتائب المسلحة إلى المدينة. ويمكن القول إن الدخول العسكري أنهى المظاهرات والحراك السلمي المدني الذي كان في ألقه في حلب مع وجود التنسيقيات التي أصبحت مجالس ثورية، فيما بعد.

بداية كان هناك تنسيق. فمعظم الناشطين كانوا على تواصل مع قادة الكتائب القادمة من ريف حلب. جرى تزويد المسلحين بمعلومات عن الشبيحة وأسمائهم ومقراتهم، وجرت مراقبة دوريات عناصر الأمن في بعض

الأحياء. ولاحقاً وبعد أن بدأت الكتائب بالسرقات والانتهاكات، بات دور الناشطين ثانوياً في الضغط عليهم، وانتهى التنسيق نهائياً بعد الدعم المؤدلج المسيس، ولاسيما الإسلاموي.

بعد دخول الكتائب المسلحة إلى مدينة حلب، حمل قسم كبير من الشبان المتظاهرين السلاح، وقرر ترك السلمية لاعتقادهم أن النظام لا ينفع معه غير المجابهة والسلاح. آخرون انشغلوا بالإغاثة والأمور المدنية الأخرى بعد غياب المؤسسات الحكومية، ونزوح معظم سكان أحياء حلب الشرقية، بسبب قصفها من النظام. وفقدت الثورة كثيراً من الناشطين بالاعتقال والتصفيات والمصائر المجهولة على يد النظام وداعش وأمثالها. والبعض استشهد إما بقصف، أو اغتيال بتغطية من إحدى الجبهات. والبعض الآخر اضطر للابتعاد سعياً إلى العمل وتأمين القوت. وهنالك مَن لجؤوا إلى بلدان مختلفة كتركيا وأوربا، فيما قلة قليلة بقيت في حلب.

الفصل الثاني
المدينة تُخرِجُ أثقالها

عزيز تبسي

١. ظهور الشبيحة

في بداية التحركات الشعبية سنة ٢٠١١، امتلأت أرصفة شوارع حلب العامة وأسواقها التجارية الرئيسية ببسطات لبيع الخضر والفاكهة والألبسة والأحذية والتبغ، وما هب ودب من السلع الرخيصة. نُصبت مصابيح إنارة جديدة على نواصي الشوارع، وظهرت وجوه جديدة لرجال وشبان، بأذرع موشومة، وجفون منتفخة. على وجوههم ندوب من أثر جروح مندملة، أخطتها ضربات سكاكين وأمواس وشفرات. شبان وفتيان يرطنون بأنماط نطق ثقيل للهجة المحلية، أسيرة ذكورتيها وبلاهة عزلتها وعدوانيتها. وسرعان ما بدأت ترتفع ارتفاعاً ملحوظاً أعداد الجنايات والجنح والسرقات والسلب والخطف في المدينة، بغرض الفدية.

كان ذلك من النتائج الأولية لسلسلة من مراسيم العفو عن السجناء الجنائيين التي بدأت بمرسوم عفو رئاسي في آذار٢٠١١، تبعته مراسيم عفو أخرى، وتعليمات للأجهزة التنفيذية، بالكف عن ملاحقة المطلوبين الجنائيين، ليحصلوا - بعدها - على مواقع السيادة والسيطرة في الفضاء العمومي المديني، محظيين بتجاهل متعمّد لتجاوزاتهم من الأجهزة المسؤولة عن مراقبتهم وحماية المجتمع من مخالفاتهم. فتضاءل - على نحو ملحوظ - حضور دوريات الضابطة التموينية المسؤولة عن لوائح أسعار المواد الاستهلاكية، ومطابقة حقيقة السلع للمواصفات المعلنة على بطاقاتها. وتضاءل - أيضاً - حضور الشرطة العامة والمرورية والجمركية التي أظهر رجالها - في حال حضورهم الشكلي - أنماطاً من التسامح مع المخالفات والتجاوزات.

لن يحتاج العابر بين البسطات لكثير عناء، حتى يتيقّن أن تحت كل بسطة نوعاً من أنواع السلاح الكثيرة: هراوة كبيرة، أو أكثر، سلاح ناري، سيف صقيل، عصى طويلة، كلاليب معدنية معكوفة ومسنّنة، قبضات حديدية، سكاكين. ورأى العابرون مَن يخفي بنادق آلية في صناديق، أو تحت الأغطية. وهذه كلها جاهزة للاستخدام في القتال الفردي.

لمس المتعاملون مع شبان البسطات صعوبة في التواصل أثناء عملية التسوق التي تحتاج إلى الحوار والمساومة. فبدا أن ما يقومون به خلف بسطاتهم ليس مهنتهم الحقيقة التي تعتمد لاستمرارها على اللغة المهذبة الهادئة الجاذبة للزبائن، والساعية إلى إنتاج تفاهمات لإكمال هذه التجارة البسيطة.

بمجرد السؤال الاستفساري عن سعر السلعة التي يعرضونها، سعى هؤلاء الباعة إلى فرض عملية البيع، مستفيدين من احتكارية وجودهم في متن الأسواق والشوارع الرئيسية والساحات العامة الأشد ازدحاماً وحركة تجارية، متعاملين بالعنجهية نفسها مع أصحاب المحلات التي يمدّون بسطاتهم أمامها، فضلاً عن فرضهم عليهم، ما يعادل الخوة: واجب تزوديهم بالكهرباء، والسماح لهم باستخدام المرافق الضرورية، كالحمامات، والمغاسل، وتأمين بضائعهم داخل محلاتهم بعد إغلاق الأسواق.

٢.البيوت قلاعاً حصينة

تدريجياً تحولت البيوت الحلبية قلاعاً محصنة. فأخذ الخائفون المنزوون في منازلهم، يترقبون ما يحدث في الشوارع المجاورة. منذ ساعات الصباح المبكرة، بعد يقظات عكرة، راح يعلو ضجيج المطارق والمثاقب والسحاجات النيرانية وشراراتها، وسواها من أدوات الحدادين الناهضين بهمة لإنجاز أعمال، اشتد الطلب عليها: تمتين أبواب العمارات، صناعة أبواب حديثة لمن أهملوا بوابات عماراتهم في ما مضى من سني الأمان النسبي، وتركيب أسوار حديدية منيعة على النوافذ المنخفضة. يعقب الحدادين الكهربائيون

لتركيب الضواغط الآلية للأبواب وكاميرات المراقبة على زواياها الرئيسية، والأنترفونات البصرية؛ ليرى السكان زائريهم المعلومين والمجهولين قبل فتح الأبواب؛ معززين بذلك وسيلة مقاومتهم الوحيدة: أن لا يفتحوا لمن لا يعرفونه، بعدما تأكدوا من أن الشرطة لا تجيب على الهواتف الإغاثية، تأكدهم من أن مَن يستجيب للاستغاثة من الشرطيين يأتون لسلب ما نسي أو سهى اللصوص المتعجلون عن سرقته.

بعدها جرت معاينة أبواب سطوح البيوت والبنايات، بدقة، لتفقّد أقفالها وخزانات المازوت والمياه عليها. ثم شملت المعاينة الأبواب المنزلية الخشبية، النوافذ المفتوحة على المناور والفسحات الخارجية وعلى الجوار. وكذلك النوافذ التي لم تفتح يوماً.

هكذا أعيد النظر بكل أنظمة الأمان. بعدها؛ جرى التنبه لما لم يجرِ الانتباه إليه يوماً على الإطلاق: احتمال قرع اللصوص المسلحين الأجراس المثبتة على أطراف البوابات الرئيسية، ودخولها بعدما يُفتح لهم كضيوف زائرين، أو كجباة لفواتير الكهرباء والمياه وسعاة البريد.

وتناسى الحلبيون لوهلة ما تعرضه محطات التلفزيون «المعادية» للنظام، من مشاهد عن خلع الأبواب بالمهدات والمطارق الضخمة، ورشق الأقفال الموصدة بدفق من الطلقات النارية، وقفز الفاعلين من فوق الأسوار. فتلك المشاهد تحفزٌ مباشرة على تحديد مَن هم اللصوص المقتحمون في عز النهار، ومَن هي العصابات المسلحة، ومَن يخطف الأثرياء من التجار والأطباء الحلبيين وأبناءهم. ثم إنهم سمعوا عن أن الخاطفين لا يخطفون الناس من بيوتهم المحمية بالكاميرات، بل من الشوارع، ومن أماكن عملهم؛ حيث الطمأنينة والاندماج التام، ليفاوضوا بعدها عليهم لقاء فدية. هذه الوقائع كلها جرى محوها أو عدم التفكر فيها من أبناء الفئات المتوسطة التي لم تصدق ما يُهمس في آذانها عن وقائع يقينية، تحصل في المدينة.

عمل الحلبيون - بصبر وأناة - على طرد أشباح الخوف بتعازيم وقائية لتبديد ما يشوش سعيهم إلى أمان ذاتي، يدخل إلى قلوبهم الطمأنينة، والنوم الرائق إلى عيونهم، ولو لوقت معلوم. ولا بأس - أخيراً - من اقتنائهم سلاحاً نارياً خفيفاً، يجهلون استعماله، ومن بضعة عصيّ كهربائية، تكون الأولوية في اقتنائها لسيدات المنازل وآنساته، ليضعنها في حقائبهن الملونة الأنيقة، بعد التأكد من بائعها، أنها لا تقتل، بل تُحدث شللاً مؤقتاً، فحسب، وتمنحهن زمناً كافياً للفرار، في حال تعرضهن للخطف.

٣.الخوف البيولوجي

شملت الوساوس والهذيان المؤونة والطعام. بعضهم أفرغ غرفة من البيت للمؤونة من المواد الجافة، كالبرغل والأرز والسكر والعدس والفاصولياء؛ والسائلة كالزيت والسمن والمنظفات. وكانت حركة الناس في الأسواق الكبيرة الخاصة بالألبسة والأحذية، قد خفتت، فيما أخذ التجار يتحدثون عن الكساد، مع ظهور ميول جديدة، بدأت تغيّر نظام الأولويات، بعد اندفاع الناس إلى توفير أكبر كمية من الأغذية. وهذا شكل من أشكال استبدال العملة التي تتهاوى قيمتها الشرائية، بالسلع التي ترتفع قيمتها، وتختفي من الأسواق. فصرت ترى الزبائن في المتاجر الكبيرة، وفي أيديهم قائمة بالمطلوب شراؤه، ومن بعيد، يأتيهم صوت البائع؛ ليحذرهم شكلاً، ويحفّزهم حقيقة، على مزيد من الشراء: هذه - مشيراً بيده إلى سلعة - كان سعرها (كذا)، وصار سعرها (كذا)، فيأتيه من الزبائن هدير بصوت واحد كجوقة: أووووف!!

بعد دقائق، تفرغ الرفوف من بعض السلع، وتمتلئ بها أكياس الزبائن اللاهثين خلف توازن لن يتحقق بين قدرتهم الشرائية التي تتآكل كل يوم وبين حاجات أسرهم في صراع، يأخذ بعض محرّضاته من العناصر البيولوجية: الرغبة بالبقاء في سجلات الحياة، وعدم تبديد جنى العمر «فرق عملة». هذا فيما يحصل تجار الحروب المحميين من الأجهزة الأمنية، ثروات، بينما تتفاقم الأزمة الاقتصادية البنيوية التي تضرب عميقاً الاقتصاد السوري منذ أمد طويل.

إنها دوامة استنزافية مدمّرة للشرائح المتوسطة التي لا تزال تمتلك قدرة شرائية، وتقاوم بها انهيار شروط حياتها. أما الأغلبية الشعبية؛ فغادرت منذ زمن بعيد تلك الخيارات التفضيلية والوقائية، لتخوض معركة وجودها، بطريقة أخرى: بيوتها لاتزال مفتوحة من الجهات الأربع في مناطق المخالفات العقارية (العشوائيات). فهي لا تمتلك ثمن الحديد والكاميرات وأجور الحدادين والكهربائيين، ولا تعرف ماذا سيفعل اللصوص في بيوت، لا تتوافر فيها بعض من الأسباب التي لا تطيل الحياة، ولا تجددها، كالمازوت والغاز والزيت والسكر. إنها بيوت، ينتظر سكانها عودة الرجال من العمل آخر النهار، ليلتف أبناؤهم حولهم على موائد من أكداس الخبز والشاي الحلو والبطاطا المسلوقة. وهذا ما يستوجب على اللصوص منح بعض مسروقاتهم لأهل هذه البيوت، الذين يعمل أبناؤهم أعمالاً نافلة، من مسح السيارات والأحذية وبيع أوراق اليانصيب والتسول، إلى أعمال أخرى، يقودهم إليها مكوثهم الدائم في الشوارع، ويضعهم وجهاً لوجه مع أولاد الحرام من الشبيحة وعناصر الأجهزة الأمنية.

٤. قوادون وعاهرات، ومخابرات

حلب التي لم تكن تعرف النوم، وبعض من شوارعها وأسواقها يتصل ليله بنهاره، هي - الآن - شبه خالية من أول ساعات المساء. ومَن يعبر وحيداً في شارع، لا بد أن يشعر بثقل العتمة والخوف الآتي من عدوانية الصمت. صمت هو تجربة جديدة غريبة، لم تكن متاحة في أوقات الهدير البشري والزحمة الخانقة والتدافع اللجوج على الأرصفة الضيقة، وأمام باعة الحلويات وعربات شواء اللحوم وأكباد الخراف والذرة الصفراء. وهي فرصة ليلتقي هؤلاء العابرون المستوحدون، وجهاً لوجه، بأفواج العاهرات المضرّجات بالألوان والخلاخيل، وليكتشفوا - عن قرب - دلع المثليين، وسماع رنين كعوب أحذيتهم العالية، وهم يتبكرون أحدث المظاهر في لي أعناقهم ونفخ بالونات العلكة في أفواههم، قبل تفجيرها المجفل على زوايا شوارع مظلمة خالية. هذا فيما القوادون يصرّون أسنانهم الذهبية،

ويشحذون يقينهم البهيج بامتلاك مؤخرة العالم، واثقين ثقة تامة بالقيمة التداولية لأثداء عاهراتهم، لكنْ؛ خائفين من المزاج الوحشي للشبيحة قبل سريان مفاعيل حبوب المخدر في أبدانهم. وها هم يتحلقون حاملين في أيديهم علب البيرة، متبادلين الأنخاب، وموعودين بتقاسم الغنائم، موجّهين نظراتهم النيرانية إلى العابرين.

هناك - أيضاً - النائمون على الأرصفة، وفي زوايا الحدائق العامة، وكذلك لابد من مصادفة مَن لا يتركون الشوارع إلا ليسلّموها إلى غيرهم من عناصر فروع المخابرات الكثيرة.

ومنذ بداية العام ٢٠١٢ أخلى الناس شوارعهم ليلاً، فصارت نهباً لمثل هذه الأنواع من الرجال بسكاكينهم الصقيلة، وأسلحتهم الحربية، مخدّرين بآثار كبسولات الليبريوم والكابتوكان والفاليوم.

وفي الليل، تبقى البسطات على حالها رابضة حمولاتها الثقيلة في مكانها، إلى جنبات الشوارع، لكنْ؛ مغطاة بشوادر بلاستيكية، تظهر البسطات كأفيال منقرضة. ولا تتوقف الأعمال ليلاً في ورش البناء التي يديرها فصيل آخر من أعيان الشبيحة المؤتمنين على المدينة. فترفع في كل ليل بيوت، بلا أعمدة؛ لتلتوي بعد أسبوع كرجل عملاق مصاب بالكساح المزمن. وهناك مَن يكتب في الليل على الجدران - بعيداً من أعين هؤلاء، وبحماية حنونة من رفاقه - عبارات لن يرضى عنها الفاشيون أبداً، من مثل: الحرية إلى الأبد.

٥. فيروس الخوف والعنف

بعد منتصف تموز ٢٠١٢،لم يكن دخول المدينة في النسق العسكري - الحربي تتويجاً لسيرورة التراكمات النضالية التي تحققت في هوامش أحيائها، بفاعلية التنسيقيات المناضلة والمبادرات الثورية المتعددة، التي عملت على توطين الانتفاضة الشعبية الثورية، وإنتاج أشكالها.

الثوار في أعماق ريف حلب الشمالي والغربي - الموّار بالحركة والتفاعل

الثوريين بصيغ احتجاجية متباينة - تمكنوا من تشكيل بؤر ثورية لامركزية، ظلت معزولة نسبياً عن عمق حلب المديني الذي روّضته مختبرات القمع، وحصّنته طوال نصف قرن، وحقنت الكائن السوري بمركب من الخصائص الفيروسية التي جعلته يتكيّف مع أقسى الشروط، ويحتال على قهريتها، ويندفع إلى أن يأكل أخاه ونفسه «بلا ملح» حين يهيج. هذا من دون أن يتجرأ على الاقتراب من السلطة التي أخذت في مخيلته شكل حيوان وحشي أسطوري، لا يرحم. فتمكن الكائن السوري - بحذق - من تعليق جرس إنذار وقائي، في ذيله، كحال الفئران مع القط الشرس، في قصص الفتيان التي يبلِّغ فيها الجرسُ الفئرانَ عن لحظة حركة القط وتحفّزه وهجومه. هكذا تشرّب الكائن الحيطة والحذر، واعتاد البحث عن رزقه في غفلة عن المراقبة الماكرة والعقاب الانتقائي، مؤكداً ميله الراسخ إلى التسويات.

بعد تقويض الحركة الاحتجاجية بالدم والرعب في أواخر السبعينات من القرن العشرين، وبداية ثمانيناته، أنتجت الاصطفافات الطبقية المتجددة في سيرورة تاريخية مستقرة نسبياً، تحالفاً عريضاً بين «بورجوازية» مدينية - ريفية (صناعية، تجارية، ريعية، وخدماتية) مصفّحة بقوة ضاربة من أجهزة الأمن الواسعة الصلاحيات والقدرات، وبين بيروقراطية الفساد الإداري الحكومي العميق: بدءاً بمصلحتي الضرائب والتأمينات الاجتماعية وجهازي القضاء والشرطة، وانتهاءً بإدارة الجمارك العامة. لكن الفساد يتفشى في كل الإدارات والمؤسسات، ويعفي الأنشطة الاقتصادية كلها من الرقابة والمحاسبة والجباية الضريبية. والحلف هذا تشاركه قوة اقتصادية وازنة لعشائر، تتموضع أنشطتها في الاقتصاد الأسود: تهريب المخدرات والتبغ والسلاح والمضاربات العقارية وفرض الخوات على أصحاب المنشآت الصناعية.

يتوزع حضور هذا المركب وفاعليته، وفق هرميات بطريركية، أساسها الاجتماعي العشائر الممتدة في الريف المتاخم لحلب. برز من العائلات ذات المنبت العشائر آل بري وقيس، وشويحنة وحميدة، وجماعات أخرى تعرف بمنبتها القروي كالعساسنة (قرية عسان)، والعناجرة (قرية عين

جارة)، والعشائري كالبقارة والبطّوش والموالي والحديديين.. إلخ. وفي مرتبة أدنى، هناك جماعات كردية حلبيّة منفصلة منذ زمن عن الجذع الكردي وشجرته الملونة. عرفت هذه الجماعات ب «الماردل»، واشتهرت عائلاتها في الستينات والسبعينات بالأعمال الخدمية الدونية في المدينة، كمسح الأحذية وبيع أوراق اليانصيب والعتالة (حمّالين) وترويج الدعارة والمخدرات. أما نساء هذه العائلات؛ فعملن في الخدمة في بيوت الأغنياء.

من هذه الجماعات كلها، أعيد تشكيل النواة الصلبة للشبيحة الذين التحقوا من دون عناء بالحملة الحربية الموجّهة ضد المنتفضين في ٢٠١١. وبأثر من بنية أخلاقية متآكلة ومنحطّة، ونشاط اقتصادي تأسس وتوسع على دوس القوانين العامة، ونفور يصل إلى العداء المستحكم لأهل مدينة حلب، اندفع هؤلاء إلى إعمال أصناف العنف كلها ضد المحتجين.

بضرب من تقسيم العمل بين الجماعات الفاشية - بعد تفاهم مخابراتي مع قيادة «الاتحاد الديموقراطي الكردستاني» في الخارج، أثمر إفراجات عن معتقلي هذا الحزب، ووعود غامضة بتمكينه من الإدارة الذاتية للمناطق ذات الأغلبية الكردية - تمتعت هذه الجماعات بأماكن محمية لمليشياتها المسلحة، وجرى تلزيمها الأحياء والقرى ذات الأغلبية الكردية في حلب وريفها، على أمل أخذها غنيمة حرب، أو كمكافأة للأتعاب في آخر الخدمة مستقبلاً.

في المقابل، توفرت في مدينة حلب الكبيرة حالة تضامنية مع الانتفاضة الشعبية الثورية في حوران منذ ٢٠١١. عبّر التضامن الحلبي عن نفسه بانطلاقات لامركزية لمجموعات متعددة ومبعثرة من تنسيقيات الأحياء الحلبية. حفرت هذه المجموعات طريقها في الصخر، وتلمّست تجربتها، بحذر. وبشروط قهرية من التطويق الأمني خطط التعقب والاعتقال المنهجية، وسّعت نشاطها، وطوّرته؛ لتواجه واقعاً قاسياً ساكناً محكوماً بمفاعيل أيديولوجية للقوى السياسية التقليدية وحصارها، وبسلبية اجتماعية انكفائية

حلبية، وببطش، لا يرحم لقوّتين متلازمتين: الشبيحة والأجهزة الأمنية. هذا ما أوقع الحراك باكراً في مآزق تنظيمية وبشرية كبيرة، لم تتناسب - قط - مع محدودية فاعلية الاحتجاجات في مدينة واسعة وواعدة بإمكاناتها. جرت نقاشات واسعة عن الكيفيات المناسبة لتوسيع التظاهرات، وحول أهمية توفير الحماية الذاتية للتخفيف من أكلافها، بعدما باتت المشاركة في أي تظاهرة لدقائق في مثابة الذهاب إلى حرب معلومة النتائج. وصار مؤكداً أن كل مَن يذهب للتظاهر، يقوم بطقس الاستعداد للموت، أو التهيؤ لما سيواجهه، بعد الاعتقال، من تعذيب بدني مروع.

كأمثولة للمواجهة غير المتكافئة، رفرفت روح يوسف العظمة وميسلونه، فوق رؤوس الشبان/ات المنذورين لدفع أكلاف الحرية.

٦.المدينة والريف

عجزت المعارضة التقليدية غير الإسلامية (التجمع الوطني الديموقراطي الذي سيصير النواة التأسيسية لهيئة التنسيق الوطني لاحقاً)، عن تقديم تصور سياسي عن الانتفاضة الشعبية، واحتمالاتها. وفي ما بعد، عطلت، بتشوُّش مقولاتها وارتباكها وبتعويلها على إصلاح السلطة، كل اندفاع كفاحي نحوها. الجناح الآخر منها، وهو من بقايا إعلان دمشق، كان قد فقد معظم وزنه السياسي والتنظيمي في المدينة وسواها، وعانى من قصور قديم في مقارباته الفكرية - السياسية. فانفضّ عنه معظم مَن ساهموا في انطلاقه، ولم يبقَ فيه إلا «حزب الشعب» ومجموعة محدودة من المستقلين. هكذا اقتصر نشاط بعض جماعاته، منذ تأسيسه، على شبكة علاقات إعلامية عربية ودولية مدعومة مالياً، تمكّنت من تعويمه، وأجّلت ظهور المأزق الذي يلاحقه كظله، فيما هو يتفلّت من استحقاقات الانتفاضة الشعبية، بالهروب إلى الأمام، وبالتعويل الضمني على دور للخارج، في حسم نتائجها.

دخل رافد جديد من النضال الحقوقي شكله في القصر العدلي. إنهم «المحامون الأحرار» المدفوعون بتسارع الحراك الثوري في جامعة

حلب،الذي شكل حاضنة ثورية ومصباً لتفاعلات الروافد الشعبية الآتية من المحافظات المنتفضة (حمص، وإدلب على وجه الخصوص) لاستنهاض قيم الانتفاضة الشعبية، وتوطينها في حلب. واكبت ذلك حركة مائعة في انطلاقتها ومسيرتها هي «نداء حلب»، فالتحقت به تشكيلات، لم تتوضح فاعليتها الحقيقية: «أطباء تحت القسم» و«المهندسون الأحرار». أما الحركة العمالية والنقابية؛ فلم تتمكن من النهوض بأي فعل ثوري في النضالات اليومية، ولا هي قامت بمبادرة مستقلة، تفصلها عن خط الطغمة العسكرية، كذلك لم يتفعّل دور الموظفين الحكوميين بأي مبادرة ثورية، أو إصلاحية.

من صلب النضال الميداني ومجموعاته الثورية، انطلقت تجارب النشرات والصحف الورقية والإلكترونية التي واكبت الانتفاضة، وشكّلت لسان حال تنسيقيات شبابية مناضلة، واكبتها بالأنشطة الإغاثية للأرياف المجاورة والمدن الناهضة (حمص وحماة..). هذه النشاطات لم تكن بعيدة عن المراقبة الأمنية التي تسارعت استدعاءاتها وتهديداتها واعتقالاتها واغتيالاتها المروعة.

لكن الريف الشمالي والغربي كان له طريقه الخاص المنفصل عن تثاقل المدينة، وعن النقاشات السياسية والأيديولوجية المنفصلة بدورها عن الفعل.

٧. دبيب الأزمة المعيشية

مع بداية عام ٢٠١٢ بدأت تظهر علامات تفكّك التحالف الطبقي المبارك، وبدت علامات التململ على رجال الأعمال والتجار والصناعيين وأصحاب المهن الحرة في المدينة. عجزت هذه الفئات عن التكيف مع آثار انتفاضة شعبية مستمرة، تتوسع كل يوم، من دون أن يتمكن «معبود» رجال الأعمال الجدد وحاشيته، من تحقيق أي لقاء معها في أول الطريق، أو منتصفه. ومع استمرار الانتفاضة، بدأت الأزمة الاقتصادية تخرج عن

السيطرة: تآكل سعر صرف الليرة السورية، ارتفاع أسعار المواد الأولية، انخفاض القوة الشرائية للمستهلكين، وتفاقم الأزمات المعيشية، كنقص الوقود، انقطاع الكهرباء والمياه، وارتفاع أسعار المواد الغذائية، إضافة إلى تعثر حركة التبادل السلعي بين المحافظات، وخصوصاً مع مدينة، تعتبر مصنع سورية. هذا إضافة إلى فقدان الأمان على الحياة والأملاك مع التدهور المستمر للأوضاع الأمنية، بعد زيادة عمليات الخطف طلباً للفدية والابتزاز، بغرض دعم الشبيحة، وتهديدات الكتائب المقاتلة التي وصلت إلى العديد من مموّليهم من رجال الأعمال الكبار، وهدّدتهم بالقتل، قبل قيامها بقتل بعضهم. وظهرت آثار هذه العوامل بتهريب رؤوس الأموال، وهروبها، واستبدال النقد المحلي بالنقد الأجنبي، وإيداعه في مصارف خارجية، وتخفيض ساعات العمل في المعامل كنتيجة لضعف تسويق منتجاتها، ونقص الخامات الأساسية للتصنيع، مما شكل مقدمات لتوقف الأعمال الصناعية توقفاً تاماً. تبع ذلك إخراج الصناعيين والتجار عائلاتهم إلى الدول المجاورة، قبل فرار مجموعات كبيرة منهم إلى خارج البلاد، وغلق منشآتهم غلقاً كاملاً ودائماً.

وظهرت بواكير تفكك أطراف المنظمة التشبيحية تحت الضربات الموجعة للكتائب المقاتلة التي ساهمت اعتقالاتها كثيرين من رجالاتها النافذين من الحصول على كنز من المعلومات بأسماء مجموعات وأشخاص من أعضائها ووظائفهم. فتم خطف بعضهم، وقتله بعد إدانته بسجل مثبت من الحقائق المصورة والاعترافات الموثقة. ووصلت الكتائب أخيراً إلى واحد من أبرز رؤوس الشبيحة، زينو بري، وقتلته مع مجموعة من أعوانه.

٨. الكتائب في حلب

في بدايات حزيران ٢٠١٢ تسربت معلومات عن وصول مجموعات الكتائب المقاتلة - لوائي «التوحيد» و«الفتح» على وجه التحديد - إلى الأحياء التي تشكلت في أعماقها حاضنة للانتفاضة الشعبية في حلب: صلاح الدين، السكري، الفردوس، الشعار، الميسر، هنانو، والصاخور.

هذا هو القوس الجنوبي الشرقي من الأحياء الشعبية والفقيرة الحلبية؛ حيث بات يظهر التوسع المطرد في أعداد المظاهرات والمتظاهرين الذين توفرت لهم حماية وقائية من هجمات الشبيحة والأمن.

استيقظ الناس في أواسط شهر تموز ٢٠١٢ (صادف بداية شهر رمضان) على مدينة بلا شرطة عامة، ولا شرطة مرور وعمال تنظيفات، وأفران مقفلة، بلا حصتها من الطحين والخميرة والمازوت. الشوارع شبه مقفرة من حركة السيارات لغياب الوقود، والتيار الكهربائي ينقطع في أوقات طويلة، مع توقف الاتصالات الهاتفية والإلكترونية، أو تبطيئها إلى الحد الأدنى.

أيقن الناس أنهم في قبضة مَلزمة حديدية: عقوبات التجويع والترويع والانتفاضة. لكنْ؛ ليس الانتفاضة التي تعودوا متابعتها على شاشة التلفزيون منذ ستة عشر شهراً، وزرفهم الدموع والدعاء على الظالم ونصرة المظلوم، بل هذه التي يرونها بأعينهم في شوارعهم وأحيائهم وساحاتهم وبين أبنية سكنهم: رشقات الرصاص ودوي الانفجارات والتحليق المنخفض للطائرات العمودية والأفقية وفتح المدافع الرشاشة نيرانها من الجو وقذفها الصواريخ. وهذا كله إيذاناً بتحطم السلبية والحيادية الحلبيتين، ودخول المدينة في الامتحان الذي طالما حاولت تجنّبه بالمساومة والمهادنة وأنصاف الحلول.

لكنْ؛ ما لم يعلمه الغافلون من أبناء حلب، هو تحرير الطرق الريفية المؤدية إلى مدينتهم، من جهة الشمال، حيث بات العبور مأموناً، إلى حد كبير بين المدينة والحدود التركية. وهذا ما أكد فشل الخطة الحربية التي أشرف عليها اللواء آصف شوكت قبل أشهر، وتابعها العميد موفق الأسعد لإخضاع الريف وتركيعه بالقصف المدفعي والصاروخي اليومي، والعمليات الخاطفة المتكررة لاقتحام القرى، وإعادة نفوذ السلطة إليها. لكنْ؛ على الرغم من الوحشية الحربية في تنفيذ خطة، تتطابق موضوعياً مع أحط خطط الاحتلال وجبروته، حُرِّرت - أيضاً - الطرق الزراعية في اتجاه

الغرب والجنوب الغربي نحو مدينة إدلب وجبل الزاوية، ومنها إلى الغاب الشرقي والرستن والقصير؛ حيث الحدود اللبنانية.

ما لم يعلمه الغافلون كذلك، أن ما يحصل ليس فانتازيا تاريخية من تلك التي اعتادت تقديمها الشركات الفنية التلفزيونية، بل هو مأثرة ومجازفة كبيرة، قرّر فيها أبناء الفلاحين وطلبة الجامعات والعاطلون عن العمل خوض معركة مصيرية، بلا غطاء جوي، وبعتاد حربي، استخدم فيما مضى لاسترداد دماء القتلى المغدورين (الثأر) في الصراعات الأهلية المنهكة وقتل الضواري لحظة تهاجم الأرزاق. لقد كانوا كما لو أنهم في معارك المخيمات في عمان وإربد ١٩٧٠، وحصار بيروت ١٩٨٢، والانتفاضة الشعبية العراقية ١٩٩١.

٩. الانتفاضة المسلحة

أدرك المقاتلون أهمية غياب التشبيح الطائفي - الذي وقع في حمص والغاب الشرقي واللاذقية - بغياب مرتكزاته البشرية التي قادت الانتفاضة الشعبية وخياراتها إلى مواقع، ليست لها، فاستنزفت قوتها المتوثبة، وبدّدت طاقتها، وأهدرت قيمها الأخلاقية العليا. وتأكّد الثوار من أن الريف الذي يتم تحريره من جيش الطغمة العسكرية، لن يعود إليها، على الرغم من قوة النيران التي تملكها، وتستخدمها، فوقعت - أخيراً - في عجز السيطرة على الأرض.

قوى متعددة في قلب حلب تنبّهت إلى أهمية دور المبادرة العسكرية الثورية في تحرير قدراتها الملجومة. ومن قلب النواة للأحياء المدينية السلبية حيال الانتفاضة، انتقل المئات من الشبان/ات إلى المواقع الإغاثية المتقدمة؛ ليعملوا فيها ليل نهار، وينتزعوا حصة من المبادرة الميدانية، كأنهم وجدوا فرصة للانعتاق من ثقل الحياة وجمودها وخرسها واستنقاعها منذ نصف قرن.

أخيرا، أخذ الصراع السياسي، ولمئات الأسباب، الشكل العسكري. ومن نتائجه الأولية: عجز السلمية في ظل غياب تحالف سياسي مركزي،

يوحّد مبادراتها، وينظّم فاعليتها، ويوجّهها، ويرفع حدودها الكفاحية، في مواجهة عدوانية حربية فاشية.

نعود إلى الحركة الاحتجاجية ١٩٧٩-١٩٨٠ في مدينة حلب التي لم تجنح الطغمة العسكرية إلى تدمير أحيائها، على عكس ما حصل في حماة ومجزرتها في شباط ١٩٨٢. لكنها - اليوم - تستخدم مرابض المدفعية الثقيلة والهاون ومدفعية الدبابات وغارات الطيران الحربي على أهداف في قلب المدينة، وأكثرها اكتظاظاً بالسكان. أما في السابق؛ فقد اعتمدت حلاً مزدوجاً بين الحل الأمني/العسكري، وقامت بمجازر محدودة - يقال أنها كانت مفتعلة، بعمومها، ولإرهاب السكان، كما بيّنت الحقائق ومصادر المعلومات فيما بعد. وذلك في أحياء: المشارقة، ميسلون، ساحة الحطب. مع العلم أن الصراع - حينذاك - كان بين تنظيم سياسي - عسكري قاعدته اجتماعية محدودة ومنفصلة عن فاعليته العامة، وبين القوة التنظيمية للأجهزة الأمنية ورديفها العسكري من أفواج الوحدات الخاصة وسرايا الدفاع والميليشيات البعثية.

اتخذ الصراع - اليوم - في حلب، شكّل حرب استنزاف متبادل. وسيظل على هذه الحال، إن لم يحسم أمر القوة النارية للطيران والقصف من مسافات بعيدة من مرابض المدفعية والصواريخ. وفي ظل عدم توافر قدرات المادية لامتصاص آثار العدوانية الحربية للنظام، تحولت حرب الاستنزاف إلى كارثة للسكان (الدرع البشري للصراع السياسي) تشمل ديمومة العمل وشرطه الحاسم توفير الطعام والطبابة والسكن والنقل. وهذا يفرض على قوى الثورة مهمات تأمين التموين والإغاثة اللذين يساهمان في رفع المعنويات. وإن لم تتمكن جهة عسكرية مركزية من توحيد الكتائب المقاتلة وهيئاتها الإعلامية والإغاثية، ومن إنتاج استراتيجية عسكرية عقلانية، تتأسس على شل القوى التدميرية للطغمة العسكرية (مرابض المدفعية، المطارات، قواعد الصواريخ..)، فإن حرب الاستنزاف ستطول إلى ما تُعلم نهايته.

لكن أنظمة الحكم الفاشية لا تموت بالجلطة القاتلة. لابد من الصراع معها، بصفتها خلايا سرطانية منتشرة في الجسم الاجتماعي كله، والعمل على حصارها، في معركة شاقة ومكلفة.

١٠. باعة الترف القديم

ظهر على الأرصفة وفي زوايا الشوارع أناس جدد، لا تزال تبدو على وجوههم ووجه المدينة برمتها بقايا آثار النعمة التي في طريقها إلى الأفول والتبدد. خلف البسطات وأمامها يقف شبان بلباس أنيق وجميل ونظيف، ربما كانت أمهاتهم قد اشترته لهم من المتاجر الفاخرة في الأيام السالفة، ليظهروا به أناقتهم وتميزهم، وللتفاخر بالنسل المغسول بخلاصات الأزهار الطرية. وهاهم - اليوم - غارقون في خجلهم التربوي و«أودمتهم». تحت المطر، ويتقون المطر والمياه الآسنة التي لا تكفّ عن رشقهم بها السيارات المسرعة إلى مهماتها الحربية. وفي حمى التنافس على متر مربع من أرصفة الأماكن الآمنة، تراهم يحاولون عرض بضائعهم. وهي - غالباً - من البضائع الناجية من الحرق والنهب في دكاكين سوق المدينة التاريخي القديم ومستودعاته، ومن الأسواق الأخرى المحاذية له والمتفرعة منه، كالجلوم وخان الحرير وخان الوزير والمحمص والسبع بحرات والسويقة. إنها من بقايا أرزاق الناس وثمرة تعبهم الطويل. وفيها كذلك الكثير من مدخرات غيرهم، وفق أنماط اقتصاد استثماري بدائي، كنظام المرابحة؛ حيث تُدرج أموال الأرامل والمطلقات والأيتام والعجائز في العمليات الاقتصادية، وتوزع أرباحها، أو خسائرها، في آخر السنة، أو آخر كل شهر حسب الاتفاق.

يخجل الشاري من مساومتهم على ضرورة تخفيض الأسعار، أو حتى من النظر الطويل في وجوههم الحنونة الرائقة المشغولة بمزاج متمهل كقطعة كنافة. أناس مكسورون خجولون، تركوا جامعاتهم، وحلوا مكان آبائهم العاجزين عن احتمال الوقوف على الأرصفة، وتناسي ذاك الجو المخملي لحوانيتهم الواسعة، وشغيلتهم المتحلّقين حولهم لمتابعة طلبات الزبائن وتأمينها، والترحيب بالجديد منهم، وارتشاف الجميع أثناء ذلك

القهوة المرة المطعمة بالمسك والهال، أو ارتشاف الشاي الممزوج بطعوم الليمون والبرتقال وعيدان القرفة.

يقترب من يفتح الباب الخلفي لسيارته الفاخرة ذات الدفع الرباعي، ليُخرِج من داخلها صناديق الفاكهة وربطات الخبز. يتنحى زاوية قريبة، وينتظر فرج الله والمتسوقين. عيناه الخجلتان لا تبارحان الإسفلت، أو بلاط الأرصفة. لن يخطئ العابرون فوح شذى العطر الفاخر من ملابسه التي لا يعلمون أهي من «جيورجيو آرماني» أم «هوغو» أم «بنتون» «ماجيلا». هذا قبل أن يرى احدهم علبة التبغ التي يخرجها من الجيب الداخلي لسترته، ليشعل سيجارة بقداحة فاخرة، وينفث الدخان بدفعات متلاحقة إلى الأعلى.

وفي الظلال اللانهائية للمشهد هنالك مَن يطالبون، بصوت خفيض تارة، ومرتفع تارة أخرى، ب «العيش»؛ أي بما يبقيهم على قيد الحياة: وجبة طعام ساخنة، وبطانية صوف، وقليل من الضوء؛ ليروا ماذا حلّ بوجوههم، وكم تبقى من الشعرات السوداء في رؤوسهم ورؤوسهن.

الفصل الثالث
فوضى الإدارة المحلية والقضاء الشرعي

شهادات

غزوان، قرنفل، عباس موسى، ومحمود الحاج

١.مصائر الطلاب بعد الحراك السلمي

بعدما ظهر أن دور جامعة حلب محوري في إطلاق الحركة الاحتجاجية في المدينة، قامت الأجهزة الأمنية بمنع دخول غير الطلاب الجامعيين إلى الجامعة؛ لأن طلبة المدارس وتلامذتها أخذوا يتوافدون إليها للمشاركة في التظاهرات. برفقة عناصر أجهزة الأمن، انتشر الشبيحة في المدينة الجامعية، وعلى أبواب كلياتها.

أما بعد دخول كتائب من الجيش الحر إلى أحياء حلب الشرقية؛ فقرر الطلبة الجامعيون المعارضون للنظام التوقف عن الدراسة، وتفرقوا: قسم منهم انضم إلى الجيش الحر، وشكلوا «كتيبة شهداء الجامعة»، و«كتيبة أبو عمارة». قسم آخر قرر الاستمرار في النشاط المدني السلمي، فتمثل في «مجلس حلب المحلي» بعد إنشائه. قسم ثالث، غادر المدينة، بعضهم حلبيون، ومعظمهم من مدن سورية أخرى، وكانوا يدرسون في جامعة حلب.

٢.العسكرة وانقسام المدينة

ككل المدن السورية، تلى الحراك السلمي في مدينة حلب - المتمثل بعشرات المظاهرات الطلابية والشعبية، والنشاطات الثورية الأخرى المرافقة لها طوال٧ أشهر مابين نهايات العام ٢٠١١ وبدايات ٢٠١٢ - تحول ذلك الحراك من سلمي إلى مسلح.

من ريف حلب، دخلت كتائب الجيش الحر المقاتلة إلى بعض أحياء المدينة، فانضم حلبيون من هذه الأحياء إلى صفوف الكتائب المسلحة.

وفي المعركة التي سميت «معركة حلب» والتي جرت في العشرين يوليو/ تموز ٢٠١٢، ردّ مقاتلو «الجيش الحر» على قوات الأمن التابعة للنظام، وتمكنوا - بعد سلسلة من العمليات العسكرية - من دفع قواته إلى الجهة الجنوبية والغربية من المدينة، أي إلى أحياء: الحمدانية، حلب الجديدة، وأجزاء من صلاح الدين. وتمكن الثوار من فرض سيطرتهم على القسم الشرقي من المدينة: مشفى العيون، وأحياء هنانو، أنصار الشرقي، الشعار، القاطرجي، قاضي عسكر، دوار جسر الحج، الفردوس، السكري، وأجزاء من صلاح الدين.

ومنذ ذلك الوقت، قسم خط طويل مدينة حلب، إلى شرقية، تسيطر عليها قوى المعارضة، باختلاف تلاوينها، وغربية، تسيطر عليها قوات الأسد. هذا الخط هو خط الجبهة الذي تجري في محيطه أعنف المعارك.

النصف الغربي يسيطر عليه الجيش النظامي، ويسمّى «حلب الموالية»، أو «غير المحررة»، والنصف آخر الشرقي - الجنوبي يسيطر عليه مسلحو الجيش الحر وسواهم من المجموعات المسلحة، ويسمّى «حلب المعارضة»، أو «المحرّرة». بين هذين القسمين المنفصلين سكانياً وأمنياً، يقوم معبران اثنان: الأول في حي الشيخ مقصود الذي كان تحت سيطرة القوى النظامية قبل أن ينتزع الجيش الحر السيطرة عليه، ويمنع العبور منه إلى الأحياء الموالية. المعبر الثاني هو الطريق الواصل ما بين حي بستان القصر الذي يسيطر عليه الجيش الحر وحي المشارقة الذي تسيطر عليه قوات النظام.

الحلبيون الذين نزحوا عن المدينة مع دخول الجيش الحر المدينة ونشوب المعارك بينه وبين الجيش النظامي، عاد قسم منهم إلى أحيائهم «المحررة» التي تصل نسبة المقيمين فيها اليوم إلى ٤٠ في المئة مما كانت عليه قبل الثورة. سكان هذه الأحياء من المسلمين السّنّة، عرباً وكرداً. كثيرون منهم يضطرون - يومياً - للعبور إلى «حلب الموالية»، من أجل العمل، والذهاب إلى الجامعة. الجيش النظامي يسمح لهم بالمرور،

بعد تفتيشهم والتدقيق في هوياتهم، والتأكد من أنهم غير مطلوبين، ويحاول - أيضاً - الحصول منهم على معلومات عن أماكن تجمع الجيش الحر. القناصة التابعون للجيش النظامي يتمركزون في حي الإذاعة المشرف على المعبر، وغالباً ما يطلقون النار إرهاباً للعابرين، ويقتلون بعضهم، كلما أرادوا شل حركة العبور.

بعد أشهر قليلة على سيطرة قوى المعارضة على الأحياء «المحررة» قامت قوات الأسد بممارسة أعنف أشكال القصف على هذه الأحياء، مستخدمة كل ما لديها من سلاح ثقيل. نجم عن ذلك سقوط ألوف الضحايا، ونزوح قسم كبير من السكان، فلم يبقَ منهم سوى حوالى ٢٠٠ ألف مدني، وبات أكثر من ٤٠ في المئة من عمران المدينة مهدماً، وغير صالح للسكن.

٣. هيئات وكتائب محلية متناسلة

على رغم المعارك والقتال والقصف المتبادل بين حين وآخر على خطوط التماس بين قسمي المدينة، تعوَّد سكان الأحياء المحرّرة على العيش في ظروف حربية، باتت أصوات الرصاص والانفجارات جزءاً من إيقاعها اليومي. وبعد دخول الجيش الحر، تكاثرت الكتائب المقاتلة في الأحياء التي سيطر عليها، فنشأت «الكتائب الإسلامية» في عدد من الأحياء، وسيطرت عليها، وأقامت ما سمّته «هيئة شرعية» لإدارة شؤون السكان والتحكيم في منازعاتهم. هذا في مقابل هيئة أخرى سابقة، سمّيت «هيئة القضاء الموحد» أنشأها الناشطون المدنيون من محامين وقضاة منشقين عن النظام، بعد توحيد جهودهم في تكتل، سمّوه «المجلس الأعلى لقيادة الثورة في حلب». أما القوى العسكرية المقاتلة غير الإسلامية؛ فأنشأت ما سمّته «المجلس الثوري الانتقالي في حلب».

بعدما كان الناشطون المدنيون ينتظرون تحرر حلب من قوات النظام الأمنية والعسكرية، وتفاءلوا بدخول الجيش الحر إليها، اختنقت فرحتهم؛

لأن مدينتهم انقسمت، ولم تتحرر كاملة، ولأن الأحياء المحررة تكاثرت فيها الصراعات والنزاعات بين الكتائب المقاتلة، وخصوصاً بين الجيش الحر والكتائب الأخرى الكثيرة، لاسيما الإسلامية منها، والتي أخذت هيئتها الشرعية تسعى وتلحّ في السيطرة على شؤون الحياة والخدمات اليومية.

لذا؛ عمد الناشطون المدنيون بالتعاون مع وجهاء وأعيان في الأحياء المحررة إلى العمل على توحيد «المجلس الأعلى» المدني، و«المجلس الثوري» العسكري. فتشكّلت - لذلك - لجنة من المجلسين هذين، هدفها التحضير لانتخابات، ينتج عنها تشكيل مجلس محلي، يتولى إدارة شؤون الأحياء المحررة. الكتائب الإسلامية وهيئتها الشرعية رفضتا الانضمام إلى اللجنة التحضيرية والمشاركة في الانتخابات. «المجلس الوطني» و«الائتلاف الوطني» المعارضان دعما اللجنة التحضيرية التي اختارت عدداً موسعاً من الناشطين المؤثرين وممثلين لهيئات فاعلة، مهمتهم انتخاب مجلس محلي من ١٣ شخصاً. انتقل من اختارتهم اللجنة التحضيرية إلى مدينة غازي عنتاب التركية؛ حيث انتخبوا أعضاء المجلس الجديد الـ١٣ المزمع أن يكونوا الهيئة الموحدة لـ«المجلس المحلي» الذي يتولى إدارة شؤون الأحياء المحررة. حدثت مفاجأة في انتخابات غازي عنتاب: لقد فاز فيها شبان من المستقلين والناشطين في مجموعات كـ«مجموعة أحفاد الكواكبي»، على مرشحين آخرين من كبار السن والشأن مدعومين من «المجلس الوطني» و«الائتلاف الوطني». وهذا ما أدى إلى بلبلة ناجمة عن عدم رضى غير الفائزين الذين حاولوا، لاحقاً، عرقلة عمل المجلس المحلي، فلم يوفروا له الدعم، واعترضوا على قراراته.

٤. لجان لتأمين الخدمات اليومية

على رغم القصف المتبادل والاشتباكات اليومية المتقطعة على خطوط التماس بين قسمي حلب، ساد لغط، تناقله سكان الأحياء المحررة كالشائعة عن تواطؤ أو اتفاق ضمني في أوقات معينة بين الجيشين الحر والنظامي. بواعث هذه الشائعة هو ضيق السكان وتبرمهم من دبيب

الحرب في حياتهم اليومية، وثبات الطرفين المتنازعين كل على حدوده من دون اختراقها. الثبات هذا يطال معبر بستان القصر- المشارقة في المدينة المنقسمة، فلا يمنع العابرين من التنقل بين القسمين سوى رصاص القنص المنطلق من الطرفين على المعبر.

في حلب الشرقية أو المعارضة، لم يبقَ سليماً من البنية التحتية سوى منشآت قليلة، تؤمن خدمات يومية أساسية، يكتفي السكان بنزر ضئيل منها تحت وطأة ظروف حياتية صعبة. لتنظيم شؤون هذه الخدمات الاكتفائية بعد عودة النازحين، نشأت في كل حي لجنة، مهمتها تأمين الخبز ومواد الإغاثة للفقراء والمهجرين، فتسلمت لجان الأحياء هذه المساعدات، وقامت بتوزيعها على المحتاجين. في حين لا يزال النظام يغذّي الأحياء المحررة بالمياه والطاقة الكهربائية، قامت لجان الأحياء بتوظيف عمال فنيين سابقين في مصلحتي المياه والكهرباء، للعمل على إصلاح الأضرار والأعطال في منشآت الشبكتين. خدمات الهاتف الأرضي تعمل بنسب متفاوتة، لأن النظام يعمد إلى قطعها بين وقت وآخر. أما الأحياء التي تعرضت أقسام البريد والهاتف فيها إلى القصف؛ فانقطعت عنها اتصالات الهاتف الأرضي، على نحو كامل، فيما لا تزال شركات الهاتف الخليوي، تحرص على إرسال فرق الصيانة من عمالها إلى الأحياء المحررة، لإصلاح الأضرار في الشبكة، وفي أعمدة الإرسال. الجيش النظامي يسمح لهؤلاء العمال بالعبور إلى هذه الأحياء، فيما يرحّب الجيش الحر بهم، ويعمل على تأمين سلامتهم.

٥. حال القطاع التربوي

القطاع التربوي من أشد القطاعات تضرراً في حلب. ناشطون وهيئات محلية افتتحوا مدارس في الأحياء المحررة لتعليم الأطفال وتلامذة المرحلة الابتدائية. قدرة هذه المدارس على استيعاب التلامذة محدودة، شأن الإمكانات المتوافرة لتشغيلها. من المشكلات التربوية الأخرى، برزت مشكلة تقدم تلامذة الأحياء المحررة لامتحانات الشهادات الرسمية، الإعدادية والثانوية، وكيفية إدارتها: هل يجري تقديم لوائح بأسماء تلامذة هذه

الشهادات إلى وزارة التربية والتعليم التابعة للنظام، للحصول على موافقتها وتمكين التلامذة من التقدم إلى الامتحانات الرسمية التي تديرها الوزارة؟ بعض المدارس قدم اللوائح للوزارة، وحصل على وعد من النظام بعدم قصف المدارس، على أن يتقدم تلامذتها لامتحانات الشهادات الرسمية في الأحياء التي يسيطر عليها الجيش النظامي. هذا وأعلنت وزارة التربية أنها لا تستطيع إرسال مراقبين للامتحانات في الأحياء المحررة، حرصاً على سلامتهم.

أ. تدمير المدارس

دمرت آلة الحرب العشرات من المدارس التي باتت خارج الخدمة. فاستناداً إلى إحصاء «تجمع المهندسين الأحرار» في حلب (ركّز على المدارس المتضررة في بعض أحياء المدينة، وشمل مسحاً للأضرار، وتقييماً للحالة الإنشائية للمدارس الحكومية في ٢٠ حي من أحياء حلب) بلغ عدد المدارس المتضررة حوالى ٧٧ مدرسة، ويحتاج تأهيلها إلى حوالى ٢ مليون دولاراً. وبحسب مصادر أخرى، هناك ٢٠ مبنى مدرسياً صالحاً للاستخدام، من أصل ٧٢٠ مبنى في مدينة حلب.

وككل المدن السورية شهدت شوارع حلب حرباً ضروساً بين قوات المعارضة السورية وقوات الأسد. فلم ينجم عن ذلك تهدم المباني والمدارس، فحسب، بل إن قسماً كبيراً من الكادر التعليمي نزح عن المدينة، وأصيب غيرهم، وتحول بعضهم إلى عمل آخر.

وفقاً لكثير من الشهادات، تعمدت طائرات الأسد قصف المدارس والأماكن التي يحتشد فيها المدنيون. ففي أيار ٢٠١٤ ارتكبت قوات الأسد مجزرة في مدينة حلب، فقتلت ما لا يقل عن ٢٥ تلميذاً في مدرسة عين جالوت في حي الأنصاري. وقال مركز حلب الإعلامي إن الطيران الحربي استهدف المدرسة مباشرة، ما أدى إلى استشهاد أكثر من ٢٥ طفلاً من تلامذة المدرسة، لا يتعدى معدل أعمارهم ١٢ عاماً.

وعلى الرغم من الظروف التي يصعب تخيلها، تصنف كثرة من المنظمات الدولية حلب واحدة من أخطر المدن في العالم؛ حيث يستمر ما تبقّى من الأهالي محاولين إنتاج حياتهم، والسيطرة عليها، وتنظيمها وفق الوضع الراهن.

انبثقت في حلب «المحررة» أشكال تنظيمية مدنية ومؤسسات بديلة كثيرة، سعت إلى ضبط ما تبقّى من حياة في هذا الجزء من المدينة. وفي مايو/أيار ٢٠١٣ نجح الناشطون المدنيون في تأسيس «مجلس محافظة حلب الحرة»، وفق آليات انتخابية شفافة، شملت المكونين (الريف والمدينة)؛ ليتشكل مجلس المحافظة المؤلف من ٢٩ عضواً، ولينبثق عنه رئاسة المجلس ونائبه وأمينه العام وأمانة السر وتسعة مكاتب تنفيذية. وانبثقت عن هذا المجلس، «مديرية التربية والتعليم في محافظة حلب الحرة»، كهيأة مسؤولة مباشرة عن رعاية العملية التعليمية في وريف المدينة وأحيائها الواقعة تحت سيطرة المعارضة.

استُخدمت المدارس الأقل تضرراً، والممكن إصلاحها. عندما يشتد القصف تصير هذه المدارس هدفاً لطائرات النظام، مما يضطر الكادر التعليمي إلى إشغال الطبقات السفلى من مبانيها.

وبسبب تحول بعض المدارس إلى مقرات عسكرية، قُصف أغلبها. ونسبة المدارس العاملة لا تتجاوز ٢٥ في المئة. وفي الريف، يوجد تقريباً ٤٠٠ مدرسة، بقي قائماً ويعمل ٢٠ في المئة منها، بمعدل وسطي، مقداره ٤٠٠ طالب في كل مدرسة. وإذ لم تسلم المدارس من ضربات طائرات النظام، بهدف شل العملية التعليمية، جرى تأهيل الأقبية فيها؛ لتصبح أمكنة آمنة للتدريس بدلاً من الطبقات العليا. وعندما استحال إصلاح أو استخدام المدارس، استخدمت المنازل السكنية والأقبية والمساجد، ولو بأعداد قليلة نسبياً من التلاميذ، وتحديداً في مرحلة التعليم الأساسي.

ب. مناهج التعليم وشركاؤه

على صعيد المنهاج المعتمد في أغلب مدارس مدينة حلب وريفها،

اعتمد المنهاج السوري الرسمي المعدل، بعدما حذفت منه مواد التربية الوطنية والدراسات الاجتماعية، وكل ما يتعلق بسلالة الأسد وحزب البعث الحاكم. وأضيف إلى المنهاج مواد دينية، مصدرها الأساسي رجال الدين في مناطق المعارضة. وفي بعض المناطق، هناك كتب شرعية تابعة لمنظمات، أو لهيئات شرعية.

الهيئات القيّمة على العملية التعليمية، متعددة: منظمات مدنية محلية مستقلة، وأخرى تقف وراءها قوى سياسية، أو منظمات دولية مختلفة. وللائتلاف السوري المعارض دور في دعم العملية التعليمية، من خلال التنسيق والتعاون مع مجلس محافظة حلب الحرة. إضافة إلى هذا كله، يحدث أن تتدخل إحدى التشكيلات العسكرية في العملية التعليمية. ففي الريف الغربي من حلب، على سبيل المثال، تقوم كتائب نور الدين زنكي، بصرف مكافآت المدرسين والمتطوعين.

ت. مديرية جديدة للتربية والتعليم

تعد «مديرية التربية والتعليم في حلب المحررة» الأهم على صعيد العملية التعليمية في حلب وريفها المحرر. فطبقاً للتقرير السنوي المقدم من مكتب هذه المديرية للفترة ما بين ١٥ كانون الأول ٢٠١٣ وأول كانون الأول ٢٠١٤، هناك ٣٠ مدرسة موزعة في ريف حلب المحرر تحتاج إلى تأهيل. ونجح المكتب في تأهيل ١٩ منها، وزود بعضها بالمدافئ، وأصلح شبكة المياه الخاصة بها. وقدم دعماً لتأمين الوقود لجميع المدارس التي تستقبل طلاباً، وعددها ١٨٢ مدرسة موزعة في الريف الشمالي والغربي والجنوبي من محافظة حلب.

وقام المكتب، بالتنسيق مع «هيئة علم» (هيأة خيرية إسلامية)، بتوزيع مجموعة من الكتب المدرسية لمرحلة التعليم الابتدائي من الصف الأول حتى السادس. كما وقّع عقداً مع منظمة «كومينيكس» الدولية، لتأمين ١٧ ألف نسخة من الكتب المعدلة، حسب المنهاج الجديد، للصفين

الأول والثاني. وتسلم المكتب دفعة من كتب المرحلة الابتدائية (٣٦٥٧٧ نسخة) من الحكومة المؤقتة، فخُزّنت في مستودعات بلدة مارع. وفي أوقات مختلفة، وزع المكتب مكافآت كناية عن أجور متواضعة للعاملين في السلك التعليمي، إضافة إلى صرفه مكافآت للمدرسين المتوقفة أجورهم، وشملت المكافآت - أيضاً - المدرسين المتطوعين والعاملين في الإدارة.

ومن جملة النشاطات التي ساهم فيها مكتب التربية والتعليم، مشروع «الأندية الصيفية» الترفيهي الذي استهدف مجموعة كبيرة نسبياً من التلاميذ، بالتعاون مع «مؤسسة عبد القادر سنكري للأعمال الإنسانية». هدف المشروع إلى «تربية الأطفال تربية ثورية، وغرس المحبة في قلوبهم، من خلال أنشطة النوادي للرسم، التطريز، اللعب، الرياضة، الغناء، المسرح، ومسرح الدمى. وجرى - أيضاً - تدريب المدرسين على الأساليب الجديدة، للتعلم، عن طريق اللعب والمرح، لإسعاد الأطفال، وإخراجهم من دائرة الخوف إلى باحة الأمل..»، بحسب نص التقرير.

وفي شهر آب ٢٠١٤، تمكن المكتب من تجهيز أول مبنى مدرسة من البناء الجاهز في الريف الجنوبي، بالتعاون مع مؤسسة «بناء»، كنموذج اختباري لتوفير مثل هذه المدرسة في المناطق التي تفتقد إلى مباني مدرسية.

ث. مؤسسات تعليمية خاصة

يرى محمد سندة، المدير التنفيذي ل»مؤسسة جنى للتعليم ورعاية الطفل» الخاصة، أن «جنى» هي أول مؤسسة تعليمية تأسست في المناطق المحررة من محافظة حلب. وقد جرى تأسيسها في منتصف تشرين الأول ٢٠١٢. وبعد حوالى الشهر، افتتحت أول مدرسة أنشأتها في جامع الصبحان في حي الكلاسة.

وحتى منتصف ٢٠١٣ بلغ عدد المدارس التي أنشأتها المؤسسة ٧ مدارس ابتدائية، و٣ مدارس ثانوية، ومعهدين لتعليم القرآن الكريم ومبادئ

اللغة العربية. وبلغ عدد الطلاب في هذه المدارس والمعاهد أكثر من ٣٠٠٠ طالب وطالبة، إضافةً إلى أكثر من ١٢٠ مدرس ومدرسة.

لا تتوافر معلومات واضحة عن مصادر تمويل «جنى». وغياب مثل هذه المعلومات يكتنف معظم آليات عمل المنظمات المدنية السورية. ويكتفي القيّمون على هذه المنظمات بالحديث عن تبرعات فردية وفاعلي خير. ويترك للمدقق تأويل هذه المصادر، واستبطانها: هل هي - على سبيل المثل - شخصيات محسوبة على تنظيم الإخوان المسلمين السوري؟ هناك ما يوحي بأن هذا التنظيم هو أحد «فاعلي الخير» الممول ل»جنى». لكنْ؛ لا يمكن الجزم بذلك. إلا أن الشكوك تبقى قائمة، في غياب مصادر شفّافة لمعرفة مصادر التمويل.

ج. خلاصة

تبدو العملية التعليمية في محافظة حلب «الحرة» - إذا ما قارناها بمناطق أخرى تقع تحت سيطرة قوى المعارضة، كريف إدلب أو منطقة حوران، أو حتى محيط دمشق - أكثر فاعلية مما في هذه المناطق جميعها. وربما يكون مرد ذلك إلى التنظيم المؤسساتي الذي شهدته المحافظة، والمركزية النسبية التي عملت وفقها هذه المؤسسات الناشئة حديثاً. فقد كان لمجلس محافظة حلب الحرة دور مهم وحاسم في إدارة المناطق المسيطر عليها، والتأثير مباشرة على العملية التعليمية. هذا بالإضافة إلى بناء شراكات مع جهات ومنظمات مختلفة، من ضمنها الائتلاف الوطني لقوى الثورة السورية.

وإذا ما قورنت الإمكانيات الواقعية للقوى المدنية في هذه المنطقة، وأخذت في الاعتبار الأوضاع المأساوية التي تعيشها محافظة حلب عامة، فإننا نستطيع القول إن هذه القوى - على الرغم من إمكاناتها المتواضعة - تمكنت من التقدم خطوات على الصعيد التربوي، وإدارة المناطق التي تسيطر عليها.

٦. المجلس المحلي ولجان الأحياء

تناسل المجموعات المقاتلة وتكاثرها، وسعيها إلى السيطرة على مفاصل الحياة العامة في مناطق نفوذها، وقيامها بأعمال اعتقال تعسفي وتعذيب للمعتقلين، حملت الناشطين المدنيين على تنظيم تظاهرات احتجاجية، رفعت شعار: «الجيش الحر، الله يهديك». عمد المسلحون إلى تفريق المتظاهرين، بإطلاق الرصاص في الهواء إرهاباً. وفي هذه الأجواء، تحاول هيئات المجلس المحلي تنظيم أعمالها، فأنشأت مكاتب غير مركزية للإغاثة والخدمات التربوية والصحية، وتعاونت مع لجان أهلية تشكلت في الأحياء، فدعمتها؛ لتُمكِّنها من رفع مستوى خدماتها، بعيداً من المركزية الإدارية.

من نشاطات المجلس ولجان الأحياء، قيامهما بحملة «مدينتي نظيفة» التي شارك فيها ناشطون وأهالي لتنظيف الشوارع، من أكوام النفايات. وهذا حمل الهيئة الشرعية المنافسة للمجلس على الإعلان عن قيامها بحملة نظافة، فنشرت ناشطيها في الشوارع نفسها. وبعدما أنشأ المجلس مكتباً تربوياً، تعاون مع لجان الأحياء على تأمين مدرّسين لتعليم الأطفال، عمدت الهيئة الشرعية إلى إنشاء مدارس خاصة بها.

هذه المنافسة انعكست إيجاباً في مجال تقديم الخدمات في الأحياء المحررة، من دون أن يتوقف الصراع على النفوذ الذي لم يعد محصوراً بين الهيئة الشرعية والكتائب المقاتلة، من جهة، والناشطين المدنيين، من جهة أخرى، بل تعداه إلى صراع بين الكتائب نفسها. فأعلن بعضها تأييده للمجلس المحلي المدني، واحتكامه لصناديق الاقتراع، وترك السلاح بعد سقوط النظام. وطالبت هذه الكتائب - أيضاً - بالتمييز والفصل بينها وبين الكتائب الإسلامية وسواها من المجموعات المسلحة الصغيرة التي تقاتل باسم الجيش الحر، وتقوم بأعمال خطف، للحصول على فدية، وباعتقال مواطنين، وتعذيبهم.

٧. فوضى القضاء الشرعي

التدمير الممنهج الذي مارسته سلطة العصابة الحاكمة انتقاماً من مسعى السوريين إلى الانعتاق من سلطان الدولة الأمنية إلى فضاءات دولة القانون والمواطنة، لم يكن وحده المعبّر عن حجم الكارثة السورية. أما تهجير ملايين السوريين ونزوحهم وتشريدهم في أصقاع الأرض؛ فلم يكن بدوره الوجه القبيح الآخر لتلك الكارثة. وقد يكون الوجه الأشد قبحاً من التدمير والنزوح، هو الفشل الذريع في إدارة المناطق المحررة، وتركها نهباً للفوضى وسطوة السلاح وأمزجة حامليه. فالفشل هذا يحمل رسالة، تؤكد عدم القدرة عن اجتراح البدائل التي تمكّن المناطق المحررة من إدارة شؤونها العامة. وهذا يدعّم ما تسوّقه سلطة العصابة في المحافل كافة من أنها - على الأقل - خيار الضرورة بديلاً عن خيار الفوضى.

لعل التجلي الأوضح للواقع المزري الناجم عن ذلك العجز، هو الغياب، أو التغييب المبكر للمؤسسة القضائية التي كان يمكن للإبقاء عليها في المناطق المحررة، أن يساهم في عدم انفلات الأمور وتدهورها إلى حالة الفوضى. ولأن ذلك كان يمكن أن يؤدي - أيضاً - إلى اتساق العمل في المؤسسات الحكومية وشبه الحكومية البديلة الوليدة في تلك المناطق.

لقد تكالبت الألوية المسلحة والجماعات المستقوية بها، على فرض سطوتها وسيطرتها على المناطق المحررة، تكالبها على إدارتها. الأسوأ في ذلك التسابق هو إصرار المنظمات المسلحة على ممارسة العمل القضائي، والفصل في مظالم الناس، أو ممارسة الوصاية على القضاء، بترهيب السلاح، أو بإغداق مالي، من جهات، تحمل برنامجاً إسلامياً. وباسم تديّنها الإسلامي، أقدمت القوى المسلحة على وضع يدها على المرفق القضائي، وهمّشت القضاة المنشقين، ورفضت الإفادة من خبراتهم، وعملت - بدأب - على هدم كل الإرث القانوني السوري. حصل ذلك كله بذريعة «رفض العمل بقوانين الأسد ونظامه». إنها ذريعة واهية، وتشي بالجهالة، أو التجاهل: فالمؤسسة القضائية السورية كانت تعمل وفق

قوانين صدرت عام ١٩٤٩؛ أي قبل الأسد والبعث ونظاميهما. أما إحالة آليات العمل القضائي إلى تطبيق ما يسمى «شرع الله»؛ فأمر لا يفي سوى تحكيم الفوضى والأهواء، باسم الاجتهادات الفقهية.

تحت عباءة الدين الإسلامي تم استيلاد المئات من «القضاة» خلال أسابيع. بعضهم من رجال الدين وأئمة المساجد والمؤذنين وقضاة الشرع، وبعضهم لا يحمل حتى الشهادة الإعدادية. فأجريت لهؤلاء دورات تدريبية، لم تستغرق أكثر من أسبوع واحد، في منتجع «أوغرلو» في مدينة غازي عينتاب التركية. وأدى ذلك إلى تفريخ عشرات «القضاة» الذين يحملون شهادة، تخوّلهم ممارسة القضاء، بحجة أن الشهادات ممهورة بخاتم ائتلاف قوى الثورة والمعارضة السورية، وتوقيع رئيسه معاذ الخطيب.

هكذا استُحدثت محاكم في المناطق والنواحي والقرى «المحررة»؛ لتستوعب «القضاة» الجدد، في إطار ما اصطُلح على تسميته «الهيئات الشرعية التي تعمل وتحكم باسم ما يسمّى شرع الله، كما يفهمه أولئك «القضاة»، وفي حدود معارفهم الضيقة المبسترة. لذا؛ تضاربت الأحكام، وضُرب عرض الحائط بكل المعايير المتعارف عليها في المحاكمات العادلة، فضلاً عن فضيحة العجز عن تطبيق «شرع الله» على حملة السلاح الذين جعلوا أنفسهم في منزلة، تعصمهم عن المساءلة والمحاسبة، بوصفهم قوة محررة، لا تُسأل عما تفعل. واقتصر تطبيق «شرع الله» على الفقراء والبسطاء والنشطاء، ممن لا يتزنرون، بالسلاح، أو يلوذون، بحامليه.

كان لبعض رجال القانون موقف من هذا العبث. ففي ٢٥ آب ٢٠١٣ أصدر «تجمع المحامين السوريين الأحرار» - يتخذ من تركيا مقراً له، وأنشأ مكاتب في الداخل المحرر - بياناً مشتركاً مع «مجلس القضاء السوري الحر»، تحت عنوان «المذبحة القضائية»، فنشر في العديد من المواقع الإلكترونية، وأدان «الاستهتار والعبث بكل القوانين وآليات العمل القضائي»، ورفض أن يقوم بالعمل القضائي غير المختصين. وشجب

البيان - أيضاً - قيام جهات معينة بوضع اليد على القضاء، لأسباب، لا علاقة لها بحقوق الناس، وطالب الائتلاف الوطني برفض استخدامه ستاراً لحيازة شهادات من «أوغرلو»، في غازي عنتاب التركية.

أ. مجلس القضاء الموحد

ما إن تم تحرير أحياء من مدينة حلب، وأصبحت تحت سيطرة كتائب الجيش الحر، حتى مسّت الحاجة لإنشاء قضاء لفض النزاعات، بعدما تصدعت وانهارت المنظومة القضائية السورية الرسمية. تصدت مجموعة من المحامين، وعلى رأسها عبد المنعم قشقش، لهذه المهمة الجديدة، وبدأت المشاورات والمحادثات مع الفصائل العسكرية التي كان معظمها يريد إقامة أحكام القضاء وفق الشريعة الإسلامية. رفضت الفصائل الإسلامية الكبرى المسلحة، الدخول في تشكيل ما يسمّى «مجلس القضاء الموحد» الذي بادرت مجموعة المحامين إلى إنشائه. وقد جاء ذلك الرفض تجسيداً لرفض ما سمّته تلك الفصائل «قوننة الشريعة»، على اعتبار أن «الشريعة لا تقونن». لكن ما يقارب ١٨ لواء عسكرياً غير إسلامية وقّعت على ميثاق «مجلس القضاء الموحد»، وبايعته على إحالة جميع الموقوفين والخلافات إلى المجلس المخول وحدة إصدار الأحكام.

تأسس المجلس - فعلاً - في تشرين أول ٢٠١٢، من مجموعة صغيرة من القضاة والمحامين والحقوقيين وقضاة الشرع. وعرّف عن نفسه كمجلس مؤقت، يسعى لتحقيق العدل بين الناس، وحفظ حقوقهم وأموالهم ودمائهم، وفق مرجعين قانونيين، وهما: أحكام الشريعة الإسلامية والقانون السوري الوضعي المعتمد رسمياً. أما الأحكام التي تصدر عن محاكم هذا القضاء؛ فعلى درجة تقاضٍ واحدة فقط، لا استئناف فيها، ولا نقض. الأمر الذي يضعف الثقة بحيادية تلك الأحكام، ونزاهتها، وسموّها عن الخطأ والهوى.

تجربة القضاء الموحد اقتصرت في التطبيق على المساحة المحررة من مدينة حلب وبعض ريفها فقط، ولم تكن عامة في كافة المناطق السورية

المحررة. لكن هذه التجربة، لم تلقَ الترحيب من بعض الفصائل المقاتلة (كالنصرة وأحرار الشام الداعمة للهيئة الشرعية)، لأن تلك القوى، لا تؤمن - أصلاً - بقانون وضعي مكتوب، حتى لو كان مستمداً من الشريعة الإسلامية! فهي والتقنين خصمان، لا يلتقيان، بل إن بعض الفصائل الداعمة له، سرعان ما حاربته، وأشهرت في وجهه السلاح، كلما تناقضت أحكامه أو أعماله مع مصالحها، ومع ما تراه هي صالحاً وصحيحاً، كما حصل مع تجمع «فاستقم كما أمرت»، الذي استولى بقوة السلاح على مقر مجلس القضاء الموحد الذي كان يخضع لحمايته. وذلك وسط صمت، يعبّر عن الرضى من الفصائل الأخرى، ومن الهيئة الشرعية، التي لم تدعم القضاء الموحد أصلاً؛ لأن لديها مشروعها القضائي الخاص. لذا؛ أعلن مجلس القضاء الموحد على إثر ذلك، أي بتاريخ ١٨ تشرين الثاني ٢٠١٣، تعليق أعماله، بشكل كامل، ولا يزال التعليق مستمراً.

تألف مجلس القضاء الموحد، من هيئة عليا، من عشرة أعضاء، خمسة محامين وخمسة «قضاة» شرعيين. مهمة الهيئة تعيين القضاة، وتسيير عمل المجلس. وهي كانت تتخذ قراراتها بالأكثرية، ويتناوب على رئاسة المجلس دورياً كل شهر، «قاضٍ» شرعي ومحام، بينما كان يرأس المحكمة «قاضٍ» ومستشارين، وتصدر الأحكام بالأكثرية. وضم المجلس: الديوان، التفتيش القضائي، المحاكم (نيابة عامة، قضاء تحقيق، بداية مدنية، صلح مدني، بداية جزاء، صلح جزاء، جنايات، محكمة عسكرية، أحوال شخصية. وفي ما بعد، شُكّلت محكمة النقض). وتلحق بالمحاكم - أيضاً - دوائر: المحاسبة، الإعلام، الشرطة القضائية، وإدارة السجن.

لكنْ؛ بعد مدة وجيزة، سيطر الشرعيون على المجلس، بدعم من الفصائل العسكرية، وبتقاعس بعض المحامين. وبدأت الأخطاء تظهر هنا وهناك، نتيجة قلة معرفة الشرعيين، بالقضاء، وانفرادهم، بقرارات، ترضي الفصائل العسكرية التي تواليهم، ويوالونها. وظهر الشقاق مع المحامين. وبعد محاولاتهم الفاشلة لإعادة النظر بالمجلس، وإعادة هيكليته، اضطروا

للانسحاب من مجلس القضاء الموحد الذي تابع هذا عمله بمَن بقي فيه من الشرعيين، وقلة من المحامين. وضل المجلس يتخبّط بأحكامه وسط انفضاض ألوية كثيرة عنه، وتوجّهها إلى الهيئة الشرعية. وهكذا فقدت أحكام المجلس القوة التنفيذية، لفقده القوة الداعمة له. ثم ما لبث أن انهار انهياراً كاملاً نهاية عام ٢٠١٣، فانتقل المحامون الذين كانوا يعملون فيه كقضاة، إلى الهيئة الشرعية.

ومن الانتقادات لعمل المجلس القضائي أن معظم قراراته كانت تطبّق على المدنيين فقط، وعلى قلة قليلة من العسكريين، لأن الكتائب لم تكن ترضخ لقرارات المجلس، في كثير من الأحيان. كما أن حكم الإعدام لم يكن يُطبّق؛ لأنه يتطلب تصديق الحاكم، ولا وجود للحاكم.

ب. الهيئات الشرعية الإسلامية

بعد سيطرة قوى المعارضة على أجزاء من مدينة حلب، وتكاثر الكتائب المقاتلة في الأحياء المحررة، تضاربت ميول الكتائب وآراؤها وأهواؤها في أساليب إدارة هذه الأحياء، كما تضاربت توجهاتها السياسية. الكتائب التي تعتنق العقيدة الإسلامية، كجبهة النصرة ولواء التوحيد وأحرار الشام ونسور الشام وصقور الشام، تحالفت في ما بينها لإدارة الأحياء التي تسيطر عليها. فنجم عن تحالفها إنشاء «هيئة شرعية» من قيادات هذه الكتائب. وشرعت الهيئة في فرض أحكامها في الحياة العامة. وحاولت التحكم بمفاصل الحياة الاجتماعية، وإدارة الخدمات، كأن تُلْزِم القوى والهيئات الأخرى في الأحياء المحررة بأن تتولى هي، أي الهيئة الشرعية، إدارة الخدمات العامة وتوزيع المساعدات.

بالرغم من رفضها المشاركة في انتخابات المجلس المحلي، وأن يتولى مدنيون الإدارة المحلية، وخصوصاً في المناطق الواقعة على خطوط التماس مع الجيش النظامي، فإن الكتائب الإسلامية المتحالفة وهيئتها الشرعية، عزفت عن فرض أحكام الشريعة الإسلامية على السكان فرضاً متزمتاً، وخصوصاً في مناطق الكرد، وأحيائهم.

دعت الهيئة الشرعية النساء إلى أن يكنّ أكثر احتشاماً. لكن أشكال الدعوة هذه اقتصرت على التوجه إلى النسوة بالإرشاد في الشارع وفي أماكن العمل، كي يلتزمن آداب الحشمة في مظهرهن وملبسهن.

محاولة الهيئة الشرعية التحكم بالشؤون والخدمات العامة، أثارت سخط جماعات من الأهالي، بعدما نشبت نزاعات بين الهيئة الشرعية الإسلامية وهيئة القضاء الموحد، التي أنشأها ناشطون مدنيون غير إسلاميين.

بدأت النزاعات بين الطرفين، عندما أقدمت الهيئة الشرعية على إرسال وحدات إسلامية مقاتلة إلى المبنى الذي اتخذته هيئة القضاء الموحد مقراً لها، فاحتلته، واعتقلت أربعة محامين من الهيئة، وطردت باقي أعضائها. لم تتوقف أعمال الهيئة الشرعية عند هذا الحد، بل أقدمت - أيضاً - على السيطرة على مستوصفات وعيادات طبية، أنشأتها الهيئة الصحية التابعة للمجلس المحلي، وطردت الكادر الطبي العامل فيها، وسلمت إدارتها لأطباء موالين لها.

وبما أن الخدمات الطبية ضرورة أساسية للسكان، وتؤدي السيطرة عليها إلى كسب ولائهم، أقدمت قوة مقاتلة تابعة للهيئة الشرعية، على احتلال مستشفى جديد، أنشأته هيئة المجلس المحلي الصحية، بالتعاون مع منظمة أطباء بلا حدود. جرت عملية الاحتلال بعد تجهيز المستشفى وتأمين الكادر الطبي اللازم لتشغيله الذي كان سيبدأ فور تأمين مولد للطاقة الكهربائية للمستشفى. لكن الهيئة الشرعية لم تتخلّ عن احتلالها المستشفى؛ لتسلمه إلى هيئة المجلس المحلي الصحية، إلا بعد تدخّل عدد كبير من الوسطاء وأعيان المدينة.

ت. قضاء عشوائي شبه عسكري

مع بداية النصف الثاني من العام ٢٠١٢، تشكّلت الهيئة الشرعية من الفصائل العسكرية الأبرز في حلب (أحرار الشام والنصرة ولواء التوحيد)، وجعلت رئاستها بالتناوب بينها. ونصبت نفسها سلطة قضائية، بقوة الأمر

الواقع، واستحدثت سجوناً ومراكز توقيف، وما يشبه شرطة القضائية، تعمل على إنفاذ قراراتها. الشرطة هذه تتكون من عناصر مسلحة من القوى العسكرية المشاركة في الهيئة التي سرعان ما اضطلعت، بمهام غير قضائية، فأنشأت مكاتب لشؤون الإفتاء، وأخرى لشؤون العلم والتعليم، فضلاً عن المكاتب الخدمية والطبية، وكأنها نواة دولة بديلة. وهذا أخذت تدير شؤون الناس على مختلف المستويات بآليات قهرية، لا تختلف كثيراً عما ثار عليه السوريون بحثاً عن الحرية والكرامة.

لم يكن للقضاء في الهيئة الشرعية أيّ هيكلية، بل تحكّم به مشايخ، لم يكونوا - بالضرورة - مجازين في الشريعة. وكانت الكلمة الأولى في القضاء لسجناء صيدنايا السابقين. والأحكام تصدر على قصاصات ورقية، يوقعها أبو فلان، أو سواه من الأبوات. ولم يكن يذكر في القرار، لا أسبابه، ولا على ماذا بني، ولا المراحل التي مرت بها الدعوى. وكانت الأحكام صارمة ومجحفة.

يحضر المتهم معصوب العينين ومكبل الأيدي، ويجلس جاثياً على ركبتيه أمام القاضي (الشيخ) الذي يتولى التحقيق والبتّ بالدعوى وتنفيذ الحكم. وتصدر الأحكام، وتُنفّذ سريعاً. وغالباً ما كان يُحضر المتهم، ويصدر في حقّه الحكم، من دون أن يمثل أمام القاضي.

وبعد فترة وجيزة، تم الاستعانة ببعض المحامين الذين كان لهم أثر في تقسيم القضاء داخل الهيئة، وجعله على مراحل، فأصبحت الهيكلية على النحو التالي:

- رئيس الهيئة، وهو - دائماً - مندوب من أحد الفصائل التي تشكّلت منها الهيئة، وللرئيس نواب أيضاً.
- المكتب الإداري للهيئة، يدير شؤون العاملين فيها.
- المكتب القضائي، مهمته التفتيش وتعيين القضاة.

- الديوان الذي يختص بتقديم الشكاوى وتسجيل الدعاوى والقرارات.
- النيابة العامة التي تتلقى الدعاوى الجزائية من الديوان، وتوصّفها، وترسلها إلى القاضي المختص.
- قضاء التحقيق الذي يتألف من رئيس القسم والمحققين، وكلهم محامون، يتولون التحقيق مع الموقوفين، ويملكون قرار التوقيف، ولا يملكون قرار الإخلاء.
- القضاة العسكريون، والذين يحققون في الدعاوى الجزائية.
- القضاء المدني، وينظر في الدعاوى المدنية.
- قضاء التمييز، والذي كان بمثابة محكمة نقض.

ث. القضاء العسكري للواء التوحيد

قام لواء التوحيد بتشكيل القضاء العسكري الخاص به، وبدأ هذا القضاء عمله المختص بمحاكمة العسكريين التابعين له. لكنه ما لبث أن تحول قضاء، يحكم في كل النزاعات، سواء بين مدنيين، أو عسكريين. ثم أصبح قضاء مستقلاً، بذاته، له هيئة حاكمة، ومحققون، وشرطة، وإدارة سجن.

ج. ضياع العدل

غالباً ما يتولى مشايخ بلا درية، باستنباط الأحكام من الشريعة، إصدار الأحكام الجزائية في الهيئة الشرعية. وكثيراً ما كانت تصدر الأحكام متضاربة في الجريمة نفسها. ولم يكن في الهيئة شيء، اسمه الاستئناف.

أما أحكام الإعدام؛ فكانت تُنفَّذ، بسرعة، وفي أكثر الأحيان، بسرية، من دون دراية أهل المعدوم. وكثيراً ما كان يعاني الأهالي في معرفة مصير أبنائهم.

حاول المحامون دمج الهيئة الشرعية مع مجلس القضاء الموحد، وقدموا ورقة عمل لذلك. لكن المفاوضات التي استمرت طويلاً بين الطرفين، لم تنجح؛ لأن الهيئة الشرعية لم تكن جادة في الاندماج.

أبرز نقاط الخلاف بين الهيئة الشرعية ومجلس القضاء الموحد، تنحصر في مسألتين:

- يزعم مجلس القضاء الموحد أنه يسعى لجعل مؤسسة القضاء بنية مستقلة عن الفصائل المسلحة، فيما تشكلت الهيئة الشرعية، بقرار من تلك الفصائل. وينتقد المجلسُ الهيئةَ الشرعية؛ لأنها تحولت مؤسسة خدمية أكثر منها قضائية، وهي تخضع لقرارات الفصائل.
- تأخذ الهيئة الشرعية على مجلس القضاء الموحد أنه اعتمد تطبيق القانون السوري الوضعي. ودعا لإشراك القضاة المنشقين، بالعمل القضائي. وهذا ما ترفضه الهيئة الشرعية.

الفصل الرابع
يوميات ورسائل
من حلب الشرقية والغربية

عزيز تبسي، وفؤاد محمد فؤاد

١- يوميات التحرير... والنهب الشرعي

عزيز تبسي

أ. اليومية الأولى

كنت منهمكاً بأعمال نجارة ديكور لمحل الشاب الكردي حنّان، عندما دخل علينا حنّان متعباً ومحبطاً، فأبلغني بضرورة التوقف عن العمل. استغربت طلبه، وحين استفسرت منه، عن السبب، قال: «جماعتنا، باعت الشيخ مقصود»، وقصد، بجماعتنا، «حزب العمال الكردستاني». وبعدما أشعل سيجارة، قال أيضاً: «لم يعد أمامنا إلا الرحيل».

قبل ذلك بأسبوع أو أكثر، انتشرت روايات أو إشاعات عن ترقّب دخول الكتائب المقاتلة إلى حي الشيخ مقصود، لكن الوقائع كانت تكذّبها، على الرغم من احتقان الأجواء في الحي نتيجة التوتر في المدينة. وما كان يزيد التوتر، هو انقسام الحي انقساماً واضحاً بين العرب والأكراد. فالشيخ مقصود يسكنه خليط من السكان: العائلات المسيحية العربية تقيم في الشوارع الموازية لسكّة القطار. ويتدرج الاختلاط بين العرب والأكراد وقليل من التركمان، وصولاً إلى دوائر سكن الأغلبية الكردية، ومنها تخرج كل بضعة أيام تظاهرة لـ«حزب العمال الكردستاني»، فيحمل المتظاهرون صوراً لعبد الله أوجلان، ويهتفون له، بالكردي، من دون أن ينادوا بإسقاط النظام. نراهم محميين ومنضبطين، كأن التظاهرة متفق عليها بينهم وبين السلطة، وما من جهة أمنية تعترضهم، أو تمنعهم. وبعد تظاهرتهم التي لا تستغرق عادة أكثر من ربع الساعة، يتفرقون مع أعلامهم ولافتاتهم. في ناحية أخرى من الحي، تخرج كذلك تظاهرة أغلب المشاركين فيها تعود أصولهم إلى الأرياف

الشمالية، كقريتي بيانون وعندان. يهتفون بإسقاط النظام، ويتواجهون مع الشبيحة، بصدامات عنيفة.

بعد أيام، استيقظت في الخامسة صباحاً، على أصوات لقذائف الهاون الهادرة. كانت قذائف غير عادية، غير عادية، لأن العادية كانت تصلنا، من وقت إلى آخر، من حي بستان الباشا، الواقع تحت سيطرة الكتائب المقاتلة.

قررت حلاقة ذقني، ربما لإقناع نفسي، بأن ما يحدث أمر عادي، كما في الأشهر الماضية، بعد عملية منتصف تموز٢٠١٢، المعروفة بعملية «تحرير حلب». قلت يجب التكيّف مع ما يحدث، بطريقة ما، كأي قدر يحاصر حياتنا ويتربّص بها. بعدما حلقتُ ذقني، خرجت إلى الشرفة. ما إن نظرت نحو الشارع، حتى أتاني صوت حاد من شاب ملثم: «ادخل لجوه ولاك». كان يقف مع مجموعة من المسلحين الملثمين. رأيت الناس في حال نزوح، حاملين حقائبهم وأكياساً، يضعون فيها حوائجهم، وكان بعضهم في ثياب النوم.

دخلت مسرعاً إلى البيت، وبدأت أتذكر ما حصل مع أصدقائي في حيي بستان الباشا ومساكن هنانو. حرت أياً من الأشياء التي أريد حملها معي، فأنا لا أملك ذهباً، ولا أموالاً. فكرت في الأورغ الكهربائي، وهو أثمن ما أملك. في الأثناء، سمعت صوت انفجار قذيفة في العمارة المجاورة، ثم صوت رجل موجوع: «الحقوني»، تلته أصوات جماعية، تطلب سيارة إسعاف.

حملت الأورغ على ظهري، ونزلت الدرج ملتحقاً بالقافلة البشرية المتجهة نحو الشيخ مقصود غربي؛ حيث الطريق سالكة نحو منطقة عفرين وريف حلب الشمالي. أودعت الأورغ عند صديقي الكردي عارف، ومضيت إلى بيت صديقتي نسيبة النازحة مع عائلتها من حي الشيخ خضر، والمقيمة في مدرسة أنيس منصور. طلبت من ابنها، الذي يعمل معي في النجارة، مرافقتي إلى البيت، عليّ أستطيع إخراج بعض الأغراض الكهربائية الخفيفة الوزن، مثل مضخم الصوت، جهاز ميكروبيف، وخلاط فواكه، سخان كهربائي، أي ما نستطيع حمله والسير به في الطريق الوعر.

قرأت في سلوك شبان الكتائب المقاتلة، رغبة في تسهيل عملية الخروج من الحي، حتى إنهم كادوا يطالبون الناس، بإخلاء بيوتهم، وأبلغوهم، بعجزهم عن حمايتهم. اقتنع الناس بغريزتهم الطبيعية بأن ذلك ينطوي على نية مبيته لسرقة البيوت والمحلات والورش.

لطالما تساءلت عن قيمة عملية التحرير، ومعناها، في أثناء سيري الطويل في الطريق إلى بيت أخي الذي يسكن في حي بستان القصر، والى بيوت أخواتي الموزعة بين حي الكلاسة وصلاح الدين. وهذه من أحياء حلب المحررة. فما قيمة التحرير، ما دام المحررون لا يستطيعون حماية المحررين، بل لا يرغبون؟ مَن هم إذاً، الذين تحررهم الكتائب المقاتلة؟ ولماذا التحرير، برمته، إذا كان مَن يعمل على تحقيقه، عاجزاً عن السيطرة على نتائجه؟ تذكرتُ أسماء المحررين الكبار الذين قرأت سيرهم في مرحلة من شبابي، حينما كنت مقرباً من خلايا يسارية على مذهب ماو تسي تونغ وهوشي منه وأرنستو تشي غيفارا. ها أنا أعبر حواجز المقاتلين التي تظهر في عيونهم ونطقهم آثار حبوب «البالتان» و«الكابتوكان». عيون بعضهم تتحرى عن طرائد بشرية، لخطفها، وقتلها، أو طلب الفدية من أهلها، وعيون أخرى تحدّق في البيوت والسيارات، لسرقتها.

خرج موضوع التحرير، من قناعاتي، على الرغم من كل ما قيل، ويقال عنه. ربما لأنني اختبرت بعضاً من نتائجه قبل وصول طلائعه إلى الحي الذي أسكن فيه، حينما كنت أعبر من منطقة السكن الشبابي في حي الأشرفية، متجهاً في سيارة السرفيس إلى الكاستيلو؛ حيث بيت أختي المقيمة في حي سيف الدولة، أو حينما كنت أجتاز معبر بستان الرز، متجهاً نحو بيت أخي في بستان القصر. في منطقة السكن الشبابي، رأيتُ كيف كانوا يفكّكون أثاث البيوت، ويفرزونها، ويجمعونها على الأرصفة، منتظرين وصول التجار والسماسرة لتخمين سعرها وشرائها. يفكّكون الأبواب، النوافذ، البورسلان، الأبواب، الرخام، الدربزونات، مفاتيح الكهرباء، ويسحبون الأسلاك الكهربائية من داخل تمديداتها في الجدران، بعد نزعهم صنابير

المياه في المطابخ والحمامات. بعد إتمام عملية بيع هذه الأشياء، كانت تُرحّل إلى دوار حي الحيدرية، ومن هناك، يرحلها المشترون بشاحنات في اتجاه الريف الشمالي، أو نحو المدن الساحلية؛ حيث نشطت حركة البناء، لتلبية إسكان النازحين من حمص وحلب وإدلب.

ب. اليومية الثانية

لم أقبل النوم في بيت صديقي الكردي عارف، على رغم إلحاحه وتأكيده أنه وحيد، والبيت كبير، ويمكنني أن أستقلّ، بغرفة وحدي. فضّلت النوم في دكان مهجورة، كأنني قررّت طي صفحة من حياتي الرائقة، والتهيّؤ للدخول في عالم المكابدة. لم أنم في هذه الليلة. سمعت سأسأة الجرذان حولي، شعرت بحركتها فوق البطانية القذرة التي التففتُ بها، وسط دوي انفجارات القذائف في العمارات المجاورة، وأصوات تحطم زجاج نوافذها. لكنني غفوت - أخيراً - لساعة قبل أول الصباح.

في الصباح، ذهبت إلى بيت عارف الذي كان يحزم أغراض بيته، يجهّز الحقائب، ويضع الأغراض في صناديق، ويلفّها بشرائط لاصقة. أعددنا قهوة على شمعة، لأنه كان قد فك البتوغاز وأنبوبة الغاز، وهيّأهما للنقل. انتظرنا الشاحنة التي ستنقلهم إلى بلدته جنديرس. ساعدته في تحميل العفش، ووضعت الأورغ الكهربائي في الشاحنة، ثم عدت إلى بيتي. تفقّدته، وأخرجت بعض الأغراض. ظهرت على بوابات الحديد للدكاكين، أسماء الكتائب المقاتلة مكتوبة ببخاخ أسود: «غرباء الشام»، «أحرار الشام»، «جبهة النصرة»، «أحرار بيانون». تحدثت مع بعض الشبان المسلحين، محاولاً قدر الإمكان، الاستيضاح عن نياتهم تجاهنا وتجاه بيوتنا. تبين لي أنهم لا ينوون حمايتنا، بل يسعون في ترحيلنا، ودفعنا لمغادرة الحي إلى مناطق سيطرة الجيش النظامي، أو إلى الأرياف.

كان شاغلهم الملح منح أصحاب البيوت وسكانها ورقة «إخراج عفش» مجاناً، على عكس الورقة التي يمنحونها لإخراج محتويات الورش والدكاكين،

لقاء دفع أصحابها ضريبة للمحكمة الشرعية. تبدأ الضريبة بـ٢٥ ألف ليرة سورية، وتصل إلى مائتي ألف ليرة، لترحيل آلات الورش وموادها الخام، وسلع الدكاكين.

التقيت في الطريق مجموعة من أصدقائي ومعارفي. كانوا عائدين مثلي لإخراج بعض من أثاث بيوتهم. سمعت منهم أخباراً عن السرقات التي ابتدأت بمحلات الصاغة والسيارات الفخمة والمستودعات، والأموال والذهب المدّخر في البيوت. اعتمدت الكتائب المقاتلة على مرشدين من الحي سرعان ما تعاونوا معها، أو نسَّقوا معها قبل الدخول، وأعلموها بمواقع الأماكن المطلوب سرقتها، وعن بيوت العائلات الغنية، وبعض المعامل الكبيرة، مثل معمل «حنين» لإنتاج الألبسة القطنية الداخلية، ومعمل «بحادي» لصناعة الموبيليا والأثاث المنزلي، ومتاجر أخرى كبيرة، تبيع الأثاث المنزلي والأدوات الكهربائية والإلكترونية.

الكتائب المقاتلة لا تدقّق في الداخلين إلى البيوت والخارجين منها. فكل صاحب بيت يأتي بشاحنة، وينزل عفش بيته، ويسرق من عفش بيت جيرانه ما يحتاجه. آخرون يدّعون أن البيوت بيوتهم، بعد تيقّنهم من مغادرة أصحابها، فيأتون بشاحنات، يحمّلون فيها الأثاثات، ويمضون لبيعها.

ظلت الأوضاع في الأيام الأولى على حال من الفوضى التي سوّغت السرقات، ووسعتها. كثيرون من أصحاب البيوت فضلوا السلامة الشخصية على أثاث بيوتهم، فخرجوا مع عائلاتهم بثيابهم وبعض متاعهم وأموالهم وذهبهم. فوجئتُ بالشاب زياد غزال في موقع رئيس كتيبة «غرباء الشام»، بعدما كان يملك بسطة دخان، ويبيع حبوب المخدرات والهلوسة، ويعلم سكان الحي أنه عميل لأحد أفرع المخابرات. استولى على دكان كبير، وجلس فيه خلف طاولة، وحوله مجموعة من المسلحين. يتصل كل حين بالمحكمة الشرعية و«جبهة النصرة» و«أحرار الشام»، لتسوية مشاكل مالية، وللاستفسار عن مسائل أمنية. كان من السهل إطلاق تهمة «شبيح» على أي صاحب ورشة، أو مستودع، أو بيت فخم لاستباحتها.

دخلت العمارة، فوجدت أبواب بيوتها الخشبية كلها محطمة، سوى بيوت الذين وضعوا بوابات حديد، قبل بضعة أشهر، لكنني لاحظت آثار أدوات الخلع على أقفال بوابات الحديد.

دخلت بيتي من بابه المكسور، فانتبهت - فوراً - لغياب مروحة السقف وجهاز التلفزيون. لم أتفقّد باقي الأثاثات، أنا مَن لم أعرف لماذا أتيت إلى بيتي، ما دمت لا أملك أجرة سيّارة سوزوكي لنقل أثاثاته، وليس من مكان آخر، يمكنني إيداعهم فيه. الأثاثات قديمة في معظمها، وبعض الأدوات معطلة، مثل الغسالة الأوتوماتيكية. لكنها أثاثات بيتي التي اشتريتها قطعة قطعة، وعجزت عن استبدال القديمة والمعطلة منها بأخرى جديدة. لكنني - في المقابل - وجدت في بيتي أغراضاً، ليست لي، ولم أشترها يوماً، فأدركت أن اللصوص اعتمدوا بيتي مستودعاً مؤقتاً، لحين تأمين زبائن لمسروقاتهم. بحثت عن كيسي نايلون، وضعت فيهما بعض الألبسة الضرورية، فحملت الكيسين، وخرجت.

ت. اليومية الثالثة

قضيت ليلتي عند صديقي الذي يسكن في حي السليمانية، استيقظنا في الصباح، فأعدَّ لي القهوة، وجلسنا؛ لنشربها قرب مدفأة الحطب. كنا قد سهرنا معاً على الشموع؛ لأن لا كهرباء في المدينة، منذ ليلة تحرير الشيخ مقصود.

اتصل بي هاتفياً طبيب الأسنان محمود جوخدار، وهو صديق جميل، أنيس، وكريم. اطمئن على أحوالي، واستفسر إن كنت لا أزال في البيت. اغتنم الفرصة؛ ليطمئن على عيادته، وهي شقة في الطابق الأول من عمارة سكنية قريبة من بيتي، فأبلغته بأنني لست في البيت، وأكدت له أن عيادته كانت سليمة حتى البارحة؛ لأنها محمية بباب حديد متين. سألني عن إمكان نقل محتوياتها إلى المنطقة الغربية من حلب؛ حيث يسكن. اتصل بي صديقي جورج فرواتي، وهو صاحب ورشة لصناعة الألبسة النسائية.

كنا نسهر معاً في بيتي مع مجموعة من الأصدقاء، وأحياناً نذهب في رحلات إلى نهر الفرات لصيد السمك. استفسر مني كذلك عن إمكان نقل محتويات مصنعه.

كان هذان الاتصالان الهاتفيان البوابة التي عبرت منها إلى عمل جديد: نقل محتويات الورشات من حي الشيخ مقصود إلى المنطقة الغربية من حلب.

تواعدت معهما، فالتقينا، وتبادلنا المعلومات عن طرق النقل ودور المحكمة الشرعية والكتائب المسيطرة على حي الشيخ مقصود، وعن الطرق التي سنسلكها، والكتائب التي ستصادفنا. تبيّن لي أنهما يملكان مجموعة مهمة من المعلومات عن الأوضاع في الحي، على الرغم من انقطاعهما عن الذهاب إليه منذ عملية التحرير.

ث. اليومية الرابعة

استيقظت باكراً، واتجهت من فوري إلى معبر بستان القصر. في سيارة سرفيس، انتقلت نحو المعبر الآخر في بستان الرز، كان جورج فرواتي، قد زوّدني بالمال اللازم لإخراج محتويات مصنعه للألبسة، وأعطاني مفاتيحه. سألت عن مقر الهيئة الشرعية في الحي، فعلمت أنه في دكان كبير تحت عمارة قريبة من السوق. بعد انتظار طويل، حصلت على «ورقة شرعية» من مسؤول المحكمة الشيخ سعيد، وهو شيخ شاب لطيف، عمل على تسهيل معاملات الناس. مضيت مع السوزوكي إلى المصنع الذي أعرفه، وبدأت بتحميل ماكينات الخياطة والأقمشة بمساعدة عتّالين. بعد ذلك، انطلقنا - بعدها - في الطريق إلى الشيخ مقصود غربي، ومنه نحو الكاستيلو الواقع تحت سيطرة كتيبة جديدة، اسمها «كتيبة شهداء بدر»، المعروفة باسم زعيمها خالد حياني، ثم تابعنا طريقنا بعدما دفعنا لحاجزها ٢٥ ألف ليرة، متجهين نحو طريق دمشق، للوصول إلى حلب الغربية؛ حيث كان جورج فرواتي ينتظرنا مع صديقه سائق السوزوكي عبد العزيز.

بينما كان العتّالون ينزلون الماكينات إلى الورشة الجديدة التي استأجرها جورج فرواتي، عرفني على عبد العزيز، عارضاً عليّ نقل محتويات ورشة جديدة لشاب، اسمه ميشيل مصري. عبد العزيز وهو شاب وسيم وأنيق، وذو بنية عضلية رياضية، وتبين لي أنه على خبرة بالكتائب المقاتلة ومواقعها وآليات التفاهم معها. أخبرني بأنه يتقاضى ١٠ آلاف ليرة على النقلة الواحدة. اتفقنا على العمل معاً، واستفسرت من جورج عن ميشيل مصري، فقال لي إنه سيأتي بعد دقائق، ويعرفني عليه. كان ميشيل شاباً في حدود الثلاثين من العمر، متحمّساً للعمل، يفيض نشاطاً وحيوية في حركاته وكلامه ولباسه الأنيق الزاهي الألوان. أتقن عمله في صناعة المعجّنات والحلويات الإفرنجية، وتسويقها، وهو يريد نقل محتويات محله من الشيخ مقصود؛ ليبدأ العمل، من جديد، في مكان آخر.

ج. اليومية الخامسة

لم يخطر ببالي، أنني سأتحول - في بضعة أيام - من عاطل عن العمل، إلى ممارسة عمل جديد، بعوائد مالية مجزية، تفوق بكثير دخلي من النجارة التي تعلمتها في يفاعتي. العمل الجديد هو حصيلة أولية لمجموعة من العناصر: خشية المسيحيين من المخاطرة بأرواحهم، خوفاً من الخطف على الهوية الدينية، أو استغلال وضعهم كمسيحيين لفرض إتاوات عالية عليهم. هذا إضافة إلى حاجتي وحاجة أسرتي إلى المال. بعض المسيحيين من أصحاب الورشات والمعامل والمستودعات، غامروا بالذهاب إلى المناطق التي سيطرت عليها الكتائب المقاتلة، لنقل ورشاتهم ومستودعاتهم. منهم مَن نجح في ذلك، وأعاد تشغيل معمله، أو ورشته، لكن كثيرين خطفوا، ولم يُعرف مصيرهم حتى الآن.

ذهبت مع عبد العزيز إلى الشيخ مقصود، وتوجّهنا مباشرة إلى مقر الهيئة الشرعية في الحي. حصلنا على ورقة لإخراج ورشة ميشيل مصري، فمضينا إلى الورشة، وباشر العتّالون تحميل محتوياتها في السوزوكي. فجأة وصل شاب من أبناء الحي، متعاون مع «جبهة النصرة» أو مع أحد

عناصرها، فطلب مني تفريغ السيارة، على الرغم من أنني أعطيته الورقة التي حصلت عليها من الهيئة الشرعية. قال إن الورشة مصادرة. وحين دقّق في اسم صاحبها ميشيل مصري، صرخ: «وكمان صاحبها مسيحي؟! هادا دمو حلال، مو بس ورشتو». صمت قليلاً، وقال: «بدنا صاحب الورشة، يجي لهون»، قبل أن يطلق - أخيراً - تلك العبارة التي صارت على ألسنتهم، بلا معنى: «يمكن صاحبها «شبيح». لكم صارت كلمة «شبيح»، بلا قيمة، وبلا دلالة، ولا معنى، مثل كلمة «عميل» التي أفاض في استعمالها البعثيون. لو توفرت لي بعض الحرية، لقلت له، بوضوح: إن أغلب الكتائب المقاتلة وقياداتها في الشيخ مقصود - على الأقل - هم من الشبيحة والزعران والحرامية والمخبرين.

قادني الشاب إلى مقر الهيئة الشرعية، فاحتجزوني في المقر. انتابني خوف شديد، وحسبت أنهم سيقتلونني، لكنهم أطلقوا سراحي بعد نصف ساعة من الرعب، أمضيته في قبو العمارة المظلم. لم تقبل الهيئة الممثلة برئيسها الشيخ أبو سعيد رأيي ومحاججاتي، وانحازت إلى طرف الشاب الذي يمثل «جبهة النصرة». مزق الشيخ الورقة، وطلب مني إحضار صاحب ورشة الحلويات، ليأخذ محتويات محله بنفسه. عدت مع عبد العزيز إلى حلب الغربية، بعدما دفعت أجور العتّالين مرتين، مرة للتحميل، ومرة للتفريغ. أهدرنا يوماً من دون أي نتيجة، وخشينا في طريق العودة الطويل أسئلة الحواجز، واشتباههم بنا، لأن «السوزوكي» فارغة من الحمولة. قرأت على جدران الفيلات في قرى كفر حمرة وبابيص ومعارة الأرتيق، عبارات مكتوبة بالبخاخ: «الحل الوحيد هو الخلافة الإسلامية» و«خبر عاجل: أصبح اسم نبل والزهراء، عمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق»، في إشارة لتغيير اسمي القريتين الشيعيتين في ريف حلب. وقرأت - أيضاً - أسماء الكتائب: «جبهة النصرة»، «كتائب أبو عمارة»، «لواء التوحيد»، «أحرار الشمال»، و «نور الدين الزنكي».

الحق أن الهيئة الشرعية شريك أساسي في السرقات وعمليات التصفية

التي كانت تحصل للمعتقلين والمخطوفين. وختم الهيئة ممهور على الوثائق التي سوّغت كل الأعمال الشائنة في حق الناس والمدينة.

ح. معبر بستان القصر

بعد شهرين من عملية تحرير حي الشيخ مقصود، عملت فيهما مع عبد العزيز في نقل الورشات والمستودعات، قمت بمفردي ببعض الأعمال الخاصة، كنقل تجهيزات عيادة الدكتور محمود جوخدار على مراحل، وكذلك الأدوية من صيدلية حكمت غريواتي.

بعد هذين الشهرين، جرت تحولات نوعية في العمارات والشوارع، بدأت بتفكيك عدادات المياه، لصهر النحاس الذي في داخلها. ثم نُزعت أسلاك الكهرباء والكابلات التي تربط بين الشوارع، والتي في داخل العمارات لصهرها نحاساً خاماً. أما الأغطية المعدنية التي تغطي الفتحات المركزية لمجاري الصرف الصحي؛ فقد سُرقت مع مقاعد المدارس وأبوابها. هذه السرقات للأملاك والتجهيزات العامة، أذنت بنهاية عهد سرقة البيوت والعيادات والمكاتب والورش والمعامل والمستودعات؛ اذ لم يبق فيها ما يُسرق. لذا؛ بدّلت عملي، فصرت أنقل، عبر معبر بستان القصر، المواد الغذائية بين حلب الشرقية المحررة، وحلب الغربية التي يسيطر عليها الجيش النظامي.

يقع المعبر بين حي بستان القصر و حي المشارقة. شعبياً أُطلقت عليه تسمية «معبر رفح»، تذكيراً بالمعبر الشهير الذي يفصل بين قطاع غزة ومدينة العريش المصرية في سيناء.

يتم الوصول إلى المعبر، من طريق «كراج الحجز»، وهو كراج واسع تابع لإدارة المرور في المحافظة، وكانت تُحتجز فيه آليات النقل المخالفة. بعد الكراج، نصل إلى مدرسة «الطلائع الثورية». هناك نجد هيكل حافلة نقل حوله أكياس الرمل. بعد اجتياز المدرسة ندخل حي بستان القصر، ومنه يمكن الذهاب إلى حي الكلاسة، أو حي السكري، أو ركوب سرفيس

للذهاب إلى الأحياء البعيدة. يرصد الجيش النظامي المعبر من مواقع عالية، ويحرس مواقعه المدافع والرشاشات، وقناصون محترفون موزعون في مبنى القصر البلدي، وحي الإذاعة، وجامع الرئيس.

أدون على ورقة طلبات الأصدقاء والمعارف، وأمضي - بعدها - إلى هناك. أعبر في البداية حاجز الحرس الجمهوري في حي المشارقة. لا يدقّق عناصر الحاجز في هويات العابرين، من حلب الغربية، إلى حلب الشرقية، فتسهل عملية العبور. لا أبتعد كثيراً في أحياء حلب الشرقية، على الرغم من علمي بأن أسعار المواد الغذائية أرخص في أحيائها العميقة أو البعيدة من المعبر. أتسوّق من أول سوق بستان القصر، وأعود مسرعاً إلى حي المشارقة؛ حيث ينتظرني بعض الأصدقاء في سياراتهم، فيحصلون على طلباتهم، ويحاسبونني. بعد ذلك، أعود؛ لأتسوّق لبيتي. بعد المرور على حواجز الكتائب المقاتلة، نجتاز منطقة خالية من الحواجز، لنصل إلى حواجز الجيش النظامي التي تبدأ من جامع حذيفة بن اليمان. حاجزهم الرئيسي يتقاضى ألف ليرة على كل عربة من دون التدقيق بالمواد المنقولة. يقف هناك عسكري، وفي يده، أداة معدنية، تشبه المنجل، فيبدأ التهديد بتمزيق الأكياس لتفتيشها. لكنه سرعان ما يعدل عن تهديده، ويبدأ بقبض المال. إنها مسرحية هزلية، تعوّد عليها كل العابرين والعابرات.

من أخي الذي يسكن في حي بستان القصر، سمعت عن عبور قوافل الشاحنات ليلاً من المناطق التي تسيطر عليها الكتائب المقاتلة إلى المناطق التي يسيطر عليها الجيش النظامي. عجزنا عن تفسير الأمر، بغير كونه كناية عن تفاهم وثمرة اتفاق بين الطرفين، لتحصيل عائدات مالية كبيرة، تتقاضاها - يومياً - الحواجز المسلحة من الطرفين.

وقد تناوب على تسلّم المعبر من جهة حلب الشرقية المحررة، مجموعة من الكتائب المقاتلة، كـ«كتائب أبو عمارة»، و«جبهة النصرة، وصولاً إلى «داعش. كلها تساهلت في بداية أزمة حصار حلب الغربية، فسمحت

بنقل المواد التموينية، حتى انفردت «جبهة النصرة»، في الإشراف على المعبر، فأعدّت قائمة بالمواد التي يمنع عبورها نحو حلب الغربية: اللحوم على أنواعها، الطحين، التبغ، الحليب ومشتقاته، وكافة المحروقات والزيوت. أربك الأمر أعمال الناس الذين يعتاشون على هذه الأعمال، وسبّب بكساد المواد الغذائية في المناطق المحررة.

أما مرحلة سيطرة «داعش»؛ فهي الأسوأ والأخطر على الإطلاق. أوقد المقاتلون ناراً قرب الحاجز. حتى علب التبغ التي يعثرون عليها مع العابرين، أخذوا يرمونها في النار. ومَن يعثرون معه على أكياس لحوم، يمزّقونها، على الفور، ويدهنون وجهه وثيابه بها. حدّد «داعش» كمية المواد التي يسمح نقلها: كيلو غرام واحد من كل صنف، عدا عن الأصناف الممنوعة. صارت أعمال النقل مرهقة، وغير مجزية، وتنطوي على مخاطرة الذهاب إلى المعبر. حتى حمل كلغ واحد من البندورة، أو من من الباذنجان، صار ينطوي على مجازفة مرعبة حيال الحضور المرعب لرجال «داعش» الملثمين.

بعد مرحلة «داعش»، قررتُ التوقف عن العمل في نقل المواد الغذائية عبر المعبر. حسم قراري نهائياً، قنص بائع فراريج، لا يفصلني عنه على المعبر سوى سنتيمترات قليلة. رأيت الثقب في جبينه، وهو يسقط قربي إلى الأرض، فعجزت ومَن حولي عن إنقاذه.

٢- الكتائب المسلحة والأهالي

عزيز تبسي

كتب الشاب عمران القطّان هذه اليوميات بين شهر تموز وكانون الأول ٢٠١٢، وأبقاها في منزله في حلب، قبل أن يغادره على حين غرّة، ولم يعد إليه حتى الآن.

*****

أ. الرسالة الأولى

قررت تجديد ديكور محلي لبيع الألبسة النسائية الجاهزة في حي الهلك، بعدما توفرت لي فرصة شراء ديكور كامل من محل للألبسة في حي صلاح الدين، علمت - فيما بعد - أن صاحبه قد انضم إلى الجيش الحر. نقلت الديكور في مساء يوم الخميس بمساعدة صديقي المجازف، الذي أقنعني بضرورة نقل الديكور كاملاً في «حملة واحدة» معللاً ذلك، بعدم استطاعتنا دخول حي صلاح الدين في يوم الجمعة، حينما تجري التحضيرات الكبيرة للتظاهرات، بحماية المسلحين.

لن أنسى طريق عودتنا. كانت الطرق مقفلة بالحجارة وحاويات القمامة، وتجمع عشرات الشبان في مجموعات في الطرق وزوايا الشوارع، مطلقين الكلام العلني المعارض للسلطة. وهذا ما لم أكن أسمعه في منطقة سكني في حي الهلك، إلا بين الناس المتواثقين. الشعارات تملأ الجدران وعلم الاستقلال الذي اعتمد علماً للثورة، يرفرف في كل مكان.

أنهينا تحميل الديكور، ومضينا. في طريق العودة، جمد الدم في

عروقنا، ونحن نشاهد الحملة الأمنية والحافلات التي تحمل المسلحين وسيارات الدفع الرباعي، فاضطرنا إلى تغيير الطريق، وسلكنا طرقا فرعية، كنا نجهلها، لولا إرشاد صديقي للسائق.

بعد تركيب الديكور الجديد، وتعبئة المحل بالبضائع الجديدة التي اشتريتها، فاقت مبيعاتي التوقعات. أربكتني نقاشات الزبائن، المتسمة بالتوتر، والتي ترافقت - على الدوام - بتبادل التهم والشتائم والتخوين، وخشيت - دوماً الانزلاق - إلى مشاركتهم هذه النقاشات.

بالرغم من ذلك الوضع شديد التوتر، ظل الناس في انتظار وترقب، والأسواق التجارية في حال عمل كثيف، على غير عادة قبل شهر من رمضان، الذي صادفت بدايته في أواسط تموز ٢٠١٢. يتحدث الناس عن خطة للجيش الحر بنقل المعركة إلى المدينة، لكن الأغلبية لا تريد تصديق ذلك، فيما يتحضر الأهالي لأيام يعتبرونها سوداء، لأنهم سمعوا عن ممارسات الجيش النظامي والشبيحة في المناطق التي دخلها الجيش الحر في الريف الشمالي، وعجز عن حماية أهلها، بعد اضطراره، للانسحاب، وتركهم يواجهون مصيرهم الكارثي.

مزاج الأهالي من غير المهاجرين الريفيين، يميل إلى عدم دعم أي تغيير، ويعتبره ضرباً من المجازفة التي لا تُحتمل عقابيلها. قد يعود ذلك إلى الترسبات السلبية لتجربة الصراع المسلح مابين ١٩٧٩-١٩٨٢، بين جماعة الإخوان المسلمين والسلطة، ونتائجها التي امتدت لسنوات بعد ذلك.

توسعت التظاهرات في تشييع الشهداء في الأحياء التي تغلب الأصول الريفية على سكانها: صلاح الدين والصاخور؛ حيث وصل عدد المشيّعين - المتظاهرين إلى عشرة آلاف. في المناطق الشعبية، بدت الاستجابة مقبولة لدعوات إضراب الكرامة. كان للخوف دور، بذلك، ربما لأن المسلحين الملثمين هم مَن كُلف بنقل فكرة الإضراب إلى أصحاب المحلات، ونقلوها، بصيغ، تنمّ عن توعدات تهديدية وعقابية. لم يستجب أصحاب المحلات

لطلبات دوريات الأمن التي طالبتهم بضرورة فتح محلاتهم، متذرعين بعجزهم عن حماية أنفسهم من المسلحين الملثمين.

ب. الرسالة الثانية

سمعنا أصوات قذائف، لم نعتد سماعها، فيما مضى. حددنا جهتها بخبرة السكن الطويل في الحي، ولم نتيقّن مما حدث. تهامس الأهالي عن وصول مقاتلي الجيش الحر من الريف، وخوضهم معارك قاسية مع القوى الأمنية، وتطورت؛ لتتحول مع قوات عسكرية مدعومة بالدبابات. رأيت في الصباح آثار جنازير الدبابات على الإسفلت، وسمعت من شبان الحي عن سيطرة الجيش الحر على حي هنانو، بالكامل. رأيت الخوف في عيون الناس، وهم يخشون ردة الفعل على هذا التقدم العسكري. شاهدت أثناء نزولي إلى وسط البلد دورية أمنية، تدير أمور سير السيارات والحافلات عند تقاطع دار المعلمين بحي بستان الباشا، وكأن ذلك إعلان شكلي عن وجود السلطة. كانت وجوه رجال المخابرات، مرتبكة على غير عادتهم.

في مساء يوم الرابع من رمضان، سمعنا انفجارات قذائف الهاون لأول مرة. خفنا جميعاً، الكبار قبل الصغار، وأجهش الأطفال، بالبكاء. باشر الأهالي باصطناع الاحتياطات الوقائية، كتصليح الأقفال، وزيادة عددها، زيادة عدد الأبواب. أصبح الحي في فوضى عارمة، وانتشرت عصابات السرقة والتشليح، ولم نعد نشاهد الصبايا في الشوارع بعد أول المساء.

بعد أول قصف للهاون، الذي بدأ مساء، صرنا نشاهد حالات النزوح، وبتنا نتذكر صور الفلسطينيين التي كنا نراها في أفلام السينما، فيما هم ينزحون عن أرضهم وبيوتهم. بدأ الأهالي في الواحدة ليلاً بالهرب من المنطقة بسياراتهم، ومنهم مَن هرب بسيارة جار، أو صديق، حتى لو كانت سوزوكي أو بيك آب.

رجال يحملون أسطوانات الغاز، مخدات وفرش للنوم وأواني للطبخ، وحاجات أساسية أخرى، تكفيهم للعيش المؤقت، ربما لأيام قليلة، يقضونها في قراهم، ويعودون حالما تنتهي الأزمة. معظم قرى الريفين، الشرقي

والجنوبي، كانت هادئة، وكذلك بعض من قرى الريفين الشمالي والغربي، وخصوصاً منطقة عفرين وقراها.

تناقشنا في أسرتنا بموضوع الرحيل، وقررنا التريث لامتلاك معظمنا محلات تجارية، لكننا جهّزنا أغراضنا الضرورية، لنكون على استعداد للمغادرة، في أقل من ساعة. علمنا من شبان حيّنا أن حزب العمال الكردستاني، طلب من الأكراد الرحيل، ووفّر حافلات كبيرة لنقلهم إلى عفرين وقراها. سافرت الشابة الكردية التي تساعدني في العمل، وبقيت وحدي، وهذه مناسبة لأقول إن أعمالي وأعمال إخوتي قد توقفت، بالكامل.

نقلت في المساء كل أغراضي المهمة إلى بيتي في حي الميدان الذي يبعد عن بيت أهلي اثنتي عشرة دقيقة من السير على القدمين، لقناعتي بأنه في منطقة آمنة، ومحمية بتنوّعها الديني والعرقي.

صحونا بعد يومين، على حواجز جديدة للجيش الحر في منطقتي الحيدرية والإنذارات، ومن اللافت أن الحواجز لم تتدخل في أي شيء. بعد ذلك، بدأنا نرى أسماء الكتائب المشاركة في الاقتحامات العسكرية، مكتوبة على الجدران، منها كتائب «الفاروق» من حمص. بعد يوم، ظهر تمدد جديد. ومن دون أي اشتباك، نصب للجيش الحر حاجز عسكري بين حيّي الهلك التحتاني والهلك الفوقاني، وبدأت التظاهرات تكبر، محمية من مسلحين ملثمين، وتوفرت لها تغطية مباشرة على قناة الجزيرة. توقف بعض المتظاهرين أمام منازل شبيحة وعملاء للمخابرات معروفين في الحي، وصرخوا عليهم، بأسمائهم. بعدها بأيام، فرّ بعضهم إلى مناطق سيطرة السلطة، وسلّم آخرون أسلحتهم للجيش الحر، وانضموا إليه.

لكنْ؛ في المقابل، بدأت مداهمة بيوت أناس، لا علاقة لهم بالشبيحة، أو غير معروفين، بدعمهم للنظام. اعتقل شبان على علاقة متينة بالعمل الثوري الميداني، ودُهمت بيوت شبان آخرين على علاقة بالثورة، وحرنا في اجتراح إجابات، أو تبرير لهذه الأفعال.

استمرت رمايات القذائف على الأحياء التي أضحت تحت سيطرة الجيش الحر، فعملنا على إسعاف المدنيين المصابين، وواجهتنا مشكلة عدم وجود أي عيادة مفتوحة، ومغادرة الأطباء جميعا الحي.

فاجأنا تحول أعداد كبيرة من الشبيحة إلى الجيش الحر. وحين طلبنا توضيحاً من قادة الكتائب، كان جوابهم: «بارودة معنا، أحسن من بارودة علينا».

جرت في التظاهرات عمليات تهميش المتظاهرين من غير التوجه الإسلامي. مُنع رفع اللافتات التي تطالب بالإفراج عن المعتقلين، من ذوي التوجه الديموقراطي المدني، واستُبدلت بلافتات طابعها ديني، وتحريضي طائفي، وانخفض عدد رايات الاستقلال التي اعتمدت كرايات للثورة، واستُبدلت بالرايات السوداء. أثار هذا الموضوع الجدال، وتطلب حله اجتماعاً في أحد المساجد. وهذه أول مرة نذهب إلى المسجد للقاء والحوار، بعدما اعتدنا أن تكون اللقاءات والحوارات في بيوت النشطاء، أو أماكن عملهم.

لمسنا هناك خضوع عناصر الجيش الحر لرجل ذي ذقن طويلة، مجهول في الحي، وناداه الجميع: شيخي. أنهى الشيخ النقاش، بحزم: هذه اللافتات، هي ما يجب أن يكون، وهي ردنا على أفعال النظام الطائفية. هذا ما يريده الشعب، وهو - في غالبيته - سنّي وإسلامي. حين جادلناه بالفرق بين المسلم والإسلامي، كاد الجدال يأخذنا إلى معتقل، أعدّه الجيش الحر للشبيحة.

أصبحنا غرباء عن أصدقائنا، وباتوا يتحدثون معنا بغير الكلام الذي كنا نتبادله قبل أسابيع. أما صغار السن؛ فلم تنفعهم نصائحنا، وما عادوا يسمعون، إلا لمن يدفع بهم بكلام عاطفي، واصفاً إياهم بالأبطال ورجال الثورة. وأضحى من واجابتنا تعليمهم عدم كتابة كلمة الحرية على الأرض، بل على الجدران، وكتابة الشعارات من دون أخطاء إملائية، قد تعبث بمعناها.

صرنا عدداً، بلا عدة، ولم نعد نُدعى لأي جلسة، كي لا نعكر صفوها واتساقها. وإكتشفنا متأخرين، أننا قليلو العدد، وغير منظّمين، وأننا نعيش في جزيرة شبه معزولة، وتزداد عزلة، ولا تعني هؤلاء جميعاً. اعتزل كثيرون، وانسحبوا، وأرخى ذقنه مَن أراد التكيّف مع المزاج السائد.

ت. الرسالة الثالثة

تمدّد الجيش الحر، وأقام حاجزاً جديداً قرب مشفى «زاهي أزرق» المعروف شعبياً بمشفى «الحميّات». الأهالي مايزالون على نزوحهم، بسبب من ازدياد القصف واستمراره، وبعد أن بوشر باستخدام الطائرات العمودية والنفاثة في قصف حيّي هنانو والإنذارات. سمعنا من أصدقائنا، بتوسع الجيش الحر في الجهة الجنوبية من المدينة، ووصوله إلى أعماق حي صلاح الدين. شاهدنا لأول مرة مصابين وشهداء في صفوف الجيش الحر خلال خوضه المعارك في حي بستان الباشا، وتمكّنه من التقدم إلى الطريق الرئيس عند دار عجزة الأرمن، وسيطرته عليه، وإقامته حاجزاً في هذا الشارع ذي الأهمية الاستراتيجية، بعدما قام الجيش النظامي منذ زمن بإغلاق الطريق الدائري الشمالي أمام فرع المداهمة.

أصبح عملنا نهارياً فقط، ونزح المزيد من الأهالي. بقيت مع أسرتي في حال ترقب وخوف، حتى سقطت قذيفة قرب بيتنا، وتطايرت شظاياها إلى الشرفة، وحين قمنا لتفقّدها سقطت قذيفة أخرى. نزلنا جميعاً إلى الطابق السفلي، وقررنا، من دون كلام كثير، النزوح في أول الصباح نحو القرية.

في الطريق إلى قريتنا، أوقفنا حاجز عسكري في قرية الزهراء (الزهراء ونبُّل قريتان شيعيتان، في ريف حلب الشمالي). رفع على الحاجز العلم السوري وعلم «حزب الله»، وعَصَبَ مسلحوه جباههم بإنشوطات صفراء، كُتب عليها «حزب الله» أيضاً. فتشوا السيارة، وتأكدوا من البطاقات الشخصية، وطلبوا منا - بعدها - متابعة الطريق. لا أعرف كيف سيكون تعاملهم معنا، لو كنا من قرى عندان وبيانون وماير التي كانت أول مَن بدأ النشاط الثوري في ريف حلب، واستمرت فيه.

ث. الرسالة الرابعة

تركت القرية بعد عدة أيام، وعدت مع أخي إلى الحي، لنتفقد بيتنا ومحلاتنا. بدأت أتقصد تطويل طريقي بين بيتي وعملي، لأراقب شباب الجيش الحر. أهم ما يميزهم الفقر، والغني منهم يمتلك حذاء، أو ثمن علبة مرتديلا، كان ثمنها ٣٥ ليرة، وأصبح ثمنها اليوم ١٢٠ ليرة. يستمعون إلى الأغاني الثورية من موبيلاتهم الرخيصة، ولا يحتكّون بالسكان. في مجموعات، يجلسون في الشوارع، أو أمام المدارس. اضطررت مرة إلى الصراخ عليهم: «تفرقوا، يا شباب، الطيارة فوقكم عم تضرب». كنا نسرع للمساعدة والإغاثة، حين نسمع صوت سقوط قذيفة هاون، وتعلمنا الانتظار خمس دقائق قبل الركض نحو مكان سقوطها.

استيقظت على صوت قذيفة، أشعرني دويّها أنها ليست هاون، وتبين أنها صاروخ، قصفت به الطائرة مدرستي الإعدادية. في المساء، رأيت المدرسة في تقرير لقناة الجزيرة، ورأيت المراسلة واقفة في ذاك المكان الذي كنت أقف فيه كل صباح لتحية العلم مع الطلاب. لم تعد الدنيا تتسع لي، ولم يعد البكاء ينفعني، وهُرعت من منزل أهلي إلى الشارع؛ لأبكي كما أشاء.

تقدم الجيش الحر في حي بستان الباشا ومنطقة مسبح العروبة، بعد اشتباكات متعددة، وسلسلة من عمليات الكر والفر، غادر - بعدها - ما تبقى من سكان الحي، وأصبح الدمار أكبر من أن يوصف، بكلمات. تدمرت مباني بطوابقها العالية. وواجه مقاتلو الجيش الحر غارات الطائرات برشقات من بنادق الكلاشنكوف.

ج. الرسالة الخامسة

ذات يوم من شهر أيلول ٢٠١٢، خرجت من بيتي في حي الميدان، لألتحق بسهرة مع أصدقائي، لكنني لم أعد إليه بعد ذلك أبداً. فالاشتباكات وصلت إلى حارتي، وسقط فيها أحد الأصدقاء الذي لم أكن أعرف اسمه

الحقيقي. قبل ذلك، سمح لي حاجز الحرس الجمهوري بالدخول إلى بيتي مرتين. في المرة الأولى، نقلت بمساعدة صديقي بعض الحاجيات البسيطة. أما في المرة الثانية؛ فلم أتعرف على حارتي أبداً. كانت شبه مدمرة. السيارات محروقة. آثار جنازير الدبابات على سطح حديدها. شظايا الزجاج على الأرض، وفي كل الزوايا. الشرفات ملتوية إلى الأرض. مغاليق الأبواب المعدنية للمحلات مفتوحة، بفعل ضغط الانفجارات. الأبواب الخارجية للعمارات وأبواب المنازل كلها متهاوية على الأرض ومحطمة.

دخلت المنزل مع صديقي. وجدت الحاسوب في مكانه. حمّلت على قرصه الصلب تعب عشر سنوات من الأرشفة الموسيقية، وكل ما يخصني من صور وفيديوهات. حملته مع كل ما استطعت حمله من الأسطوانات الأصلية. كل شيء في البيت مدمّر. الطلقات فتّتت حائط الصالة، وباب الشرفة. في طريق عودتنا، انتبهنا إلى مكان، يجمعون فيه جثث القتلى.

حاولت العودة إلى البيت مرة أخرى، لكنني مُنعت بكلمات حاسمة من المسؤول عن الحاجز. كان برفقتي جاري وزوجته، ورأينا كيف تتم عمليات إنزال أثاث المنازل وأغراضها؛ لتنقل في سيارات الشرطة وسواها إلى أماكن، نجهل أين تكون. ما يتبقى من أثاث خشبي، يكسره العساكر؛ ليتدفؤوا عليه في الشتاء.

لم يعد عندي بيت. ما عملت بدأب على تأسيسه وفرشه خلال عشر سنوات، فقدته بأيام. أتذكر - الآن - كل التفاصيل الحميمة التي عشتها أثناء اختياري الملاعق والصحون والكاسات، لوحات النحاس المحفورة، الستائر المخملية، النراجيل بأحجامها المتفاوتة، صوري مع مارسيل خليفة وخالد الهبر وأميمة الخليل، ليتر النبيذ البلدي الذي حملته من بلدة دريكيش، واحتفظت به لليلة زفافي. الحوارات الصاخبة والرائقة التي احتضنتها جدران البيت، وذاك الملمس الحنون في أواخر الليل، بعدما تطفئ كؤوس النبيذ الخلايا الهائجة.

أخيراً رسم المحاربون الحدود، بين مناطق وأحياء مدينة حلب. خلنا أنها حدود مؤقتة، ولن يطول بها الزمن سوى أسابيع على الأكثر: بستان الباشا/الشيخ خضر/الصاخور، المتجهة جنوباً نحو صلاح الدين/كاستيللو/ السجن المركزي/مشفى الكندي/الدويرينة/بستان القصر/كرم الجبل.

ح. الرسالة السادسة

هي ليست هموماً صغيرة؛ لأنها أساس حياتنا في المدينة، وسبب جلي لبقائنا في بيوتنا، وفي متابعة أعمالنا التي ليس لنا سواها كمصدر للدخل والمعيشة.

أُخرج مقسم حي الهلك من الخدمة، وسرقت إحدى الكتائب المقاتلة معظم كابلاته. قبل ذلك، سُرق المازوت الضروري لتشغيل مولد المقسم. وسُرقت - أيضاً - الكابلات الفرعية، من دون أن ينتبه أي من سكان الحي. أما حين باشر أعضاء الكتيبة في سرقة الكابل الرئيس، بدعم من العربة التي تنتصب عليها الدوشكا؛ فقد جُوبه المعترضون الذين صادف وجودهم في المكان، بتهديد مباشر من السارقين. جرت - بعدها - عمليات تخريب لمجموعات الكابلات الفرعية ونهبها، بالرغم من انعدام أي قيمة مالية لمثل هذا العمل اللصوصي التخريبي.

ثم انقطع التيار الكهرباء عن حي بستان الباشا. ترافق ذلك مع هجوم الجيش الحر على الحي. بعدما تواصلنا مع أصدقائنا وأقربائنا، تبين لنا أن الكهرباء قُطعت عن أحياء المدينة كلها. وبعد نزوح معظم أهالي الحي عن بيوتهم، قامت الكتائب المقاتلة بسرقة الكابلات الكهربائية الواصلة بين الأعمدة في الطرق، وسرقت - أيضاً - المحولات التي تنظّم تدفق الكهرباء إلى المنازل والورش. لم تبادر أي كتيبة إلى إصلاح تمديدات الشبكة الكهربائية. مبادرات الإصلاح كلها ظلت رهن قدرات مَن تبقى من الأهالي.

وشملت المشكلة المياه. فحين حاول الشاب المكلف من أعضاء المجلس المحلي في الحي تشغيل مضخة المياه، وجد عناصر من كتيبة أبو

محمود الحربلي يقصّون كابلاتها، بمقصات كبيرة. وعندما حملوا المضخة - ربما ليبيعوها من أحد محلات تصليح السيارات المنتشرة في الحي - صاح غير مصدق ما يرى: «إش عم تعملو؟»، فهددوه بالسلاح، وطردوه. راكضاً صعد إلى مئذنة الجامع، ونادى: «يا أهالي الهلك، الحقوا مضخة المي، المضخة عم تنسرق». تجمع الأهالي أمام الجامع، ونزلوا في اتجاه المضخة، من دون أن يحمل أي منهم سلاحاً، ولا حتى عصا من خيزران. كنت بينهم، وأخذنا نطالب الناس بأن ينضموا إلينا، لنكون أكثر عدداً.

وصلنا إلى المضخة، أكثر من خمسماية شاب. ترافق وصولنا مع وصول عناصر جدد من كتيبة أبو محمود الحربلي، حاملين عتادهم الحربي الكامل، بما في ذلك رشاشات ال»بي كي سي». قاموا بتلقيم أسلحتهم لإرهابنا، وطالبونا بمغادرة المكان فوراً. رفضنا طلبهم بإجماع، ودار بيننا حوار غير ودي. اتهمناهم بسرقة المضخة، وبتواطئهم مع أصحاب صهاريج المياه. برز من بينهم أحد العناصر الملتحين، وصاح من فوره: «أنا سرقت المضخة.. خرّوها.. روّحوا جيبوا الهيئة الشرعية». وصاح آخر: «أنا بعرف العرصة اللي راح ع الجامع، وجمع ها لكلاب»، ثم تابع بشراسة: «بكرا بدي رشّو، إذا شفتو هون».

صادرنا المقص الكبير، واحتجزناه كدليل على واقعة السرقة. حاولوا استعادته، فرفضنا. وحين هددونا بالسلاح، أخرج أحد شبان مجلس الحي قنبلة يدوية، وهدد بتفجيرها في الجميع. حاولوا تهدئة الأمور، بوعود تكفُّلهم بحماية المضخة. لكن شبان مجلس الحي ذكّروهم بمحاولات سرقة الكابل الرئيس الذي يغذي المضخة.

أخيراً قال كبيرهم: «نحنا هون الدولة، ونحنا منحمي المضخة». رددنا، أن الدولة وفّرت المضخة، ولم تقم بسرقتها لحرماننا من المياه. انسحبنا بطلب من شباب مجلس الحي، وقررنا عقد تفاهم بين مجلس الحي وقائد الكتيبة. اتجهنا إلى الجامع منتظرين الانتهاء من الصلاة للبدء بمظاهرة.

فأرسلوا مَن هددنا، بأنهم سيطلقون الرصاص على كل مَن يتظاهر ضد الجيش الحر، وسيقطعون رجليه. قررنا عدم التظاهر، وعدنا إلى بيوتنا.

في آخر المساء، وفيما نتابع الأخبار من التلفزيون الرسمي، بُثّ خبر مطول عن الوقائع التي حصلت في الحي، وأضاف إليها الكثير من المبالغات. تساءلنا مستغربين كيف وصلت هذه الأخبار إلى التلفزيون؟ ومَن أوصلها بهذه السرعة؟

بعد هذه الوقائع، مرّت على الحي أيام عصيبة: القذائف لا تتوقف، وتزداد غزارتها، وتتعمّق نتائجها تدميراً، وهجرات متواصلة نحو الريف ومناطق سيطرة الجيش النظامي. ثم حصلت مشاحنة أمام باب المسجد، بين عنصر من إحدى كتائب الجيش الحر، بعد سؤاله المصلين عن خادم الجامع ومسؤول إذاعته. وعندما سُئل العنصر المسلح عن السبب، أجاب: لضرورة تبليغ أهالي الحي بالمغادرة. رفض الناس الأمر بشدة، واحتد الكلام مع المسلح، فذهب، وأحضر زملاءه من المسلحين.

ببساطة، رفض الناس القرار، وأعلنوا - بوضوح - عن رغبتهم البقاء في بيوتهم، وتمسّكهم بها؛ لأنهم لا يملكون أي مكان ينزحون إليه، ويحقق لهم الحد الأدنى من الكرامة الآدمية، ولو توفر لهم ذلك، لغادروا قبل أن تطالبهم الكتائب بذلك.

شعر عناصر الكتيبة بالصعوبات التي تحول دون تنفيذ قرارهم. أما نحن؛ فلم نتوقف عند حد مطالبتهم بإيقاف قرار المغادرة، بل تجاوزناه إلى مطالبتهم بضرورة إمدادنا، بكل ما يؤمن لنا البقاء ولحياة الكريمة، من غذاء وماء ودواء، وبالمجان. حتى إننا طالبناهم ببدل راتب كتعويض عن افتقاد معظمنا المداخيل، أو عن دخولنا المتواضعة التي لا تتحقق إلا بالمعاناة والمجازفة بالحياة. وأخيراً أكدنا لهم أننا نحن مَن يدافع عنهم، ويحميهم، ويدفع ضريبة ذلك. لم يقتنعوا بكل هذا الكلام، وغادروا مهددين.

أرسلنا وفداً منا إلى مقر قيادة «أمن الثورة» لشرح حالتنا، فرافقتنا سيارة ومجموعة عسكرية. فور وصول المجموعة إلى المقر، طالبت عناصر الكتيبة، بضرورة بقاء الناس في الحي.

يعلم الناس أن وراء أمر المغادرة، رغبة في نهب البيوت والمحلات والورش، كما حصل في حي «بستان الباشا»؛ حيث لم يبقِ النهّابون وراءهم حتى الأبواب الخشبية وأسلاك الكهرباء داخل جدران البيوت.

انتهت مسألة قرار الإخلاء، وظل ما تبقى من الأهالي في بيوتهم، فيما توزعت الكتيبة على مقارها التي استولى عليها مسلحوها، على الرغم من مطالبة الأهالي بضرورة مغادرتهم المكان، كنوع من الحل الوسط، لإبعاد العسكريين عن المدنيين، علّ هذا يساهم في اتقاء الشرور المتواصلة الناجمة عن الاحتكاكات اليومية بين المسلحين والأهالي.

بعد أيام، لُغِّمت كل الأبنية التي تشغلها الكتيبة، ليس خوفاً من هجوم فجائي للجيش النظامي، بل من مخاوف أخرى مثل دهم الهيئة الشرعية هذه المقار لاعتقال مطلوبين، أو محاولة كتيبة أخرى السيطرة عليها، كمظهر لذبيب صراع النفوذ بين الكتائب المقاتلة.

اعتقل صديق بعد عودته من تركيا، بسبب اعتراضه على تلغيم المبنى الذي يسكنه. كان الاعتراض سبباً كافياً لاعتقاله، بتهمة جاهزة: شبيح. ولم يطلق سراحه، إلا بتدخل أحد القادة الكبار في الجيش الحر، على قاعدة معرفة شخصية، أو صلة قرابة.

خ. الرسالة السابعة

للمرة الأولى، واحدة شاهدت ذلك قائد إحدى الكتائب المرابطة على معبر الشيخ رز الذي يربط بين حيي الهلك والشيخ مقصود. كان ذلك حين دعا الأهالي من إذاعة جامع عمر بن الخطاب، إلى لاجتماع. كنت أعلم أن الرجل من ريف إدلب. طلب شيخ المسجد الحضور لمناقشة مشكلة المياه، وسبل حلها، ولأجل كسب أكبر عدد من الحضور.

بدأ القائد كلامه بالتهديد والوعيد لجميع الأهالي، متحدثاً عن مخبرين وعملاء للنظام، ينوون تنظيم مظاهرة ضد الجيش الحر. حجّته على وجود العملاء والخبرين، قول من بعض الأهالي إن قذائف الهاون التي يطلقها الجيش الحر على مناطق النظام، هي ما دفع النظام للانتقام بإطلاق صاروخ أرض - أرض على الحي، فدمر الصاروخ طبقتين من عمارة كبيرة، وتسبّب بأضرار في نوافذ البناية كلها، وكذلك في مغاليق المحلات وأبواب العمارات المجاورة.

وتحدث القائد الشيخ عبد المجيد بنبرة ضابط مخابرات، يتقن صوغ كلماته وعباراته، حتى شعرنا كما لو لو أننا نحضر درساً في التوجيه السياسي، في أحد معسكرات الجيش، أثناء أداء الخدمة العسكرية الإلزامية. أبلغنا الشيخ القائد أن المعركة التي تخاض - الآن - ضد النظام، هي المعركة الشرعية الوحيدة، ولا يُسمح لأحد تعكير صفائها. كما أنه هدد الأهالي، وتوعدهم بالاعتقال والأقبية، وبالاعتقال مجدداً، في حال تدخّلت كتائب أخرى للإفراج عنهم.

والغريب كان إبلاغنا تكليف أحد المشبوهين، بعمالتهم للسلطة، والمعروف كشبيح، بالمكتب الأمني في الحي. وأُبلغنا كذلك بتعيين قائد جديد لعناصر معبر الشيخ رز. وهكذا لم يتبقّ إلا أن نهتف مردّدين: بالروح، بالدم، نفديك، يا شيخ.

بعد إتمام هذين البلاغين، طلب القائد الشيخ من أتباعه إحضار أحد الموقوفين، وذكره بالاسم. غادرت مجموعة من المسلحين، وعادت بشاب في العشرين. كان هذا الشاب هو مَن ذهب مع مجموعة شبان آخرين إلى مقر الكتيبة، طالبين عدم إطلاق القذائف؛ لأنها تصيب المدنيين المقيمين في الطرف الآخر من المدينة، وتتسبب بالرد العنيف من النظام، ويكون المدنيون - هنا - هم ضحاياها أيضاً.

وقف الشاب مرتجفاً خفيض الرأس. وحين طلب الشيخ منه الكلام، تحدث بما يشبه الهمس: ذهبت إلى مقر الكتيبة لأحدثهم في مسألة واحدة فقط، هي ضرورة مرافقة مَن يريد زيارة بيت غير بيته، للتأكد من عدم حدوث سرقة، ولم آت على ذكر القذائف على الإطلاق.

صرخ الشيخ عبد المجيد علي الفور: خذوه. والتفت إلى الشاب، ثم أكمل صراخه: صار عليك التبليغ عمّن ذهبوا معك إلى مقر الكتيبة للتذمّر من القذائف. وختم بإبلاغنا أنه لم يعد مسموحاً، من الآن فصاعداً، إرسال النساء إلى الأفران، وسيتم اعتقال أي امرأة تتحدث ضد الجيش الحر.

تكّرم - بعدها - الشيخ بالسماح لنا بالتحدث. تكلم رجل من أعضاء مجلس الحي عن ضرورة عدم التعرض للمدنيين، وعدم حمل السلاح في المناطق المكتظة بالسكان كالأسواق. وقال - أيضاً - إن كتائب الجيش الحر في أحياء أخرى لا تقبل مثل هذه الأفعال التي تخيف الناس، وترهبهم. كان رد الشيخ عبد المجيد: نحن لا نأتمر، إلا بأوامر شيوخنا وقادتنا. وحين طالب شاب تركماني بضرورة توفير الحاجات الأساسية للناس، مثل أسطوانات الغاز المنزلي، رد الشيخ: نحن في معركة مع العدو، وأنت تتحدث عن هذه التفاهات؟!

بعد ذلك بأشهر، سمعنا أن الهيئة الشرعية أمرت باعتقال الشيخ عبد المجيد. لكن اعتقاله لم يطلْ، فخرج؛ ليعمل مع مجموعات من الكتائب المقاتلة، إلى أن وُجد مقتولاً في صباح أحد الأيام.

لم يتقبّل الناس قط شبيحاً سابقاً يرتدي بذة الجيش الحر، ويتحدث باسمه. لكنْ؛ بمرور الأيام، أصبحت صفة السارق الصفة الأولى التي تتبادر إلى أذهان الناس لدى ذكر الجيش الحر.

ومن مشاهدات الناس وأخبارهم أن أحد عناصر كتائب الجيش الحر، شُوهد بعد ٢٤ ساعة من تركه العمل في كتيبته، واقفا مع مجموعة من الجيش النظامي والشبيحة المسلحين على حاجز معمل عوارض السكك

الحديد؛ حيث مثلهم، أخذ ينكّل بأهالي الحي العابرين من هناك. هكذا، وبتقبّله في صفوفه أعداداً غير قليلة من زعران قضوا معظم أوقاتهم في التعرض للفتيات ومضايقة طالبات المدارس، عجز الجيش الحر عن تقديم نفسه كبديل حقيقي للنظام.

*****

٣- بستان القصر معبر للقتل اليومي

فؤاد محمد فؤاد

أ. رحلة عوليسية

ميسلون وأقيول، حيّان متجاوران - تقريباً - في حلب. لكن أحمد قال إن عليه اجتياز مسافة ٤٥٠ كلم ذهاباً من منزله في حي ميسلون، وإياباً إليه، ليحضر جنازة أمه في حي أقيول الذي لا يبعد سوى مسافة ٤٠٠ متر فقط عن منزله. فمنزل أحمد يقع في ما بات يُعرف بحلب الغربية، وصار وصوله إلى منزل العائلة - حيث ماتت أمه في أقيول الذي بات من أحياء ما يُعرف بحلب الشرقية - يتطلب أن يسلك الطريق العسكري الطويل الذي تسيطر عليه قوات النظام السوري؛ أي أن يمر قرب المدينة القديمة في أقصى غرب حلب، ليستقلّ حافلة، تسير به في التفاف نصف دائري حول جنوب المدينة، وصولاً إلى مدينة السفيرة في الجنوب الشرقي من حلب على مسافة ٣٠ كلم. ومن ثم؛ عليه أن يتوغل جنوباً للمرور في بلدتي خناصر وأثريا على تخوم البادية، فمدينتي السلمية وحماه. هذا كله قبل بدئه رحلة إياب عبر الطريق الدولي العائد في اتجاه حلب، للوصول إلى بلدة الزربة التي تقع على مسافة ٤٠ كلم جنوب غربي حلب أيضاً؛ حيث تبدأ سيطرة كتائب المعارضة المسلحة. ثم تضطر الحافلة إلى التفافة أخرى نصف دائرية، ولكنْ؛ هذه المرة من الغرب مروراً، بالشمال، للوصول إلى حلب الشرقية. فيدخل أحمد إليها من أحيائها الفقيرة، والأخرى القديمة التي في حي من أحيائها (أقيول) تقيم أمه، التي مضى على موتها أكثر من ٢٤ ساعة، استغرقتها رحلته العوليسية، فجفّفت من عينيه الدموع قبل أن يصل ويُلقي على الجثة نظرة الوداع الأخيرة الجافة المتحجّرة، وعلى

عجل، يواريها التراب. فرائحة جثة أمه، بدأت تعبق في المكان الغارق في عتمة، لا يبدّدها نور الطاقة الكهربائية إلا في ساعات قليلة كل عدة أيام.

ب. المعبر وأسماؤه

لكن ثمة معبر آخر بين مدينتي حلب الشرقية والغربية. إنه المعبر الذي يحمل أسماء عدة. الأول جغرافي، يشير إلى مكانه: «معبر بستان القصر». وهذا اسم للحي الذي بدأت تسكنه في زمن سابق - صار يُعرف بزمن ما قبل الثورة، أو ما قبل الأزمة، أو ما قبل الحرب - فئات دنيا من الطبقة الوسطى، متنوعة المهن والأعمال: معلمون وحرفيون صغار، أصحاب دكاكين وورشات عمل صغيرة، خريجو جامعات شبان، تزوجوا حديثاً، وموظفون منسيون في دوائر حكومية خاوية رطبة. وحي بستان القصر المحدث كان صورة عن بؤس بقايا الطبقة الوسطى المنهارة في المدن السورية الكبيرة.

لكن هذا الاسم الجميل للمعبر، سرعان ما انطوى؛ ليحمل اسمه الآخر الملتبس: «معبر كراج الحجز». وكراج الحجز هو اسم لأحد معالم حي بستان القصر: مساحة واسعة من الأرض، تخصّ البلدية وقسم شرطة المرور، وتحولت في زمن مضى موقفاً لحجز السيارات المخالفة في انتظار قيام أصحابها بتسوية أوضاعها. وغالباً ما تنتهي المفاوضات بإطلاق سراح السيارة المحتجزة، وعودتها إلى العمل، لكنْ؛ بعد دفع صاحبها رشوة معتبرة، أقل من قيمة المخالفة الحقيقة، ومن قيمة الزمن الذي تتوقّفه سيارة السائق العمومي عن الخدمة.

بفعل مرور الزمن - زمن الثورة والأزمة والفوضى والحرب وقوانينها، وتبادل استعراض القوة، وزمن المحادثات الإقليمية والدولية، والسلاح الكيماوي وصواريخ السكود والبراميل المتفجرة والقناصة - بدأ المعبر يحمل أسماءه الجديدة. وهي أسماء انبعثت من تراكم الجثث اليومي في المائة متر الفاصلة بين حي المشارقة؛ حيث تتمركز قوات النظام، وحي بستان القصر؛ حيث حواجز مسلحي المعارضة. الاسم الجديد الأشهر هو

«معبر الموت». الموت برصاص قنّاصة النظام المتمركزين إما على سطح مبنى «القصر البلدي» الشاهق - الذي كان يضم بلدية حلب ودوائرها ومقر الحكومة المحلية والمحافظ - وإما على سطح مبنى الإذاعة المحلية الرابض على مسافة أقل من كيلومتر من المعبر. لكنْ؛ بعدما اعتاد الناس على الموت، وأصبح الجوع أشد فتكاً من سقوطهم برصاصات القنّاصين مضرجين بدمائهم على إسفلت مثقّب بالطلقات والقذائف، ظهر للمعبر اسم جديد: «معبر رفح»، تيمناً واقتداء وتشبّهاً بالمعبر الشهير الفاصل بين قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء المصرية؛ وفي إشارة إلى الواقع المزري للقاطنين على طرفي المعبر الحلبي.

ت. هدوء كمشرحة

أمير - ٢٣ سنة - ناشط منذ بدء الثورة. وكان يعمل في محل للموبايلات، قبل تركه منزل أهله الذين اعترضوا على مشاركته في المظاهرات، وتعريضه نفسه للخطر. انتقل إلى شرق المدينة التي سيطرت عليها الكتائب المقاتلة. وسرعان ما وجد نفسه يصارع من أجل التواصل مع أهله في حلب الغربية، عبر الإنترنت حيناً (قدر ما تسمح التغذية بالتيار الكهربائي) وأحياناً نادرة عبر الهاتف الأرضي، ونادراً عبر شبكة الاتصالات الخليوية التي عانت من أعطال كثيرة، كانت غايتها جعل الحياة أشد صعوبة: «مسافة الكيلومتر التي تفصلني عن منزل أهلي، لا يمكن عبورها. ليس هذا مجازاً. بل هو واقع الحال عند إغلاق المعبر». أما عند فتح المعبر الخاضع لعوامل وأمزجة كثيرة؛ فيعبره حوالى ١٠٠ ألف شخص يومياً في الاتجاهين: «لقد اعتاد الناس القذائف والقنص، واخترعوا طرقهم الخاصة للمناورة على هذه المسألة (...). بإمكانك أن تعتاد على كل شيء. حتى على الموت. وما إن يسمع الناس أن المعبر قد فتح، يسارعون إلى أطرافه للبور. شيء مضحك: يغامرون كأنهم يتذوّقون طعاماً، يعرفونه. ولكنهم يأملون أن يتذوقوا له طعماً آخر. اعتاد الناس - أيضاً - على انقطاع الاتصالات والماء والكهرباء. الغريب أنهم يدبّرون أمرهم. دائماً يدبّرون أمورهم».

عدد القتلى اليومي من مجتازي المعبر برصاص القناصين، يتراوح بين خمسة وعشرين شخصاً: «من الإصابات الأولى التي جرت معالجتها في المشفى القريب من المعبر لجهة سيطرة المعارضة، يمكن توقع الإصابات اللاحقة»، يقول الجراح البريطاني دايفيد نوت، الذي تطوع للعمل في مشفى الزرزور في حي السكري القريب من بستان القصر. يمضي نوت شهراً - تقريباً - من كل عام متطوعاً في إحدى مناطق النزاع في العالم: «أكاد أقول إنني صرت أفهم مزاج القناصة. إنه نموذج متكرر في كل مكان. يحدث ذلك عندما تطول الحرب، وتصبح عبثية، لا غالب فيها، ولا مغلوب. فقط مراقبة، ثم ضجر، ثم قنص. يحدث أن يصل أشخاص مصابون من الجهة اليمنى من الصدر. يتكرر هذا طوال اليوم. لكن الإصابات تتركز في الجهة اليسرى في اليوم التالي(...). أصعب الحالات حينما يكون المصاب الأول امرأة حاملاً. عندئذ أدرك أن اليوم سيكون سيئاً، بما يكفي. يختار القناص المرأة البارزة الحمل. في أشهره الأخيرة. يستطيع تمييزها من مسافة بعيد. مرة استهدف القنّاص امرأة، تجرّ طفلين. كل منهما بيد. قتل الأول. لم تكد الأم تلتفت، حتى أصابت رصاصة أخرى طفلها الثاني. وقفت المرأة تولول، وتصرخ: اقتلني. اقتلني أنا أيضاً... لكنه لم يفعل».

يتابع الطبيب البريطاني كلامه: «إنها لعبة لتمضية الوقت. تنطوي على الإثارة. غالباً ما يكون الرهان على علبة سجائر. كنت في سراييفو، وفي مناطق كثيرة سواها من العالم تجتاحها النزاعات. عاينت الكثير من المصابين برصاص القناصة. لكن ما يحدث في سورية هو الأسوأ. إنه البلد الوحيد الذي يُستهدف فيه الطاقم الطبي، ليُمنع من تقديم خدماته للمصابين.

هناك شريط فيديو، يظهر الجراح البريطاني ومجموعة من الأطباء المحليين يقومون بعملية قيصرية لامرأة مصابة بطلق ناري في بطنها. فوهة الدخول واضحة. الرحم المصاب واضح أيضاً. لكنْ؛ ما إن أخرج الجراح الجنين مكتمل النمو تقريباً من الرحم، حتى بدا ميتاً: «سأستخدم هذا الفيديو لأغراض تعليمية. من غير المعتاد حدوث حالات كهذه. لكنها

الحرب. وأنا أرغب أن يتعلم الآخرون كيف يمكن التعامل مع هذه الإصابات. على كل حال، لقد عاشت الأم»، يكمل الطبيب بانفعال خفيف.

الدكتور ز. س، الحمصي الأمريكي، المتطوع - أيضاً - لأسبوعين في أحد مشافي حلب الميدانية، تسلّم قائمة الطلبات واللوازم من الطبيب الحلبي الذي يدير المشفى:

- خيطان جراحية دقيقة للأوعية الدموية، ويفضل قياس ٥/ صفر.
- علبة جراحية وعائية.
- مضادات حيوية واسعة الطيف.
- مبعدات عريضة.
- و..... أكفان.

«هناك نقص شديد في الأكفان. يموت الناس - يومياً - بأعداد كبيرة، ولا توجد لدينا أكفان كفاية. أحياناً نضطر لدفن القتيل بشرشف سرير المشفى. هذا ليس أمراً لائقاً أبداً». هذا ما قاله الطبيب في كلمات هادئة محايدة، وخالية من أي أثر درامي، أو انفعالي. كان صوته بارداً كمشرحة.

ث. بقعة دم صغيرة

أحياناً يتغير اجتياز المعبر حسب التطورات العامة للحرب. لكنْ؛ في أحايين كثيرة، يكون محكوماً بالجهة المسيطرة عليه، فتقوم هذه بعرقلة العبور لفرض ضرائب جديدة على البضائع، أو للضغط على السكان في مناطق النظام. قد يتوقف العبور تماماً، وقد يكون سلساً، على الرغم من القنص. ولا يخلو الأمر من مخاطر أخرى كبيرة، عندما تصدر أوامر مفاجئة، بإيقاف العبور، من دون أن يعلم الناس سبباً لذلك.

«مرة كنا نعبر لشراء الخضر بأسعار رخيصة من حلب الشرقية - مقارنة بأسعارها المرتفعة في الأحياء التي يسيطر عليه النظام - فوقفنا متجمعين في آخر نقطة مستورة عن القناص. ثم اندفعنا راكضين لاجتياز مسافة مائة

متر تقريباً. فجأة سمعنا صوت الرصاص، فاندفعنا، بأقصى سرعة ممكنة. أصيبت امرأة متقدمة، في السن. ما إن وصلنا إلى النقطة الآمنة على الطرف الآخر، حتى التفتنا سريعاً إلى الوراء لنعرف من الضحية. كانت امرأة ممددة على الأرض، وحولها بقعة دم صغيرة. أدرك أحد الرجال أنها زوجته، فصرخ، وانبطح أرضاً. ثم بدأ يزحف نحوها. خيّم هدوء شديد، فيما نراقب المشهد. ثمة مَن بدأ يزحف خلف الرجل؛ ليعينه على جر المرأة. في المتر الأخير، قبل أن يصل الزوج إلى زوجته، انطلقت رصاصة أصابت رأسه مباشرة... فلم يتحرك - أبداً - بعد ذلك». هذا ما رواه لي صديق حلبي قديم عبر السكايب، ثم قال: «قد يكلّفك صحن السلطة حياتك في حلب».

ويستمر البشر في العبور ما إن يعلموا أن المعبر مفتوح.

العابرون من مناطق النظام إلى مناطق المعارضة، غالباً ما يعبرون من أجل الطعام: الخضر والفاكهة والوقود متوفرة نسبياً، وبأسعار أرخص بكثير في حلب الشرقية، مما في مناطق الغربية. يعبر موظفون وموظفات، معلمون ومعلمات، طلبة جامعيون ومغامرون. من أجل لقمة العيش، يعبرون ببضائع من الشرق إلى الغرب، لتحصيل حفنة ليرات، يربحونها من فارق الأسعار.

ج. طرائد يومية

يقيم أهل سارة في مناطق المعارضة. كل يوم تضطر إلى اجتياز المعبر لتصل إلى الجامعة. تحدثت عن «قنص يومي. لكن - الحمد الله - أسوأ الأيام هو الجمعة الذي يكون يوم عطلة في الجامعة. لا أعلم لماذا يوم الجمعة سيئ. ربما لأن الازدحام فيه شديد، ويجد القناص كل ما يرغبه من البضاعة، أو الطرائد». أما أبو ياسين، المسؤول العسكري في منطقة بستان القصر، والتابع للمحكمة الشرعية؛ فيقول: «هناك ٧٢ قنّاصاً يستهدفوننا، لكن المصابين في معظمهم من المدنيين».

على معبر بستان القصر لجهة المعارضة، تسيطر الهيئة الشرعية. وهي مزيج من عناصر في جبهة النصرة ولواء التوحيد وأحرار الشام. ويعود للهيئة القرار في إدارة المعبر، وفتحه، أو إغلاقه.

على عرض الشارع في طرف المعبر الشرقي ثمة لافتة من قماش طولها ٦ أمتار تعلن عن منع «خروج المواد التموينية والأدوية والمحروقات والزيوت ومستلزمات الأطفال والحليب ومشتقاته واللحوم والخبز... منعاً باتاً»، وتحمل توقيع «اللجنة التنفيذية للمعبر». تبرر الهيئة قرارها بمنع تسريب البضائع من المناطق المحررة التي تتوفر فيها بأسعار أرخص من ما في مناطق النظام. هدف المنع هو الضغط على الموالين للنظام، وحرمانهم من الاستفادة من المواد الأساسية. لكن تجار المناطق الشرقية المحررة يشتكون لأن بضائعهم تتكدس من دون أن تجد لها زبائن، مما يحرمهم من دخل، تمس حاجتهم إليه. وغالباً ما تشكل المنتجات الزراعية - كالخضر والفاكهة التي ترد من الريف المجاور لمدينة حلب والمسيطر عليه من كتائب المعارضة المسلحة - المادة الرئيسية التي تُسَوّق في الأحياء الغربية من المدينة.

إضافة إلى نقلهم البضائع والمحروقات، فإن البشر - بوصفهم قوة عمل - يعتبرون - أيضاً - مادة أساسية للعبور. فالمدينة الصناعية تقع في المنطقة المحررة، بينما تقع الدوائر الحكومية وبقايا مؤسسات الدولة في مناطق النظام، كذلك الجامعة والمدارس التي لا تزال تدار وفقاً للنظام الرسمي، وتضم أعداداً كبيرة من المعلمين والمعلمات المعتبرين موظفين في القطاع العام الرسمي، ويتلقون رواتب وأجوراً لقاء ذلك. لذا؛ يضطر الموظفون المقيمون في المناطق المحررة إلى اجتياز المعبر للوصول إلى دوائر عملهم، خشية حرمانهم من مرتباتهم. طلاب الجامعة التي لا يزال مدرّسوها يقدمون محاضراتهم، هم - أيضاً - من جماعات العبور السيزيفي اليومي من المناطق المحرّرة (على ما تسمّي الكتائب المعارضة المسلحة مناطقها) إلى مناطق مطهّرة (على ما يسمّي النظام المناطق التي يسيطر، أو يستعيد السيطرة عليها).

ح. احتمالات الموت

هناك تشابه ما في آلية العبور بين الجهتين. مَن يعبر من مناطق النظام إلى مناطق المعارضة عليه أن يمرَّ على حواجز أمنية وعسكرية، يستهدفها الجيش الحر، بالقذائف. وقد يكون الاعتقال مصدراً آخر للرعب، إذا كان ثمة تشابه بين اسم هذا أو ذاك من العابرين وبين أسماء واردة في القوائم الطويلة التي يحملها عناصر الحاجز. وقد يشمل الاعتقال - أيضاً - مَن يحمل بطاقة شخصية تثبت ولادته في مناطق غير مرغوب بأهلها وسكانها لدى النظام، كمثل أبناء الريف الحلبي (وهم كثيرون)، أو كمثل مواليد درعا ودير الزور: ماذا تفعل في حلب؟! يقول عناصر الحاجز لأمثال هؤلاء بصلافة وقسوة، تثيران فيهم الرعب. أما إذا كانت بطاقة أحد العابرين مكسورة من طرفها، أو غير واضحة المعالم بسبب قدمها وكثرة استعمالها، فغالباً ما يتعرض للشكوك والإهانة. في هذه الأحوال يكون العابر محكوماً بمزاج عنصر الحاجز، أو وضعه النفسي. أما في حال سماع انفجارات قريبة؛ فإن التوتر العصبي لعناصر الحاجز يجعل جميع العابرين مشتبهين.

لدى وصول الراغبين في العبور إلى طرف معبر بستان القصر، يروحون يسألون عن وضع القنص، قبل تجمّعهم في كتلة بشرية متراصة، للاندفاع بسرعة نحو معبر الموت «بغية إرباك القناص الذي لن يستطيع التركيز على شخص بعينه، وربما يفقد شهيته إلى القنص. العابرون المندفعون مجموعات متكتلة متراصة، يظنون - بدورهم - أن احتمال موت أحدهم بين عشرات الأشخاص العابرين أضأل مما في حال عبور كل منهم، بمفرده. وهذا - بالتأكيد - احتمال أقل مما في حال اجتياز أحدهم المعبر وحيداً عارياً من الكتلة البشرية المندفعة»، يقول زهير الذي يصرّ على شراء الخضر من سوق بستان القصر، «لأنها أرخص، وأجود»، يتابع بابتسامة مرتبكة.

لكن احتمالات الموت لن تتوقف عند هذا الحد، في حال اضطرار العابرين إلى التجول في المنطقة المحررة. إذ ذاك قد يكون بعضهم ضحية القذائف التي يطلقها النظام - يومياً - بكثافة على تلك المنطقة، أو ضحية

براميله المتفجرة التي تلقيها المروحيات. لكن الطامة الكبرى والخط العاثر يتمثلان في حال إرسال قوات الدفاع الجوي النظامية صواريخها السكود بعيدة المدى من وسط سورية، أو جنوبها، لتسقط على الأحياء السكنية في حلب الشرقية، فتختلط إذ ذاك الأبنية الهشة، بلحم سكانها، وماسحة عن وجه الأرض بنايات وبشراً وأحلاماً صغيرة بائسة.

«بستان القصر» اسم يوحي بالرفاه والدعة. وهو اسم المنطقة التي تلي المعبر مباشرة في حلب الشرقية؛ حيث ينتصب حاجز أول، يقفل الطريق، بكامله، تاركاً فتحتين، تسمحان بعبور مَن نجا من رصاص القنص. على الطرف الآخر حاجز أيضاً، لكنه مصنوع من حافلتي نقل عام، مرفوعة إحداهما فوق الأخرى في عرض المعبر، تاركتين فسحة، تسمح بالمرور. الحافلتان مثقبتان بألوف مؤلفة من الطلقات، ومكدسة حولهما أكياس رملية للتمترس. بعدها ينقتح عالم سحري من أصوات الباعة وجلبة المشترين وزعيق سائقي سيارات الأجرة الخبراء بالطرق المستحدثة، والقادرين على نقل الركاب إلى مواقف سيارات النقل العام التي انتقلت مواقفها إلى مكان على مسافة ٣٠ كلم خارج المدينة، ومنها ينتقل الراغبون إلى بعض المدن المتاح الوصول إليها. في ذلك العالم السحري بعد المعبر تتكدّس سلع متنوعة، ينادي الباعة بأسمائها: خضر وفواكه، قداحات ودخان، وقود وحلويات. وعلى البسطات ألبسة مستعملة، وما اختفى من ذاكرة السوريين منذ من زمن بعيد: بوابير الكاز ومصابيح الكيروسين.

خ. «داعش» والهيئة الشرعية

منذ بداية الثورة تتميز منطقة بستان القصر بنشاطها السلمي المدني الذي استمر إلى ما بعد العسكرة والتسلح ودخول الكتائب المقاتلة إلى المنطقة، وقيامها بحصار النشطاء الذين حاولوا - في البداية - الاستمرار في التظاهر، لكنْ؛ ضد أسلمة الثورة هذه المرة. هكذا بات «العلمانيون» من «الكفرة» على ما يسمّيهم «تنظيم الدولة الإسلامية» في العراق والشام» (داعش). و«الدولة الإسلامية» يعتبر منطقة بستان القصر «علمانية»،

على الرغم من عدم وجود أي إشارة تدل على ذلك، سوى كثرة الأنشطة المدنية فيها، إضافة إلى تجمّع الناشطين الذين يحملون أفكار الثورة. وهي - لهذا - موعودة بـ«الفتح»، على ما يسمّي «داعش» سيطرته على منطقة ما، يدخلها، ويطلق فيها دورياته بين الحين والآخر لفرض وجوده. وهذه رسالة ليست موجهة إلى السكان فقط، بل - أيضاً - إلى الهيئة الشرعية.

يقول نشطاء من بستان القصر إن الهيئة الشرعية التي تدير الأراضي المحررة، لا تستطيع الوقوف في وجه «الدولة الإسلامية» التي تسترضي القيمين على تلك الهيئات لتطبيق قرارات «الدولة» على أمور جزئية كثيرة. لكن هذه الأمور - على الأغلب - ليست في صالح السكان المحليين، أو من نزح إلى مناطقهم من الريف، أو من طرف المدينة الغربي. من ذلك، قيام الهيئة بجباية مبالغ مالية من أصحاب البسطات، بحجة تنظيم الشارع. وطاولت الجباية أصحاب المحلات، وإن بتسعيرة مختلفة. أدى ذلك إلى التسبّب باشتباكات بين بعض الباعة ودوريات الهيئة، فقُتلت مرة طفلة، وقُتل - أيضاً - أحد عناصر الدورية.

يُفتح المعبر ويغلق عشرات المرات لأسباب مختلفة، منها التهريب الذي كان - ولا يزال - قائماً بين المنطقتين. يقوم المهربون بتمرير المواد الغذائية والمحروقات التي منعت الهيئة الشرعية مرورها إلى منطقة سيطرة النظام، وخصوصاً في أوقات تقطّع سبل تلك المناطق، وتعرضها لحصار اقتصادي، يرفع أسعار كلّ شيء أضعافاً مضاعفة، لاسيما المواد الغذائية. لكن التهريب ليس الأصل، بل الجباية المفروضة على مرور البضائع، ومنها يحصّل مقاتلو فصائل الهيئة الشرعية دخلهم، أو بعضه الذي يأتي من مصادر متنوعة، بينها إعادة تشغيل بعض المعامل المتوقفة عن العمل، بعدما باعت الهيئة مخزونها من المواد المصنّعة قبل الحرب. وتوقفت الهيئة عن بيع المواد الأولية المتوفرة في المصانع؛ إذ وجدت أن من الأفضل استعمالها في تشغيل المصانع نفسها، بما تبقى من الفنيين في المدينة، لبيع السلع المنتجة لصالحها؛ أي لصالح الهيئة الشرعية.

يقول الدكتور «هـ...»، وهو صاحب أحد مصانع الأدوية الكبيرة في ريف حلب: «مع اشتداد القتال، أوقفتُ الإنتاج، لكنْ؛ كان لديّ من المخزون المصنّع ما قيمته ٣ ونصف مليون دولاراً، ومن المواد الأولية ما قيمته حوالى ٧ مليون دولاراً. بعد أن استولى المقاتلون على المصنع، وتمركزوا فيه، قاموا ببيع المنتوج المخزن لصالحهم. ومع اشتداد الضغط الاقتصادي، وشحّ تمويل المقاتلين، وإصابة بعض الآلات بأضرار نتيجة المواجهات مع قوات النظام التي قصفت المصنع جواً، اتصل بي بعض قيادات الهيئة الشرعية، وطالبوني بالتعاون معهم لإصلاح المصنع، وتشغيله، وإرسال الفنيين الذين كانوا لا يزالون يتلقّون أجورهم مني. قضى الاتفاق بإصلاح الآلات على نفقتي، وقيامهم بتصنيع المواد الأولية المخزنة، وبيعها لصالحهم، في مقابل حراستهم المصنع، وحمايته من السرقات والتخريب، فقبلتُ مرغماً حيال انعدام خياراتٍ أخرى».

محاولات كثيرة قامت بها مجموعات مدنية أو المجلس المحلي في المنطقة «المحررة» من حلب، بغية تحسين الخدمات العامة: قيام موظفين سابقين في إدارات النظام بجمع النفايات، ونقلها بشاحنات خاصة إلى أحد مقالع الرخام القريبة الذي بات يستعمل - حالياً - مكباً للقمامة. رشّ الشوارع بمبيدات الحشرات، بعدما شاع احتمال ظهور وباء الملاريا. كذلك قامت «البلدية المؤقتة» بالتدخل لتحسين مستوى البنية التحتية، فشكلت فريقاً تقنياً لإصلاح شبكات المياه والطاقة الكهربائية. فاوضت البلدية «المؤقتة» البلدية «الرسمية» على صيانة الشبكة المشتركة بين الطرفين. لكن استيلاء «تنظيم الدولة الإسلامية» على المحطة الحرارية لتوليد الطاقة الكهربائية، أدى إلى تفاقم كبير في مشكلة الكهرباء. قبل ذلك، جرى اتفاق بين النظام والجيش الحر عبر وسيط (مبادرة أهالي حلب)، فقضى بأن يؤمّن الحر الوقود لمناطق النظام، في مقابل إشراف النظام على تشغيل المحطة الحرارية. لكن سيطرة «الدولة» على المحطة عطّلت الاتفاق: «صرنا نحصل على الكهرباء ساعة في اليوم، وساعتين في يوم السعد»، يقول غالب، المقيم في حي

الفردوس في شرقي حلب. أما الماء؛ فنخزّنه؛ لأن المضخات تعمل على الكهرباء، أي بموافقة الدولة الإسلامية التي وقعنا تحت رحمتها، بعدما هربنا من دولة النظام. وحالنا في هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار، مع أنني لا اعرف ما هي الرمضاء»، يقول غالب متهكّماً.

عندما يُقفل المعبر يمكث مَن اجتازوه في الاتجاهين في المنطقة التي عبروا إليها. من جاء من مناطق النظام عليه أن يتدبر أمر مبيته في شرق المدينة، والعكس بالعكس. السيدة «س.» القاطنة في حي السبيل، غرب حلب، كانت تشتري الخضر عندما صدر مرة قرار إغلاق المعبر: «لقد اضطررت إلى النوم أكثر من أسبوع في بستان القصر، في بيوت، لا أعرف أصحابها، لكنّهم أكرموني، وأمّنوا لي مستلزمات المنامة. كنت أحاول شراء بعض الخضر واللحوم، بعدما صارت الطبخة اليومية تعتمد على المعكرونة والبرغل والقليل من الخضر المتوفرة بأسعار باهظة»، روت السيدة.

د. الغموض والتعاسة

حيال هذا الوضع، بادر بعض النشطاء والشبان في منطقة شرق المعبر إلى تنظيم حملة، سمّوها «مبادرة تنظيم كراج الحجز»، هدفها حل مشاكل المعبر، وتسيير أمور المدنيين العابرين. انقسم المشاركون في الحملة إلى مجموعتين: مجموعة تراقب المواد الخارجة وكميتها، وأخرى تقوم بتحصيل ضريبة بقيمة ٢ في المئة على تلك المواد، على أن يعود هذا الريع لمساعدة عوائل الشهداء في بستان القصر. قلة الخبرة ووجود السلاح والرغبة في الاستئثار بالعوائد المالية أضعفت المبادرة تدريجياً، وسرعان ما تلاشت، وذهبت أدراج الرياح.

لم يتغيّر الوضع في حلب منذ نهاية صيف عام ٢٠١٢ تقريباً. المناطق التي استولت عليها كتائب المعارضة المسلحة وتلك التي لا تزال تحت سيطرة قوات النظام، بقيت على حالها جغرافياً. صحيح أن هجمات الطائرات والبراميل المتفجرة وقذائف المدفعية التي تطلقها قوات النظام

دمرت أحياء، بكاملها، في حلب الشرقية. وفي المقابل، تتساقط قذائف الهاون على بعض الأحياء في مناطق سيطرة النظام. وإذا كان ما يحدثه قصف النظام المروع لا يقارن بما تحدثه قذائف المعارضة، فإن المحصلة على الأرض أن الحدود الجغرافية بين المنطقتين واضحة ومستقرة.

لكن القنّاصة المشرفين على المعبر لم يملّوا بعد. منذ أواخر تشرين الثاني ٢٠١٣، يوم واحد - فقط - مرّ إثر إعادة فتح المعبر دونما قنص، لكنه سرعان ما استُؤنف في اليوم التالي، بشهية مضاعفة ومستمرة.

هل من معنى لهذا كله؟

هل هناك عدم قدرة على الحسم العسكري؟

لكنْ؛ كيف خرج أكثر من ٦٠ في المئة من المدينة عن سيطرة النظام، في أقل من أسبوعين؛ ليستمر الوضع على حاله مذّاك؟ هل أدرك المعارضون المسلحون أن حلب أكبر مَن تُبلع، أو يُسيطر عليها، فاكتفوا بما أنجزوا وبتوجيه ضربات متقطعة لمواقع النظام، رداً على هجماته بالبراميل المتفجرة على شرق المدينة منذ أواخر العام ٢٠١٣؟

غامض هو الوضع الذي ستكون عليه حلب في المدى المنظور. لم ترد أوضاعها بعد في المفاوضات أو التقاسمات وترتيبات المناطق. والتفكير في موقعها وواقعها يتعذر التفكير فيه بعد هذا كله. ليس في تاريخ المدينة القريب أو الموغل في الزمن حقبة يمكن القياس عليها. لا ذاكرة الكبار، ولا بطون الكتب، تفيدان في استخلاص جواب شاف عن حال المعبر والعبور الدموي، ومعناهما بين قسمي المدينة التي لا شيء - أيضاً - يفيد في التكهّن بمصيرها.

«قومة» حلب في العام ١٨٥٠ استمرت أسبوعين فقط، وسرعان ما تبين مَن كان المحرض والمنفذ، لكن المدينة لم يحدث أن انقسمت من قبل، مما يعيق المقايسة.

لكن حلب الشهباء اليوم شاحبة سوداء.

لا تُسمع فيها نقرة عود، وليس من قدّ يميس. لا كأس ساقٍ، لاندامى... ولا غناء.

لم تكن حلب - يوماً - على هذا القدر من الخراب والموت.

*****

٤- الحياة اليومية في حلب الغربية

علي الرفاعي

دوّن هذه اليوميات المحامي علي الرفاعي، وأبقاها في منزله في حلب الغربية، قبل مغادرته وأسرته إلى القاهرة في أواخر شتاء ٢٠١٤.

*****

نعيش في أماكن آمنة نسبياً، فلا يمكن مقارنة قذائف الهاون وقذائف جهنم، بالبراميل المتفجرة وغارات الطيران الحربي، على الرغم من أننا - كسوانا - غدونا أسرى المآلات الحربية للصراع السياسي. هاجر معظم أصحاب الرساميل الكبيرة في بداية الأزمة، تاركين مجموعة من موظفيهم الموثوقين، ليتابعوا أعمالهم ومصالحهم، قبل نقلها نهائياً، بعد تعثّر الأعمال وفقدان الأمان، متسبّبين - عن غير قصد - بزيادة العاطلين عن العمل. تبعهم في الرحيل معظم مَن لهم علاقة قرابة، أو عمل، أو دراسة في بلد عربي، أو أجنبي. ثم حصدت الهجرة الشبان الخرجين الجدد من الكليات الجامعية، في محاولة منهم لإيجاد أفق جديد لحياتهم. وهناك مَن قرر الهجرة، إلى الأماكن الأكثر أماناً في المدن والقرى السورية، أو العودة إلى مسقط رأسه في القرية أو المنطقة التي هجرها منها إلى المدينة. نزيف كبير في العقول والخبرات والرساميل، ستستغرق استعادتها تجاوزه في المستقبل وقتاً طويلاً، في حال توفرت شروط سياسية واقتصادية وأمنية مناسبة للعودة.

ينقطع التيار الكهربائي لأيام، وأحياناً لأسابيع. وحين يأتي بعد انقطاعه، يأتي لساعات، محكوماً بظروف وشروط متعددة، منها سيطرة الكتائب

المقاتلة على المحطة الحرارية ومنشآت توليد الكهرباء على نهر الفرات، إضافة إلى الأعطال الناجمة عن القصف والاشتباكات، وسرقة الكابلات الكهربائية الرئيسية.

استعاض الناس بالمولدات المختلفة الأحجام، عن تغذية شركة الكهرباء. وصار لزاماً على متاجر البيع بالتجزئة (سوبر ماركت للحوم والأجبان)، وعلى الورش الصغيرة والمتوسطة، والمخابر ومختبرات وعيادات التصوير الشعاعي، اقتناء مولدات؛ كي يحافظ أصحابها على استمرار أعمالهم، وإبقاء بضائعهم وموادهم الضرورية من دون تلف.

تواجه مقتني المولدات الكهربائية، مشكلة تأمين الوقود، من بنزين ومازوت وزيوت معدنية، فضلاً عن مشكلات الأعطال في المولدات؛ لأن معظمها صينية الصنع، أو جرى تجميعها في منشآت تركية، أو إماراتية. يضاف إلى هذا ضعف خبرة الناس بأساليب الصيانة ولوازم الميكانيك. مستخدمو المولدات من أصحاب المتاجر والورش الصناعية، يضيفون أكلاف تشغيل مولداتهم، وتصليحها على أسعار البضائع التي يبيعونها، أو ينتجونها. أما مستخدمو المولدات في منازلهم؛ فيلزمهم توفير دخل شهري إضافي، يتراوح ما بين ٣ أو ٦ آلاف ليرة حسب حجم المولد، وأسعار البنزين في السوق السوداء.

بدأت تنتشر بين عدد من المستثمرين ظاهرة المولدات الضخمة لتغذية البيوت بالكهرباء، لقاء مبلغ ٨٠٠ ليرة للأمبير الواحد في الأسبوع، بمعدل تشغيل ٦ ساعات يومياً. والاشتراك في هذه المولدات يكفي - فقط - للإنارة المنزلية المحدودة، وتشغيل تلفزيون وأمور بسيطة أخرى. أما المياه؛ فتصل عبر تجهيزات المؤسسة العامة لمياه الشرب والصرف الصحي في المدينة، بمعدل ٨ ساعات كل ٤٨ ساعة، في حال عدم انقطاع التيار الكهربائي لثلاثة أو أربعة أيام متتالية، تنقطع خلالها مياه الشرب. لذا؛ تزايدت أعباء الشرب والنظافة، ونشأت مهنة نقل المياه وبيعها بالصهاريج، واعتُمِدَتْ

تعليمات حكومية لتقنين استعمال المياه، وحفر الآبار في المساجد والكنائس والمشافي والحدائق. وأضحى الاعتماد على الغاز المنزلي أساسياً في الطبخ والتدفئة، ووزعت شركة الغاز الأسطوانة، في الشتاء، بسعر ألف ومائة ليرة، عبر لجان الأحياء والمختارين، ووفق نظام قوائم ومداورة خلال ثلاثة ثلاث أشهر، على الأغلب. لكن أسطوانة الغاز الواحدة لا تكفي طوال هذه المدة، مما يدفع الناس إلى شرائها من السوق السوداء بسعر يتراوح ما بين ٢٥٠٠-٦٠٠٠ ليرة، حسب مستجدات العرض والطلب المرتبطة بتأمين طرق المواصلات الطويلة بين حلب ومصفاة حمص، أو بانياس.

في شتاء ٢٠١٢ عانى الناس من فقدان المازوت كلياً، إلا ما عُرض منه في السوق السوداء. وما توفّره هذه السوق معظمه غير نقي، بعدما مزجه البائعون بأنواع من الفيول والنفط الخام؛ ليتراوح سعر الليتر الواحد ما بين ٣٥٠-٤٠٠ ليرة. لذا؛ حوّل كثيرون مدافئهم إلى الحطب. قامت لجان الأحياء في بداية الشتاء، بتوفير ٢٥٠ ليتراً لكل أسرة بقيمة ٦٥ ليرة لليتر الواحد، بعد إثبات مكان الإقامة ودفتر العائلة، بمَن فيهم النازحون من المناطق الشرقية الذين استأجروا بيوتاً في المناطق الغربية. عائلات كثيرة عجزت عن دفع ثمن حصتها من المازوت، فقامت ببيعها في السوق السوداء، على الرغم من حاجتها الملحة إلى هذه المادة الضرورية. لذا؛ توافر المازوت في السوق السوداء بضعف سعره الحكومي. أنتجت هذه العمليات فئة جديدة، انضمت إلى فئات أخرى من أثرياء الحرب. وتسبب خلط المازوت بمواد أخرى، بالكثير من الحرائق المنزلية المميتة.

أما البنزين؛ فبقيت في حلب الغربية خمس محطات وقود لبيعه وسط ظل ازدحام شديد للسيارات. وأشرفت على هذه المحطات وحدات عسكرية متنوعة، يغلب عليها جهاز الشرطة المدنية. وكثيراً ما يأتي إلى المحطات أناس من دون سيارات، حاملين عبوات بلاستيكية لتعبئة البنزين فيها، واستعماله في تشغيل المولدات الكهربائية المنزلية. ازدحام الناس والسيارات في محطات الوقود، غالباً ما يستغرق سبع ساعات لحصول كل

منهم على حصته من البنزين، بسعر مائة وخمس ليرات لليتر الواحد. وصار التجمع الكبير أمام محطات الوقود، ينطوي على المجازفة والمخاطرة، لكونه عرضة لرمايات الهاون، وقذائف جهنم (أسطوانات الغاز، أو الأوكسجين المحشوة، بالمواد المتفجّرة).

وانتعشت السوق السوداء انتعاشاً كبيراً، فأثرى تجارها من الإتجار بالمازوت والبنزين والغاز والخبز واللحوم ومنتجات الحليب والأدوية الطبية. كل ما يشكل حاجة حيوية لاستمرار الناس في حياتهم، يتوفَّر في هذه الأسواق، لكنْ؛ بأضعاف مضاعفة من السعر الحكومي. والجميع يعلم من أين تصل السلع المواد إلى السوق السوداء، وتتوفَّر فيها على الدوام. وظهر الإنفاق الاعتباطي للأثرياء الجدد الذين أخذوا يداومون على ارتياد المطاعم والمقاهي التي كان بعضهم يحلم أن يكون نادلاً فيها.

تولت منظمات دولية تزويد المدينة بالمواد الإغاثية، عبر تسليمها لمنظمة «الهلال الأحمر العربي السوري»، التي تخزّنها في مستودعات؛ لتوزعها بواسطة عدد من الجمعيات الأهلية، فتقاسمت هذه في ما بينها جغرافيا المدينة. يعمل في هذه الجمعيات - الهيئات متطوعون، يستطلعون أحوال طالبي المعونات الإغاثية، وينظّمون جداول بعائلاتهم؛ ليوزعوا عليهم حصصاً شهرية من المواد الغذائية ومواد التنظيف والفرش والأغطية. ووفّرت الحكومة - عبر المحافظة - الطحين المدعوم والمازوت والخميرة بالسعر الرسمي لغالبية المخابز، التي صارت تبيع ربطة الخبز المؤلفة من ثمانية أرغفة بسعر ١٥ ليرة. وتعاني الأفران من الزحام الشديد. من أواخر الليل يبدأ وقوف الناس أمام كوىً في بوابات الأفران المغلقة. وكلّفت مجموعات عسكرية بتنظيم صفوف المزدحمين المنتظرين. عائلات فقيرة امتهنت الاصطفاف أمام كوى الأفران بكامل أفرادها لشراء الخبز، وبيعه - في ما بعد - بأضعاف سعره. غالباً ما يكون أبناء هذه العائلات قد فقدوا أعمالهم، وامتهنوا هذا العمل الشاق مهنة جديدة مؤقتة للعيش.

لم تعد ترد من أرياف حلب معظم المواد الغذائية، بعدما تضررت المحاصيل الزراعية في تلك الأرياف، وصَعُبَ تصريف ما تنتجه، بسبب أحوال الطرق العسيرة، وشدة الاشتباكات.

وتوقفت عن العمل معظم منشآت تربية الدواجن والأبقار. فصار إنتاج الحليب ومشتقاته يعتمد على الحليب المجفف المستورد الذي يصل عبر الطريق العسكري، مروراً ببلدة خناصر. تضاعفت أسعار الحليب ومشتقاته أربعة أضعاف أو خمسة عن أسعارها الحقيقية، لكنها باتت تتوفر، بشكل مقبول، وبأسعار أخفض من أسعارها في شتاء العام ٢٠١٣، بعدما عمل الجيش النظامي على تأمين طريق الإمداد وحمايته.

أصيبت صناعة الملابس على أنواعها الداخلية والخارجية، بضربات حادة، بعدما تضرّرت معظم مصانعها وورشها الكبيرة والمتوسطة، التي أُنشئت في المدن الصناعية خارج المدينة (الليرمون، خان العسل، والزربة) فالمدن هذه أمست تحت سيطرة الكتائب المقاتلة، ولم يبقَ يعمل من المصانع سوى الصغيرة داخل أحياء المدينة؛ حيث يمكن المناورة على الظروف المعقدة. وبات الاعتماد شبه كلي على الملابس المستوردة التي ترتبط أسعارها بارتفاع قيمة الدولار، أو انخفاضها، وبأجور النقل ومكوس الجمارك، أو أجور المهربين. انتشرت في أحياء المدينة محلات بيع الألبسة المستعملة، التي لاقت إقبالاً كبيراً، بعد التساهل من مديرية الجمارك ومديرية الصحة اللتين كانتا تمنعانها قانونياً.

يمكن اعتبار رواتب موظفي الدولة والمتقاعدين الأكثر ثباتاً من عموم المداخيل، بينما تهاوى دخل العاملين في القطاع الخاص، على مختلف مستوياتهم ومهنهم (تجار، صناعيين، حرفيين، أصحاب مهن علمية وعمال). اعتمدت هذه الفئات على مدخراتها النقدية التي أكلها الارتفاع الشديد لسعر صرف الدولار. فبعدما ارتفع إلى أرقام غير مسبوقة وغير متوقعة بلغت ٢١٠ ليرات سورية للدولار، وعاد ليستقر نسبياً على ١٥٠ ليرة. الفئات نفسها اعتمدت في معيشتها - أيضاً - على بيع مدخراتها العينية، من ذهب

ومجوهرات ومقتنيات موروثة، كالسجاد والأواني الخزفية والنحاسية. يشير هذا إلى انهيار هذه الفئات، في مقابل صعود أثرياء الحرب وتجّار الأزمات الذين يُعرف بعضهم بسوابقه الجنائية.

عادت جميع الدوائر الرسمية للنهوض بأعمالها، بعد تأمين مقرات اضطرارية جديدة لها في أبنية غير مؤهلة إلا جزئياً، ويعاني معظمها من انقطاع الكهرباء والازدحام الشديد. لذا؛ لجأ معظم الناس إلى مخلّصي المعاملات المتواطئين مع الموظفين الذين يتقاضون مبالغ مضاعفة لقاء تيسير المعاملات.

جرى نقل النازحين المقيمين في المدارس الحكومية، إلى أحياء قيد الإنشاء في منطقة الحمدانية. لكن قسماً كبيراً من النازحين ظل مقيماً في المدينة الجامعية، وعادت أجزاء منهم إلى قراها، فارتاح سكان الأحياء التي كان النازحون ينزلون فيها، بعدما شكّلوا عبئاً كبيراً عليها، نتيجة اختلاف العادات والسلوك بين الطرفين. وبعدما كان المزاج العام متضامناً مع النازحين في البداية، تحول متشنّجاً وعدائياً. مع مرور الوقت.

بعد التغيب الجماعي لطلاب المدارس الحكومية عن مدارسهم في العام الدراسي ٢٠١٢-٢٠١٣، بسبب إيواء النازحين في تلك المدارس، لم تعد تتوفر الدراسة إلا لأبناء المقتدرين مالياً على تحمّل نفقات ما تبقّى مفتوحاً من المدارس الخاصة. صار التلامذة والطلبة يترفّعون من الصفوف، بعد خضوعهم لامتحانات صورية. وبعدما أخليت، تم إخلاء المدارس الحكومية من النازحين، عاد الطلاب إلى مدارسهم في العام٢٠١٣-٢٠١٤، الدراسي، لتبدأ معاناة أخرى، أبرزها عدم توفر الكتب المدرسية من مصادرها الحكومية. فقام تجار القرطاسية ببيع الكتب المدرسية بأسعار باهظة، نسبة لأسعارها المدعومة حكومياً. أما المدارس الخاصة؛ فقد استمرت تعمل على نحو طبيعي، ولم يلحظ ارتفاع في أقساطها، أسوة بالارتفاع العام للأسعار. واستمرت عملية التدريس في جامعة حلب، بعد

توقف الاضطرابات الطلابية فيها. لكن عدد طلابها انخفض إلى أدنى من نصفه المعتاد، بسبب ارتفاع بدلات إيجار البيوت للطلاب القادمين من المحافظات الأخرى، وغياب السكن الجامعي الذي يشغله النازحون. هذا إضافة إلى الصعوبات البالغة في التنقل بين المدن والقرى، جراء ارتفاع أجور النقل إلى ما يقارب العشرين ضعفاً، وافتقاده الأمان على الطرق.

المعاناة الأكبر عاشتها المشافي في تأمين المازوت لتشغيل مولداتها الكهربائية، بسبب ندرته، وارتفاع سعره، وتعطل معظم شركات صيانة الآلات الطبية. بقي مشفيا «الرازي» و«الجامعة» الحكوميان يعملان بطاقتهما القصوى. أما من المشافي الخاصة؛ فقد حافظ مشفى «القديس لويس» (المعروف شعبياً باسم «فريشو»)، على سويته العالية في العمل، فيما استمر «المشفى الطبي العربي» بالعمل. أهم مزايا هذين المشفيين عدم انقطاع الكهرباء فيهما إطلاقاً، على الرغم الكلفة الهائلة لتشغيل المولدات. واستمرت مشافي خاصة أخرى بالتوليد والجراحة النسائية، ضمن شروط تقنين الكهرباء إلى حدود، تمكّنها من الاستمرار في العمل.

وعانت المشافي - أيضاً - من هجرة أعداد كبرى من الأطباء الثقة، الحاصلين على شهادات دولية عالية. لذا؛ برزت فئة جديدة من الأطباء الذين لم يغادروا المدينة، وانتشرت شهرتهم حديثاً، من دون أن تلاحظ زيادتهم أجورهم، نسبة إلى الارتفاع الكبير في الأسعار. بعض هؤلاء الأطباء حرص على معالجة الفقراء مجاناً. أما معامل الأدوية؛ فقد أغلق معظمها، بعد تعرّضه، للنهب، أو لفرض الإتاوات المنهكة، وعجز أصحابها عن توفير الأمان لعمالها وموظفيها.

وشهدت الصيدليات افتقاد أعداد كبيرة من أدوية القلب والشرايين وسواها من الأمراض المزمنة، وانخفضت فاعلية جرعات الدواء، وبات يعوض النقص من مصادر غير محلية، مصرية على وجه الخصوص.

تعاني الأحياء من الاكتظاظ السكاني، بعد نزوح أعداد كبيرة إليها،

حلت مكان قدامى سكانها الذين هاجروا بأعداد غير قليلة. كثيرة هي البيوت التي تشاركت عائلات السكن فيها. يضاف إلى ذلك السكن في المكاتب والأقبية والعيادات الطبية التي غادرها أصحابها. الطلب شديد على الإيجار، في مقابل ندرة البيوت الخالية التي يتخوف أصحابها من تأجيرها لمستأجرين، قد يعصون فيها. وهناك إقبال على شراء البيوت والعقارات، على الرغم من تزايد أسعارها أضعافاً، وندرة عروض البيع. وقد يكون الإقبال على شراء العقارات الوسيلة المتبقية «لدفن» المال، بعد تزايد احتمالات سرقته، وعجز أصحابه عن حراسته. هذا على الرغم من أن شراء بيت، قد تحوّله أنقاضاً قذيفة واحدة من قذائف جهنم. كأن الناس دخلوا في دوامة من المجازفات والمراهنات التي لا تنتهي، ولا مخرج منها.

طرأت على الأخلاقيات العامة تغيّرات كبيرة وواضحة. وهذا أمر متوقّع في حالات الحروب والنزوح والفقر والبطالة. أضحت عروض الدعارة مشهداً مألوفاً في الأماكن العامة، إضافة إلى الحضور العلني للمثليين في تلك الأماكن. ويكاد لا يخلو شارع من الشحاذين والبسطات التي تعرض بضائع لا تتجاوز قيمتها ألفي أو ثلاثة آلاف ليرة، هي كل رأسمال البائع.

لا أعرف كم سأبقى مقيماً في القاهرة، التي اخترت الإقامة فيها، بمساعدة من قريبي الذي مضى عقدان على هجرته إليها مع عائلته، ليعملوا هناك في صناعة النسيج. ولا أعلم إن كنت سأجد عملاً في القاهرة، وأتمكن مع أسرتي من الانسجام مع مناخها وحياتها الاجتماعية. لا أدري متى ستنفد مدخراتي التي أودعتها في حساب مصرفي، ولا متى أعود مع أسرتي إلى حلب، لأسجّل أولادي في المدرسة، ونكمل حياتنا معاً. وقد يكون رحيلي إلى القاهرة، بداية لرحلة أخرى، بلا عودة.

الفصل الخامس
في انتظار الموت في حلب

ماثيو أيكنز، كريستوف رويتر
ترجمة طارق أبي سمرا

١) حياة وآلام مجانين الدفاع المدني في حلب

ماثيو أيكنز(*)

في غرفة المركَز الضيِّقة، طلع الفجر عليهم منطرحين كجثث على حُصُرٍ متسخة، وعلى سرير معدني، يميل بثقلٍ إلى أحد جوانبه. أجسادهم متلاصقة، بعضهم لا يزال في ثيابه منذ ليلة البارحة. إنه يوم من أيام حلب المعتادة، ولن يلبثوا أن يستيقظوا على هدير المروحيات والطائرات المغيرة؛ لتلقي براميلها المتفجرة وقنابلها على هذا القسم من المدينة الخاضع لسيطرة الثوار، والذي سعى النظام إلى أن يحيله غباراً. غير أن هذا الصباح كان هادئاً، فواصلوا نومهم.

كان خالد حجّو، قائد فريق الدفاع المدني في حي هنانو، واقفاً خارج مكتبه المجاور للغرفة. أخذ مجّة من أولى سجائره الجيتان التي يستهلك منها الكثير يومياً، ثم راح يستطلع إقليمه الصغير. يقع المركَز - وهو منزل من باطون من طبقة واحدة - في إحدى زوايا رقعة أرض إسمنتية، بحجم ملعب كرة قدم، يحوطها جدار من حجر، علُوُّه ثلاثة أمتار ونصف المتر. في الطرف المقابل، هنالك كومة إطارات قديمة وونش معطَّل. رقعة الأرض هذه كانت سابقاً موقفاً للسيارات المحجوزة، فاستعملت لدواعي الحرب، كحال الكثير من المواقع والمباني في حلب.

---

*) نشر هذا التحقيق على موقع مجلة «ماتر» Matter الإلكترونية بتاريخ ١٥ سبتمبر/ ايلول ٢٠١٤. العنوان الإلكتروني لموقع المجلة هو:

https://medium.com/matter/whoever-saves-a-life-1aaea20b782

كاتبه هو ماثيو أيكنز Matthiew Aikins الذي مكث مدة في حلب في يونيو/حزيران ٢٠١٤. والكاتب صحافي كندي، عُرف بتغطيته الحرب في أفغانستان، وعمل كذلك مراسلاً من باكستان وسوريا، ونُشرت كتاباته في العديد من الصحف والمجلات، ك "الغارديان" و "الأتلانتك" و "هاربرز" و "الرولنغ ستون" و "جي كيو". حاز على عدد من الجوائز، من بينها جائزة جورج بولك للصحافة. وقد جرت الترجمة والنشر بموافقة من الكاتب.

بالرغم من موقعه في حيّ هنانو القريب من خطّ التماس، والمعرَّض للقصف الجوي ونيران المدفعية، لم يكن المركز متين البناء. فقذيفة هاون بإمكانها اختراق سقفه على الأرجح، فما بالك بقذائف الهاوتزر التي تسقط - أحياناً - في باحته. مع ذلك، فإن للمركز مزاياه. فهو يقع على هضبة، وتحوطه قلّة من المباني المنخفضة، ما يسمح لأعضاء الدفاع المدني برؤية الغبار المتصاعد وأعمدة الدخان، فيباشرون فوراً عمليات الإنقاذ. منذ تأسيس الفريق، قبل أكثر من سنة، اتخذ أعضاؤه هذا المبنى مقراً لهم، ومكثوا فيه طوال شتاء المجازر الطويل وأصعب المحن، حينما اضطر السكان إلى الفرار من المدينة هلعين، فصارت قنابل بشار الأسد تسقط الآن، بالوتيرة نفسها، على المباني الخالية والمسكونة.

شاحنة صغيرة حمراء مركونة في الخارج، على بابها الجانبي عبارة FREIWFEUERWEHR أي «رجال الإطفاء المتطوعون». تحتها، بالعربية والأسود: «الدفاع المدني- حلب». على هذه الشاحنة المتينة التي تبرع بها الغرب، بدأت تظهر علامات استخدامها لأشهر عدة في منطقة حرب: ثقوب الرصاص منتشرة على أبوابها وزجاجها الأمامي المتفسّخ. لكنها لا تزال تقوم بالمهمة المطلوبة، مسرعة بالمسعفين إلى موقع الانفجار.

أعضاء الدفاع المدني هم من عمّال الإغاثة القلائل الذين عايشوا الصدمات التي توالت على حلب، فمكثوا فيها للعناية بالمدنيين العالقين على خطوط القتال الأمامية. أجلوا الجرحى والجثث، وكافحوا الحرائق، لكن ما عُرفوا به، وأذاع صيتهم في سورية والخارج، هو انتشال الأحياء من تحت الأنقاض في عمليات إنقاذ دراماتيكية.

لدى سماعهم دوي انفجار، يتكدسون في مقصورة الشاحنة الأمامية: عشرة رجال أو أكثر على مقعدين طويلين فقط، ينطلقون بحثاً عن الموقع المتضرر. كعملات معدنية في علبة تنك، تخضّهم الشاحنة صعوداً وهبوطاً، كلما مرَّت فوق حفرة، فيما يعلو صوت صفارة الإنذار قديمة الطراز، فيصمّ

الآذان. يلمحون - أحياناً - سيارة إسعاف، فيلحقونها، لكنهم غالباً ما يكونون أول الواصلين إلى موقع الانفجار. أثناء سير شاحنتهم المسرع، يخرجون أجسادهم من نافذتيها، ويسألون المشاة عن مكان سقوط القذيفة. من ردات فعل الناس يعلمون مدى اقترابهم من المكان. أثناء تقدم الشاحنة - فيما العابرون يشيرون بأيديهم إلى مكان ما، أو يهزّون أكتافهم كناية عن جهلهم مكان الانفجار - يصير المحتشدون، أخيراً، أكثر هيجاناً، إلى أن يلمح المسعفون في عيونهم وحشية الموت ورعبه، أو هلعهم على جارٍ، حوصر تحت الأنقاض.

عمليات الإنقاذ شديدة الخطورة، بسبب تكتيك الضربات المزدوجة التي يستخدمها النظام، معيداً قصف الموقع نفسه مرة ثانية، لإصابة عمال الإغاثة والحشود التي تكون قد تجمّعت. هكذا قتل ثلاثة من فريق هنانو في شهر مارس/ آذار ٢٠١٤، إضافة إلى مصور كندي، من أصل مصري، أتى لتوثيق عملهم.

قذف خالد سيجارته في الباحة التي كانت موقفاً للسيارات. عمره ثلاثون عاماً. بشعره الأشعث وأنفه المستقيم وحنكه البارز الذي يخفف من حدته امتلاء خديه وشفتيه، يبدو كطالب دراسات عليا أكثر منه شخصاً، أمضى السنة الأخيرة من حياته منغمساً في الدماء وغبار الأنقاض. كان حتى وقت قريب، يسرّح شعره على شكل ذيل الحصان في مدينة، سيطرت عليها تدريجاً مجموعات إسلامية مناهضة للغرب. بدأ كرشه يبرز جراء الليالي الكثيرة التي يمضيها جالساً، متناولاً الفاكهة والمكسرات، مصغياً إلى أصوات القصف، ومنتظراً نداء استغاثة. تظهر تجاعيد حول عينيه عندما يبتسم، لكنه غالباً ما يبقى هادئاً جامداً، محافظاً على رباطة جأش، لا تتزعزع حتى في وجه الموت. هذا ما يبرر احترام أعضاء فريقه الجامحين وطاعتهم إياه: «عليك الحذر من الشخص الهادئ «، ردد سُرْخاي (Surkhai)، مهرج المجموعة.

داخل كوخ متهالك، يستخدمونه كحمام على مقربة من المركز، غسل خالد وجهه، ثم عاد إلى مكتبه المجهّز بكرسيين، وطاولة تكسوها الخدوش، ورف صُفّت عليه ملفات المركز. وعلى الحائط، عُلِّقت شهادة تقدير من مجلس المدينة، وتدلّت من السقف لمبتان عاريتان.

سمع خالد أصوات حركة أعضاء الفريق الذين كان حاضراً منهم في ذلك اليوم بعض من المخضرمين الأكثر جدارة بالثقة. هم على كل حال مجرد أولاد. أكبرهم سناً سُرْخاي و(Shahoud) سعود(؟): توأمان ضخمان في الثامنة والعشرين، يغطي الشعر الكثيف جسميهما، عدا قمّة الرأس. الباقون معظمهم في العشرين، أو في الحادية والعشرين. أما علي النحيل بتسريحة شعره القصير في مقدم الرأس، الطويل في مؤخرته؛ ففي التاسعة عشرة. وحده أحمد - الغلام الذي يطوّح به طوله الفائض، وذو اللحية الصغيرة في مقدم ذقنه - يملك خبرة في أعمال الإغاثة ما قبل الحرب، حينما عمل أطفائياً مثل والده.

عددهم الإجمالي ثلاثون. ١٢ منهم - تقريباً - يتواجدون عادة، في الوقت عينه، في المركز. فهم يتناوبون على العمل، إلا قائدهم الذي لم يتغيّب يوماً قط. أحب خالد الفريق، وأحب التقارب الجسدي والعاطفي بينه وبين أعضائه، فصار هؤلاء الرجال حياته كلها. شخصيته القديمة، عندما كان طالباً في كلية الحقوق، ويعلِّم في مدرسة مهنية، تبدو بعيدة بُعْدَ منزل عائلته خلف خطوط النظام.

امتَدَّ سكون الصباح إلى ما بعد الظهر. لم يصدق خالد الهدوء المخيِّم عميقاً على كل شيء. إنه لأمر مريب، فقد مرّ يومان على آخر مذبحة كبيرة، عندما سقط برميل متفجّر في سوق خضر، وقتل العشرات. لعلَّ النظام كعامة الشعب في حال ذهول بعد سقوط الموصل في أيدي المجموعة المنشقة عن «القاعدة»، والمعروفة ب "داعش"، يتكهّن رجال المركز. كانت حرارة الصيف تشتد في حلب، فقرر خالد عدم حثّهم على القيام

بالتمارين، أو أعمال التنظيف. أحمد راح يلعب مع القطة الجرباء، لولو، التي تتسكع عادة حول المركز، بينما انضم علي وسُرْخاي إلى لعبة ورق بليدة، كانت تجري في غرفة النوم.

في الأثناء، سحب خالد أَنَس جانباً، وجلسا على مقعد. كان خالد يُعِدّه لدور قيادي، فراحا يتكلمان عن الفريق، وعمن يحسن القيام بعمله، ومَن يبدو أنه بحاجة إلى فترة راحة. لأَنَس، بقامته الممشوقة ورموشه الطويلة وفكِّه المرسوم بدقة، هيئة نجم معبود من المراهقين. عمره ٢١ عاماً، لكنه يبدو أصغر بكثير. يحمل مسدساً مشكوكاً في حزامه خلف الظهر. يحاول الآخرون إغاظته أحياناً لكونه جميلاً جداً، فيتقبّل الأمر بروح دعابة، قائلاً إن الرجال أخذوا يتحرشون به بعدما اختفت النساء من الأمكنة العامة في هذه المدينة التي دمرتها الحرب: «كنت في السوق منذ بضعة أيام - يخبر رفاقه ممازحاً- فلمحني جهادي ملتحٍ، واقترب مني». قبل أن يتابع، غيّر أنس لهجته، مقلّداً لهجة الجهادي:

- يا شيخ، يا شيخ!

- شو؟

- التدخين حرام!

- سحب أَنَس سيجارة ونستون قائلاً:

- بَعْرِفْ.

يُذبِّل عينيه متظاهراً بأنه ينظر إلى شخص وهمي، من رأسه إلى أخمص قدميه:

- يا شيخ، يا شيخ!

- شو؟

- تعطيني الفايسبوك تاعك؟

- انفجر الفريق بالضحك.

يستمتعون بهدوء ما قبل العاصفة، فَكَّرَ خالد. الجميع في سورية، سواهم، متعطّش للعمل. لكن خالد يعلم - أيضاً - كيف سيصيبهم السأم والتململ، إن ظلوا على هذه الحال، بلا حركة أو نشاط. فسوى المخاطر المشتركة التي يواجهونها، لا شيء يجمع بينهم. لديهم أنشودتهم التي يرددونها، فيما هم يُهرعون مسرعين إلى موقع الانفجار:

«يا منيك، يلي تحت الأرض/ جايين نشيلك. يا منيك، يلي بقلب النار/ جايين نطفّيك».

مساءً، فيما الضوء ينوس، وتنتشر الظلال، سمع أعضاء الفريق صوت هدير منخفض وبعيد. لقد عادت مروحيات النظام. كصيادين أمضوا أوقاتاً طويلة متربصين في الغابة، يميزون الأصوات في المدينة. يقول أحمد - أحياناً - من غرفة النوم: «هذه قذيفة مدفعية»، أو «هذه طائرة نفاثة». في أحيان أخرى، يقول: «الآن سيطلقون النار من الدوشكا»، فيسمعون إذ ذاك - كأنما أحمد كبس زراً ما - صوتَ تحطم طائرة ميغ على الجبهات الأمامية. قد تحلق هليكوبتر فوقهم تماماً، فلا يتأثرون. من صوت مراوِحِها يدركون أنها منحنية. هي - إذاً - في طريقها إلى مكان بعيد. الهليكوبتر التي تستعد لإطلاق البراميل المتفجرة، على خلاف ذلك، تحوّم فوق المكان، ويكون صوتها أشبه بهدير محركات الطائرات النفاثة العميق.

بدت المروحية التي سمعوا هديرها الخافت كبقعة صغيرة شاحبة في السماء. بينما كانوا واقفين في الخارج لمشاهدتها، انفصلت عنها نقطة، راحت تسقط بطيئاً بطيئاً. دويّ بعيد، أعلن عن اصطدام تلك النقطة بالأرض. لقد أسقَطت الطائرة - وهي مروحية نقل روسية من طراز هايند - برميلاً متفجراً، ذاك السلاح المرتجل، الفتاك، المفضل لدى النظام.

هذه القنبلة هي برميل للوقود فارغ، أو خزّان فارغ للغاز. يُحشى البرميل أو الخزان بحوالي ٩٠٠ أو ١٠٠٠ كلغ من قطع الخردة الفولاذية، أو الحديد المسلح، يُداخلها فتيل بدائي الصنع. تتحول القنبلة هذه شظايا ملتهبة

لدى انفجارها. هي بحجم قنبلة تقليدية، وباستطاعتها هدم واحدة من العمارات الإسمنتية الرديئة البناء التي تشكل الجزء الأكبر من المشهد العمراني، في حلب. ليس بمقدور القوات السورية تصويبها، بدقة. هذا أمرٌ، بلا أهمية، في واقع الحال. فالهدف من إلقاء هذه البراميل، أو الخزانات المتفجرة، هو إرهاب السكان، وجعل المدينة غير قابلة للعيش.

انتظر أعضاء الفريق سقوط القنبلة الثانية (تحمل الهليكوبتر قنبلتين عادة)، ثم صعدوا إلى متن الشاحنة التي توجّهت مقرقعة إلى مكان الانفجار. سائقها، أبو ثابت، رجل كبير في السن، حزين الوجه، يملك سيارة أجرة. كان يقود شاحنات ثقيلة قبل الحرب. لديه قدرة تحكّم عالية بشاحنة الدفاع المدني الصغيرة، فيعرِّج بها برشاقة بين الركام. أبنية الحي؛ حيث سقطت القنبلة، قليلة ومتباعدة، وقال بعض الرجال الحاضرين على مقربة إن أحداً لم يصب. نزل خالد للتأكد، فتبعه أعضاء الفريق. تخطّوا أحجار باطون متناثرة، وتقدموا بين البيوت الصغيرة المهدمة. كان الهواء لا يزال مثقلاً بغبار الأحجار المسحوقة، كسحابة ذهبية في الغسق. «في حدا هون»، صرخ رجال الدفاع المدني بين الأنقاض، فلم يتلقّوا أي جواب. «خلينا نفل، يا شباب، يمكن ترجع الهليكوبتر»، قال خالد مُلَوِّحاً باللاسلكي.

بعد عودتهم إلى المركز، وقفوا خارجاً، يمزحون، فهذه العملية الوجيزة أيقظتهم من سبات، دام طوال النهار. فجأة صرخ أبو ثابت، مشيراً إلى الأعلى: «طائرة!»، فقفزوا جميعاً متطلعين إلى السماء. لم تكن سوى نجمة، فالنجوم قد بدأت تنتشر في سماء الليل البنفسجية.

- هي لا تُحَلِّق، وأضواؤها مشتعلة، سخِر أَنَس.

- ربما نسي الطيار فرام اليد، قال سُرْخاي ممازحاً.

استقلَّ أبو ثابت سيارته، خجِلاً اتجه إلى منزله. زوجته وأولاده لا يزالون في المدينة. انصرف باقي أعضاء الفريق إلى روتينهم المسائي. تمددوا في أرجاء غرفة النوم التي تحتوي، إضافة إلى السرير والحُصَر، مروحة وموقد غاز

وجهاز تلفزيون صغيراً، من على شاشته يتلقّون نشرات أخبار الثوار والنظام. أحضر أحدهم من السوق خوخاً أحمر شهياً. لم يكن نصف المدينة الخاضع لسيطرة الثوار قد حوصر حصاراً كاملاً بعدُ (كانت قوات النظام وتنظيم «داعش» تضيّق عليه تدريجاً من كلا الجانبين). لكن مواداً غذائية كانت لا تزال متوافرة في الأسواق القليلة التي بقيت مفتوحة. امتصّوا حموضة نواة الخوخ، وفتحوا علبة فستق. مرَّت ساعة. حدث دوي ووميض هائلين.

التعرض لانفجار قريب، هو اختبار الضوء والصوت كصمت في الظلام. صمتٌ، إذ يعلو طنين أذنيكَ فوق كل صوت. وظلام؛ إذ يطوقُكَ كلياً الغبارُ والدخان. امتلأ الفضاء بقطع أحجار باطون متطايرة، وقُذِف شباب الدفاع المدني إلى الأمام، فارتطمت أيديهم بالأرض التي صارت حقلاً من الركام. نهض خالد، واتجه مسرعاً، في الظلام الدامس، مع باقي الفريق، نحو موقف السيارات. لقد انهار نصف المركز، انقطعت الكهرباء، وأصيب عمر مع شاب آخر. المجموعة التي يرأسها خالد، رمت المصابين على أحد المقاعد الأمامية للشاحنة، وانطلقوا مسرعين. الباقون اجتازوا الشارع ركضاً، جلسوا القرفصاء في مساحة ضيقة بين منزلين. كان بإمكانهم سماع الطائرات تقترب من جديد، ورؤية رصاص أحمر خطاط، يعلو لملاحقتها من مواقع الثوار. سُمع دوي انفجار قريب آخر. فُتحَ باب أحد المنزلين. هُرع منه زوجان شابان مع طفل رضيع، يحتضنه الرجل، واختفوا بسرعة في ظلمة الليل.

هدأ القصف بعد حوالى عشرين دقيقة، فتجرؤوا على التدخين مجدداً. خرج أَنَس وسُرْخاي. وقفا على جانب الطريق. هلال القمر الأصفر كان قد ارتفع فوق المركز. لم يرغب أحد بالعودة إلى الداخل تحسباً لعودة الطائرات. سُمعت جلبة سيارة إسعاف. ترجّل سائقها، وحدق بهم مذهولاً، وقال: «جئت بأسرع ما يمكن عندما رأيت الانفجار». كان بالإمكان رؤية بياض عينيه. «لقد نجَّاكم الله؛ لكي تنقذوا الآخرين»، تابع قائلاً.

عادت الشاحنة، فترجّل منها خالد قائلاً: «عمر بخير. لقد جرحت

قدمه فقط». وقف لحظة يتفقد الوجوه المتجهِّمة التي شكّلت نصف دائرة من حوله. كانوا مضطربين بشدة؛ لكن أعضاء فريق هنانو لم يسبق لهم الفرار من موقع انفجار. خالد اتخذ قراره بسرعة: «سنبقى هذه الليلة لحراسة المركز، وننتقل إلى مكان جديد في الصباح». أومؤوا برؤوسهم، أشعلوا سجائر، وراحوا يتمازحون لكسر التوتر.

- آمل أن ننتقل إلى مدرسة كبيرة ومريحة، قال أَنَس.

- إنهم يستهدفون المدارس دائماً، أجابه سُرْخاي.

جلسوا في صف واحد على حافة الرصيف، متكئين كتفاً إلى كتف، مستمعين إلى أصوت القصف، فراحت جمرات سجائرهم تلمع واحدة تلو أخرى، حتى حلَّت الشمس محل القمر.

عند بزوغ الفجر رأوا كم سقطت القنبلة قريباً. كان البيت الكبير المجاور قد اختفى. حلت مكانه حفرة عملاقة مليئة بالحطام، وفي وسطها بضع صفائح فولاذية ملتوية من النوع الذي يُستخدم لصناعة خزانات الغاز، وهي كل ما تبقّى من برميل متفجر، أطاح، إضافة إلى المنزل، بعشرين متراً من جدار الحجر السميك الذي يحوط بالموقف، وبقسم من مركز الدفاع المدني. لو سقط البرميل عشرة أمتار أقرب؛ لكانوا - الآن - في عداد الموتى.

لا خيار لهم سوى الرحيل، فالمبنى على وشك الانهيار. تلقوا خسارتهم مركزاً، بكوا فيه كثيرين من زملائهم، كصدمة معنوية. الأمكنة المهجورة كثيرة في حلب. باكراً في الصباح، كان خالد قد استطلع مدرسة في منطقة مجاورة. مبنى المدرسة صلب، من ثلاث طبقات إضافة إلى طبقة سفلية، بإمكانهم اتخاذها مركزاً وموقفاً كبيراً للشاحنات. ستفي هذه المدرسة بالغرض. اتصل خالد بفريق دفاع مدني آخر (عددهم أربعة في حلب) لإحضار شاحنة، ينقلون فيها لوازم المركز.

سمعوا - وهم يحمِّلون المعدات في الشاحنة - هدير مروحية مقتربة، فهربوا. كانوا لا يزالون تحت تأثير رعب الليلة الماضية. بعد سَمَاع دويين

متتاليين، خرجوا من مخبئهم ينفضون الغبار عن أجسامهم، متمازحين حول مَن كان منهم الأسرع في الفرار.

وصلهم نداء على اللاسلكي العتيق والرديء: لقد أصيب مدنيون. فَوَّضَ خالد ربيبه أَنَس قيادة شاحنة الإنقاذ، ثم قفز إلى داخلها مع مجموعة من شباب الدفاع المدني. انطلقت بهم الشاحنة مسرعة في اتجاه مصدر الدخان، بينما علا صوت صفارة الإنذار. أصاب الانفجار شارعاً رئيسياً في منطقة صاخور، على مقربة من حديقة عامة، وتقاطع طرق، يخترقه حاجز ترابي للوقاية من نيران القناصة. «توقفوا، توقفوا، توقفوا، توقفوا توقفوا»، صاح أَنَس لدى بلوغهم مسافة آمنة. قفزوا من الشاحنة، وراحوا يركضون نحو موقع الانفجار. لقد أسقطت الهليكوبتر برميلين متفجرين ضخمين، فخلَّف الأول حفرة في الطريق. الثاني سقط على طرف الحديقة العامة، وأشعل شجرة نخيل كبيرة. سيارات عدَّة منتشرة في المنطقة صارت هياكل ملتوية. حشد من الثوار والمدنيين، إضافة إلى سيارات الإسعاف، كانوا قد تجمعوا.

ركض عليّ نحو شيء ما، بالكاد يمكن أن تعرف ماذا يكون. كان رجلاً بديناً عارياً، يغطيه غبار الباطون المطحون. قُطِع إلى نصفين عند الصرّة. أمعاؤه متدلية مبعثرة وراءه. إحدى ساقيه مطوية فوق كتفه. ملقىً على ظهره، عيناه مغمضتان. لكنْ؛ حينما دنا علي منه، ارتفع صدره، ثم هبط لمرة واحدة. همد بعد ذلك. سحب علي قفازات لاتكس. لم يكن في الإمكان فعل أي شيء. أخذ حراماً، وراح يجمع فيه الإشلاء، بقدر ما استطاع، ثم رمى الحرام كصرة في مؤخرة سيارة الإسعاف؛ حيث تتراكم الجثث.

صرخ أحد الثوار الواقفين على الطريق: «يوجد أولاد في تلك السيارة». هرع أَنَس نحو سيارة زرقاء صغيرة، مسحوقة ومجعلكة، على مقربة من موقع الانفجار الثاني. تبدو السيارة كأنها سقطت من الفضاء مع القنبلة. متوترا محموماً، راح أنس يخلع الباب بواسطة قضيب معدني. أمّ وطفلاها في المقعد الخلفي. رأس الأم مقطوع، وجها الطفلين شاحبين جامدين. بدا

عليهما الجمود والشحوب، فيما يرفع أنس جسديهما الصغيرين. الصبي فقد رجله اليمنى من تحت الركبة. أخته تلقت شظية مميتة في الصدر.

مكان الانفجار على مقربة من مستشفيات عدة، نُقل الجرحى إليها، بينهم سائق السيارة الزرقاء، زوج المرأة المقطوعة الرأس، ووالد الطفلين. أعضاء الفريق يدركون أن ما يقومون به ليس سوى انتشال الجثث من تحت الأنقاض، لكنهم تابعوا عملهم مستعجلين، لأن الموقع مكشوف، وقد يتعرض لقنابل الهليكوبتر التي قد تعود في أي لحظة. الجو حار، عابق برائحة أكثر حدَّة من رائحة الدم. صرخ أحد محذراً من قدوم طائرة، فتفرق الحشد إلى قطعان مذعورة، راحت تركض في كل اتجاه. لكنه كان إنذاراً كاذباً، فعاد أعضاء الدفاع المدني - بعد انتشالهم آخر جثة - إلى شاحنتهم، وتوجهوا إلى المركز القديم. كانت العملية برمتها قد استغرقت خمس عشرة دقيقة.

حتى لغسل الأيادي من الدم لم تكن المياه متوفرة. فالحمام دُمِّر في انفجار الليلة الماضية. في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، لم ينم أي منهم قط، لكنهم شاركوا جميعاً في إخلاء المركز من عتاده: الأسِرّة، الطاولات، وعدة الإنقاذ التي تبرّع بها الغرب. خرج أحمد وسُرْخاي من مكتب خالد يحملان الأريكة القديمة. بينما كانا يرفعانها، صدر عنها مواء حزين. «لولو!»، قال أحمد. أمالا الأركية، وبدءا يهزّانها، وكأنهما يريدان إسقاط عملات نقدية منها، فوثبت الهرة بعد لحظة، ثم راحت تفرك جسمها، بأرجلهما.

كانت هي - أيضاً - أحد الناجين من القصف.

المدرسة ذات الطبقات الثلاث قلعة متينة من الباطون والحجر، على عكس مركز هنانو. كانت قبل الحرب مدرسة ابتدائية، فتوالى عليها - لاحقاً - لاجئون مختلفون، كحال الكثير من المباني الرسمية. العلامات التي خُطَّت على جدرانها تمثل نوعاً من تأريخ للثورة السورية غير المكتملة. فوق

رسومات الزهور والفراشات طبقات عدة من الغرافيتي: «أ. يحب م.»، تعود - ربما - إلى حقبة ما قبل الثورة. وهذا شعار المتظاهرين «سورية حرَّة»، ثم هذه أسماء بعض الميليشيات والكتائب التي تشكلت على عجل، وفرضت سيطرتها تباعاً على المنطقة. أخيراً ها هو ذا علم داعش الأسود المشؤوم. ف«الدولة الإسلامية» تشكِّل خطراً على حلب، ومناطق الريف الشمالية.

عندما ذهب خالد في أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٣، لاستلام خمس شاحنات إطفاء تبرع بها الغرب، اعتقله قائد من «داعش» على الحدود، وصادر الشاحنات. لكن الثوار أخرجوا «داعش» بالقوة من المدينة في يناير/كانون الثاني ٢٠١٤. لكن تنظيم «الدولة الإسلامية» عاد إلى الصعود مجدداً، فقواته متمركزة على أقل من ثلاثين كلم شرق حلب، وهو يتقدم.

بالرغم من أن جميع أعضاء الفريق يعتبرون أنفسهم مسلمين ملتزمين، فإن معظمهم كان غير معني بالإسلام الأصولي الذي راح يسيطر على مجموعات الثوار المقاتلين. ضاقوا ذرعاً بفساد النظام وممارساته القمعية، فشاركوا في التظاهرات السلمية التي اندلعت أثناء الربيع العربي سنة ٢٠١١. لكن هذا الحراك تحوَّل تمردا مسلحا، بعد المجازر التي ارتكبها النظام بحق المتظاهرين. بحلول يوليو/ تموز ٢٠١٤، كان الثوار قد استولوا على نصف مدينة حلب، لكنهم وجدوا الطرق مقفلة على طول الجبهات الأمامية، فظل الوضع على حاله، عموماً، منذ ذلك الحين.

بداية، كانت الحياة مليئة بالأمل في القسم الذي سيطر عليه الثوار من المدينة. التقدم الذي أحرزه الثوار في الأرياف، فتح لهم خطوط الإمداد إلى تركيا، فعاد لاجئون كثر من الذين فرّوا اليها بعد المعارك الأولى. كانت الأسواق تعجّ بالبضائع والمتسوقين، وتطوع كُثُرٌ من المدنيين لتسيير أمور الحياة في المدينة. خالد نفسه انضم إلى مكتب للثوار كان يوزع المواد الغذائية على المحتاجين، ثم تطوع معلماً في مدرسة. لكن القصف الجوي تصاعد، وراح يستهدف السكان، فتساقطت صواريخ ضخمة، من طراز

سكود، في فبراير/شباط ٢٠١٣، على أحياء تابعة للثوار، ودمّرت العشرات من البيوت، وأودت بحياة المئات.

آنذاك، صارت جليَّة الحاجة إلى فريق إغاثة مدني. فالقنابل لم تقتل الناس، وتتسبب لهم، بإعاقات، وحسب، بل كانت تدفنهم تحت الأنقاض. كل غارة كانت بمثابة هزة أرضية. لدى انهيار أي مبنى، يحتشد سكان الحي كلهم خارجاً، ويباشرون النبش في الحطام والركام، ضاربين بأدوات بدائية على كتل الباطون لتفتيتها. في خِضَمِّ هذا الصخب، يتعذر سماع صراخ شخص مدفون يطلب النجدة. أحياناً، قد يأتي أحد بجرافة، ويبدأ بإزالة الركام، فيقتل - في أغلب الأوقات - مَن بقي حياً داخل الأبنية المهدمة. كان يمكن - إذاً - إنقاذ مَن علقوا، فهم - عادة - يبقون على قيد الحياة أياماً، إن لم تكن إصاباتهم بليغة، لكن هذا يتطلب عمال إنقاذ مدربين.

شُكِّل فريق هنانو من أشخاص منخرطين في المقاومة غير المسلحة، كان أول المتطوعين من حلب. سُرْخاي وأخوه التوأم، شَهُود (Shahoud)، هما العضوان المؤسسان، ثم انضم خالد إليهما بعد فترة قصيرة.

في ذلك الوقت تقريباً، كانت (أ.ر.ك:ARK)، وهي شركة مقاولات مقرها اسطنبول، قد حصلت على تمويل، مصدره الولايات المتحدة وبريطانيا، غايته إرسال «مساعدات غير فتَّاكة» للمعارضة السورية. هذه الشركة جعلت فرق الإنقاذ من أولويتها. وتيرة القصف الذي مارسه الأسد، تعادل ما جرى في الحروب الأوروبية التقليدية، فأعادت (أ.ر.ك) إحياء عقيدة، تعود إلى وقت قصف الألمان لندن أثناء الحرب العالمية الثانية: الدفاع المدني. تعاونت (أ.ر.ك) مع منظمة (أ.ك.و.ت:AKUT) التركية التي تُعْنى بآليات الإنقاذ استجابة للزلازل، على إنشاء مركز في جنوب تركيا لتدريب فرق الإنقاذ الجديدة. هناك تعلَّم شبان هنانو تقنيات البحث والإنقاذ الأساسية، إضافة إلى الاسعافات الأولية، وكيفية مكافحة الحرائق. وهناك أيضا جُهِّزوا بشاحنات وملابس مُوَحَّدة ومعدات، وأُعيدوا إلى سورية.

ما تلقوه من تدريب، أثمر في حينه. ففي خريف ٢٠١٣ بدأ ميزان القوى ينقلب لصالح الأسد. بعدما قتل النظام في ٢١ اغسطس/ آب ٢٠١٣، أكثر من ألفي شخص بواسطة غاز السارين في ضواحي دمشق، ثم رَفَض الغرب التدخل، عاود بشار ضرباته. حلب، المحور الحيوي في الشمال السوري، أحد أهدافه الرئيسة. ولكسر قبضة الثوار على النصف الشرقي من المدينة، لجأ النظام إلى سلاح، كان قد اختبره في مناطق أخرى: البراميل المتفجرة.

أ. أسبوع ال٥٠٠ قتيل

بدأت الحملة العسكرية لنظام الأسد قوية وعنيفة في نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٣. انهمرت القنابل بالعشرات في كل ليلة على أسواق حلب ومبانيها السكنية المكتظة، فقتلت في أسبوعين أكثر خمسمائة شخص، معظمهم من المدنيين. عمل فريق هنانو للدفاع المدني بلا كلل على إغاثة الناس في مواقع الانفجارات، مجزرة تلو مجزرة، من الصباح الباكر حتى أواخر الليل. بالكاد كان لدى الفريق وقت لتناول الطعام.

مع ذلك، ظلوا متماسكين حيال المحن. اثنان منهم تركا الفريق في السنة الماضية. أحدهما استجاب لإصرار عائلته: «الناس ينتظروننا»، يقول، ويرد خالد بعد كل انفجار: «نعرف أنهم ينتظروننا». يرددون الآية القرآنية التالية: «ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً» (سورة المائدة، الآية ٣٢). هذا شعارهم، على الرغم من سخريتهم المُرّة السوداء. فمهمتهم إعانة الضعفاء والعاجزين، مجازفين بحياتهم؛ ليحيا الآخرون، حتى بعد خسارة ثلاثة من زملائهم، وتدمير مركزهم.

ب. حب البنات

مع حلول المساء، بدأت لوازم المركز القديم تتجمع في المدرسة، بما فيها الصنادل البالية التي انتشرت في الردهة. قاعة تدريس فارغة، ولا تزال شعارات «داعش» على جدرانها. رتّبوا المعدات واللوازم، وأخلوا مساحة

للأسرة في الطابق السفلي؛ حيث الحماية من القصف الليلي أفضل. هنالك المزيد من الغرف، لكنهم معتادين على النوم متقاربين. وضع خالد مكتبه وأريكته في الغرفة المجاورة لقاعة التدريس، وأعلن للجميع:

- هذا فندق من خمسة نجوم!

- لا زلت أفتقد المركز القديم، قال سُرْخاي متنهداً.

كانوا جالسين على الأرض في غرفة الاستراحة، لمتابعة محطة الثوار «حلب اليوم» على جهازهم التلفزيوني العتيق المتداعي. لقد رتّبوا الغرفة بطريقة شرقية، واضعين السجاد والوسائد على شكلِ نصفِ دائرة في مواجهة التلفزيون. بالرغم من الواقع المرير في المناطق الريفية، لا تزال المحطة متفائلة مبتهجة، عارضةً لقطة تلو أخرى لثوار يطلقون صواريخ مضادة للدبابات، وقذائف هاون، على مواقع النظام. فجأة، تعرَّف شبان الفريق على أنفسهم.

«انظروا، هؤلاء نحن!» صرخ أَنَس، فرفعوا صوت التلفزيون.

كان المذيع يقول إن النظام قد استهدف مركز الدفاع المدني في هنانو، ودمره، وإنه لم يكن هناك أي إصابات.

«كان علينا أن نخبرهم بأننا قُتِلنا جميعاً، فربما - عندها - يتركنا بشار وشأننا»، قال علي.

شَهود، التوأم الأكبر، جاء بخضر طازجة ومازات وخبز. «وهل تعتقدون أننا سنعيش لوقت طويل؟»، قال مربّتاً على بطنه، ثم وتابع: «نحن نأكل حتى لا يفوتنا شيء»، فتحلقوا جميعاً حول الطعام.

«اسمعوا، يا شباب، سوف أنشَقّ عنكم»، أعلن توأم شهود الأصغر، سُرْخاي، فيما كانوا يشعلون سجائرهم. تناول هاتفه الخليوي، وأراهم صورة امرأة شقراء بلباس مثير واقفة إلى جانب جنديَيْن من النظام. «انظروا إلى هذه البنت، ثم انظروا إلى لِحاكُم»، قال هازاً رأسه، بقرف.

«كل البنات المثيرة في مناطق النظام»، قال أَنَس. «ليس لدينا هنا سوى القاعدة. أما بشار؛ فينكح النساء في جاكوزي منذ بداية الحرب»، قال سُرْخاي غاضباً، وتابع: «إنني مُثار طوال الوقت، لكني لا أعتقد بأنني قادر على أن أُحَبِّل امرأة بعدما عشت على هذه الحال».

«لمَ لا تنكحوا أنفسكم»، اقترح علي.

ضحك خالد، بخجل. هو لم يعرف امرأة في حياته. كانت هناك فتاة قبل الحرب، لكنها تزوجت، من شخص آخر. باقي شبان الفريق - أيضاً - ليس لديهم خبرة مع النساء. بعضهم، كأحمد الرومنطيقي، خاطب. وحده شَهود لديه أسرته الخاصة. لقد عطلت الحرب جميع مشاريعهم. حتى عندما أصبح واضحاً أنها ستطول، لم تشأ عائلات كثيرة تزويج بناتها من أحد مجانين الدفاع المدني.

المزاح، إلى جانب التدخين، هوايتهم الرئيسة. كلما كانت الروابط التي تجمعهم أمتن وأكثر حناناً، ازدادت حدة شتائمهم. ذلك ينطبق خصوصاً على مهرج المجموعة سُرْخاي. فبعد أن وجد في وقت سابق من ذلك النهار طابة معدنية في حجم كرة تنس- تُحدثُ حين تتدحرج صوتاً مريباً، يشبه صوت مروحية مُغِيرَة - راح يدحرجها خلف زملائه، ويتفرج عليهم يقفزون من الخوف.

ليس من السهل الانضمام إلى مجموعة، تربطها لحمة مماثلة. بعد الظهر، جاء شاب ممتلئ الجسم مجعد الشعر، اسمه عمر. إنه في التاسعة عشرة، وطلب الانتساب إلى الفريق. لديهم مكانان شاغران، لكن خالد كان متشككاً. سوف يعطيه فرصة لبضعة أسابيع، ويرى كيف سيتعامل مع الجثث وتكتيك الضربات المزدوجة الذي تتبعه طائرات النظام. كثيرون هم الراغبون في الانضمام، لكن قلة - فقط - تستمر لأكثر من أسبوع. خالد أوكل إلى شعبان (Shaben)، الاعتناء بالمبتدئ، عمر. فشعبان مخضرم، ويمتلك خبرة ثمانية أشهر، وهو ناضج، فقد بلغ الرابعة والعشرين.

لكلٍ لقبه الخاص. علي النحيل يدعى سَنْكُور (Sankour)، أي المتشرد: «لأن له هيئة رجل فقير»، أوضح سُرْخاي.

لطيف في شورته الواسع وشعره الطويل المنفوش المائل إلى الاحمرار، يشبه راكب أمواج من كاليفورنيا، ولقّب بالظواهري، نسبة إلى رئيس تنظيم «القاعدة» الحالي، أيمن الظواهري. فهو سبق أن ارتبط - على نحوٍ ما - بالقاعدة. شقيقاه يحاربان مع «جبهة النصرة»، وقاتل هو الآخر مع مجموعة جهادية، على صلة بـ«القاعدة». لدى سؤاله إن كان يشاركهم نظرتهم إلى دولة سورية قائمة على أسس الشريعة الإسلامية، أومأ برأسه، وقال مبتسماً: «إن شاء الله».

يرى أهله أن ولدين من أبنائهم يشاركان في القتال أمرٌ أكثر من كاف. لذا؛ أرغموه على ترك التنظيم الذي ينتمي إليه. لكنه كان تواقاً إلى المغامرات، فأعلن لأهله: طالما لم أمت في الحرب، فإنني - على الأقل - أريد الاستشهاد. عندما عرف مدى خطورة العمل في الدفاع المدني، انضم إليهم.

«أيريد أن يكون شهيداً؟»، سأل خالد الذي يسمع الحديث. راح يضحك غير مصدق: «لكنه يعشق البنات»، فصاح الشبان موافقين. «لقد ذهب في ذلك اليوم إلى موعد غرامي مع فتاة من مخيم أعزاز». لم يكن ذلك سلوكاً مناسباً لمتطرف.

«هي خطيبتي»، قال معترضاً مومئاً بيديه، كأنه يضع خاتماً في إصبعه. «خطيبتي!»، راح يكرر، بينما علت قهقهات الشبان الآخرين.

ت. براميل متفجرة ومتاعب إدارية

صوت مروحية مُغيرَة أيقظهم. كمراهق نكِدٍ، سحب خالد الشرشف إلى ما فوق رأسه. الانفجار الذي أصمَّ الآذان، كان قريباً. فُتِحتْ الأبواب، وكُسِرَت نافذة. انتظروا الدوي الثاني، وهُرعوا في اتجاه الشاحنة. أبو ثابت

كان قد وصل لتوه مع الخبز الطازج. «الانفجار في صاخور»، قال لهم، فصعدوا فوق أكوام الخبز الذي كان لا يزال ساخناً، وانطلقوا مسرعين.

موقع الانفجار كان قريباً جداً. لقد دمّر البرميل المتفجر بيتاً فارغاً تدميراً كاملاً، وهدم النصف الأمامي، من مبنى، من سبعة طبقات، فبدت دواخل المطابخ والحمامات، كأنما البناية بيت دميّ. قتل شخصان، وفي الأعلى، علقت نساء وأولادهن. من الأسفل، راقب أعضاء الفريق أحمد وأنَس يصعدان درجاً مكشوفاً، ثم ينزلان النساء والأولاد، مكسوة وجوههم ووجوههن بالغبار الأبيض، فبدت النساء كبنات الغيشا اليابانيات.

هم في طريقهم إلى المركز، أراح أحمد رأسه برضى على كتف أنَس. رائع هو الشعور بأن تنقذ شخصاً عالقاً بين الأنقاض، كأنه نصر على القنابل.

لدى وصولهم، لاحظ خالد أن الانفجار خلع باب مكتبه من مفاصله. كان هذا يومهم الثالث في المركز الجديد. نظر نحو السماء. «إلى أين تريدنا أن نذهب!»، صرخ للا أحدٍ، في الفراغ، على وجه التحديد. لاحقاً في ذلك الصباح، عاد أبو ثابت، بسيارة الأجرة، فقرر خالد القيام بجولة على مراكز المدينة. بصفته قائد العمليات الميدانية في منطقة حلب كلها، كان من المفترض أن يمتلك خالد سيارته الخاصة، لكن هذه تعطلت، ولم تقم البلدية بإصلاحها بعد. بدأ يشك في أن التأخير متعمّد من رئيسه عمّار سَلْمُو (Salmo)، قائد الدفاع المدني المعين من أطراف سياسية. خالد يعتقد أن عماراً يحسده على شعبيته.

شركة (أ.ر.ك:ARK) التي جهّزتهم بمعدات الدفاع المدني، كانت تطالب خالداً بأن يزوّدها بلائحة مرشحين لدورة تدريب جديدة، على أن يجري اختيارهم من بين فرق الإنقاذ الأربع ووحدة مكافحة الحرائق في المدينة. كان عليه الحصول على توصيات من قائد كل مركز، فاتجه في السيارة إلى باب النيرب؛ حيث المركز الأقرب. قرع الباب، فلم يلقَ جواباً.

صعد إلى المكتب في الطابق الثاني. لا يزال القائد أبو رَجَب في ثياب النوم يفرك عينيه من النعاس، بالرغم من أن الوقت ظهراً. أطلعه خالد على شروط (أ.ر.ك:ARK) وعن عدد الأشخاص المطلوب لكل صف. سيكون هنالك - بالطبع - تدريب أساسي، وعلى المعدات الثقيلة، إلى دورة على الإسعافات الأولية، وأخيراً دورة على القيادة. أبو رجب يستمع كأنه في غيبوبة، ومن دون أن يدوّن ملاحظة قط: «طيب شكراً»، قال خالد ضاغطاً على نفسه لاحتواء انزعاجه.

تابع طريقه إلى مركز فريق الإطفاء القريب، وهو - أيضاً - تحت إمرة (أبو رجب). وجد واحداً من الشبان الذين كان قد أشرف عليهم، ودعمهم في مسيرتهم. سكب له الشاب شراب الكولا في كوب من البلاستيك، فراح خالد يرتشف الشراب مصغياً إلى الشاب الذي يعبّر عن استيائه من رئيسه. كان الشاب أطفائياً منذ ما قبل الحرب، وهو يعرف عمله جيداً: «يقول لي: إن لم تكن راضياً، فاذهب للعمل مع فريق هنانو»، أفصح الشاب.

هزَّ خالد رأسه: «ماذا حدث لجهاز اللاسلكي؟». أجهزة لاسلكي عدّة كانت قد اختفت من مركز باب النيرب.

«هو يقول إن شخصاً ما سرقه من منزله»، قال الشاب.

«إنه يبيعها، هذا كل ما في الأمر»، تنهد خالد قائلاً. فهذا النوع من الفساد على نطاق ضيِّق غدا مشكلة متفاقمة. العمل في الدفاع المدني كان تطوعاً محضاً من قبل، إلا ان الأعضاء صاروا - الآن - يتقاضون رواتب من البلدية.

«غداً، سأرسل لك شخصاً كفوءاً من فريقي للمساعدة»، قال خالد مربتاً على ركبة الشاب. «إن بَقِيَ غير نافع - قاصداً أبو رجب - سوف نطرده». أنهى شراب الكولا، وتابع: «علينا - ربما - طرد كثيرين».

خرج خالد، وأشعل سيجارة. كلامه عن طرد أشخاص ليس سوى تبجح. بداية، بعدما درّبته شركة (أ.ر.ك:ARK)، شارك في تأسيس مراكز حلب الأخرى. كان آنذاك، بحكم الأمر الواقع، القائد الفعلي لجميع فرق المدينة، وفي يده سلطة القرار في كل ما يتعلق بالمعدات وطواقم عمال الإغاثة. لكن برنامج الدفاع المدني أُلحق بالسلطة المحلية، التي أُلحقت - بدورها - بـ«المجلس السوري الوطني». وهذا كناية عن حكومة الثوار في المنفى، على ما أراد مانحو الغرب، بالرغم من كون المجلس الوطني، حسب ظن خالد وفريقه، كناية عن زمرة سياسيين فاسدين مقيمين في فنادق تركية من فئة الخمس نجوم. وعندما قرر مجلس البلدية اعتباطياً أن على قائد الدفاع المدني امتلاك شهادة جامعية، اخْتِير عمار، ذو الصلات الواسعة بذوي الشأن، على حساب خالد.

عَيَّن عمار في الدفاع المدني المقربين منه كأبو رجب الكسول. عمار يكره خالداً، لكنه لا يستطيع التخلص منه، فلخالد سلطة معنوية كبيرة. بعد مقتل ثلاثة أعضاء من مركز هنانو خلال عملية إنقاذ، رفض مجلس البلدية أن يستمر بدفع رواتبهم لعائلاتهم. نزل خالد ورجاله إلى الشارع رافعين الشعارات، فرفض أعضاء المراكز الأخرى الانضمام اليهم. لكن فرق الدفاع المدني وفريق هنانو خصوصاً، تتمتع بشعبية كبيرة، فأَحْرَجت تغطية الاحتجاج إعلامياً مجلسَ البلدية الذي اضطر إلى دفع الرواتب.

عرف خالد أن عليه ممارسة ما في وسعه من تأثير عبر شبكة الشبان المخلصين له الموزعين بين مختلف فرق الدفاع المدني. ليس بمقدوره فعل أي شيء إزاء فساد مجلس البلدية وعدم فعاليته وتبعيته للمجموعات المسلحة التي تفرض سيطرتها على المدينة. يقول إن استمرار الحرب، حوّل الثورة إلى تطرف ديني وصراع سلطوي.

كان يقف خارج مركز الإطفاء، متحدثاً عن هذا الواقع المزري، فمرت أمامه شاحنة حمراء، كأنما لتثبت أقواله. هي أكبر من شاحنته وأجمل. في داخلها رجال ثلاثة، بنيتهم متينة، حليقو الشاربين، لحاهم طويلة، يرتدون

ثياباً مدنية. هم من «جبهة النصرة»، فرع تنظيم «القاعدة» المحلي. لديهم فريق إطفائهم الخاص، وقد أعطتهم البلدية أفضل المعدات التي تم التبرع بها. عندما رأوا لباس خالد النظامي، ابتسموا، ولوّحوا له، بأيديهم. أخذ خالد مجَّة من سيجارته، وردَّ عليهم التحية، على مضض.

ث. جغرافيا الحرب

لدى تجْواله برفقة أبو ثابت في السيارة، يتأمل خالد المدينة من منظور جغرافيا مستحدثة ناجمة عن الحرب. جغرافيا حجبت تماماً ذكريات الحياة القديمة، لتُحِلَّ في مكانها معالم مستَجِدَّة، هي مواقع المجازر وعمليات الإنقاذ المستحيلة. لم يكن النظام يسعى إلى التدمير المادي فقط - يظن خالد - بل هدفه هو تجمعات سكنية، بأكملها أيضاً. احياء برمتها صارت مهجورة في القسم التابع للثوار من المدينة. لدى سؤاله الناس عن سبب بقائهم، بالرغم من كل شيء، يحصل خالد على ثلاثة أنواع من الأجوبة: إما لأنهم فقراء جداً، لا يستطيعون المغادرة. وإما لأنهم عنيدون جداً، فلا يتركون منازلهم. وأما لأنهم صاروا قدريين، معتقدين بأن ساعتهم ستأتي أكانوا في حلب أم في مخيمات اللاجئين. يائسون أو مجانين. وخالد - بدوره - أقسم لهم بأن الدفاع المدني سيكون آخر مَن يغادر.

هل من حرب مثل هذه في التاريخ؟! يتساءل خالد. يقال إن ما يقارب ٢٠٠ ألف سوري قُتلوا حتى الآن. تسعة ملايين آخرين هربوا من منازلهم. لمَ يسمح الله بهذا؟ ألعله امتحان؟! ثم أخذ يفكر بمذكراته التي كان قد تركها في منزل أهله. نشأته كولد أوسط بين أشقائه السبعة عشر (تزوج والده ثلاث مرات)، فلم تتح له فرص كثيرة. على نفسه تعلم التاريخ والشعر. تسجل في الجامعة بعد تخرجه من الثانوية العامة، لكنه سرعان ما ترك الدراسة؛ ليكسب لقمة عيشه، فبدأ يعلّم في مدرسة مهنية، تُدَرِّب ممرضات وكهربائيين. غالباً، كان يكتب مذكراته في الليالي، متسائلاً بحيرة عما يخبئه له المستقبل، ومحاولاً الإجابة عن السؤال التالي: ماذا عليّ أن أصبح؟ الحرب كانت الجواب.

ج. داخل الركام

الحياة في حلب كغبار الباطون الذي يغطي كل موقع انفجار: أحادية اللون كفيلم باهت بالأبيض والأسود. الأنقاض التي يغوص فيها خالد مجبولة، كطعام، تقيّأته معدة؛ حيث كان ذات يوم مبنى مكَوَّناً من أجزاء وأشياء مختلفة: أبواب، نوافذ، شرفات، كراس، طاولات، خزائن؛ لتشكِّل مجتمعة منازل لأشخاص محددين، صار الناس الباقون عبثاً يجتهدون لرؤية أشياء متمايزة في حطام الكتل الرمادية المتشابهة. هذه - ربما - مروحة، هذا سقف مائل، وذاك طرف فراش. أما ذلك الشيء؛ فقد يكون حذاء امرأة. لقد غطى الغبار كل شيء: ضوء سماء المساء، وشعر عمال الإنقاذ، وفي حلوقهم ذاك الطعم المعدني. غبار كالثلج على إطارات النوافذ، على الرموش المرتعشة ارتعاشات مذهولة. ومع حلول الليل، يبدو كأن الغبار ينهم عليهم كثيفاً في الظلام.

لا كهرباء في المدينة الحالكة السواد، الساطعة في سمائها النجوم. الأحياء المقفرة، المقصوفة، بشراسة، تمتد في الليل كالمقابر على جانبي الطرق التي يسلكها خالد وأبو ثابت. بضع زوايا تضيئها طاقة المولدات، كأنها جزر، يمران قربها. يطفئ السائقون مصابيح سياراتهم خوفاً من المروحيات. ينساب أبو ثابت في الظلمة عبر الشوارع المألوفة، مستشعراً الحفر وأكوام الركام قبل أن يراها، كأعمى يوجّه ضوء مصباحه نحو الأرض، كأنه يضربها بعصاه بين حين وآخر. أو كأنه في غوّاصة، تنساب في قاع محيط.

ليلة أرق أخرى في الطبقة السفلى من المدرسة. لطيف، مُشَجِّع تنظيم «القاعدة»، أوى إلى فراشه مستمعاً إلى أغنية بوب، تتكرر إلى ما لانهاية على هاتفه الخليوي. القصف عنيف صخّاب، أسوأ منه البعوض المتعطش للدماء. أولى قنابل الفجر كانت اشبه بالفَرَج.

لبس أعضاء الفريق ثيابهم متعجلين، وأسرعوا نحو الشاحنة بقيادة سرخاي. فطورهم سجائر، فيما وهم يتخضخضون في شوارع حلب المهشمة.

مهرج الفريق سرخاي ظل صامتاً هذه المرة. كان هذا يومهم الخامس في المركز الجديد.

مكان الانفجار في أسفل شارع جانبي ضيَّق. من سماء الصباح الصافية سقط برميل متفجر على مبنى سكني صغير، فانهار جزئياً. معظم أفراد الأسرة الكبيرة التي تسكنه نجوا. كانوا واقفين في الشارع قلقين. شقيقتان محجّبتان، تتشبّث إحداهما بالأخرى، تجهشان في البكاء، ورجال يحفرون بغضب في الركام. ترجّل سرخاي من الشاحنة، ركض نحو رجل عجوز لا يزال في ثياب نومه، مكسواً بالغبار. «هناك صَبِيَّان عالقان في الداخل»، قال العجوز.

حسب التدريب الذي تلقوه في تركيا، يتوقف اختيار تقنية الإنقاذ على نوع المنشآت ودرجة انهيارها. لدى سقوط بناية إسمنتية - أكان السبب قنبلة أو هزة أرضية - تنهار - عادة - طبقاتها واحدة فوق أخرى. غالباً ما تبقى مساحات صغيرة فارغة حول الأعمدة والأدراج وقطع الأثاث الثقيلة، فتسمح للعالقين أن يظلوا أحياء. أهم شيء هو بلوغ هؤلاء سريعاً، قبل حدوث انهيار آخر.

الخطوة الأولى هي تحديد موقع الضحايا. تعرف العائلة أن الولدين كانا نائمين في غرفتهما، فصار لدى أعضاء الدفاع المدني فكرة عن مكان وجودهما.

هنالك طريقتان متاحتان. الأولى، المعروفة بالإنقاذ الأفقي، تتمثل بحفر نفق يُدَعَّم تدريجاً بقطع خشب أثناء عملية التقدم. الثانية، وهي الإنقاذ العمودي، تتطلب الحفر، إما من فوق الضحية، وإما من تحتها. قرر أعضاء الفريق اللجوء إلى الطريقتين، في آن واحد. دخل سرخاي إلى دكان صغير في الطابق الأرضي من المبنى، وشرع يحطّم جداره الخلفي، بمعول. عليّ صعد إلى كومة الركام، وبمساعدة أب الأولاد، راح يحفر نحو الأسفل؛ حيث كانت غرفة النوم.

الرجل العجوز والمرأة وقفا في الشارع يتفرجان في ذهول على رجال، يحتشدون فوق كومة الركام التي كانت منزلهما قبل حين. هما خياطان بسيطان، يحاولان تحصيل لقمة العيش في حلب، فلِمَ يرغمان على مغادرة بيتهما، من أجل بشار الأسد؟

من على كومة الركام، كان عليّ يستطيع سماع الولدين يطلبان النجدة، فضاعف الرجال جهودهم. بالرغم من تعاظم إحساسهم بالإلحاح، كلما اقتربوا أكثر من هدفهم، كانوا يبطئون من وتيرة عملهم، فصار بحثهم المحموم شبيهاً بعمل فرق الحفريات الأثرية. أزالوا قطع باطون صغيرة، اقتلعوا قطعاً أكبر من مكانها، قطعوا قضباناً متشابكة من الحديد المسلح، فتحوا - أخيراً - فجوة في الأرض: ها هما الولدان الشقيقان لم يلحق بهما أذى. كانا - على ما يبدو - يجلسان القرفصاء قرب سريريهما. خرجا مكسوين بالغبار الأبيض، كأنهما قُذفا من جديد إلى الدنيا.

نقلهما علي وسُرْخَاي إلى سيارة إسعاف، فهُرعت أمهما تبكي فرحاً بهذه الولادة الثانية. حتى سُرْخَاي كاد يذرف دمعاً لدى رؤيته جمع الشمل هذا.

ح. غدر الهليكوبتر

منتشين عادوا إلى المركز. لم يتسنّ لهم سوى شرب فنجان شاي واحد، فأتاهم اتصال من فريق الإطفاء يطلب منهم المساعدة. رافقهم خالد هذه المرة. ساروا بشاحنتهم في شوارع المدينة الضيقة؛ حيث تتصاعد أعمدة دُخان سوداء، من حريق كبير. لقد أشعلت رصاصة قناص حارقة مستودع بضائع جافة في أحد المتاجر. فريق الإطفاء الذي يقوده صديق خالد، واجهته صعوبة في إخماد النيران، فمضخّة الماء لم تعمل على نحوٍ سليم. أحمد، الإطفائي السابق، لبس بدلة واقية، وراح يساعدهم.

التقط خالد إشارة ما على جهازه اللاسلكي. كان هنالك قصف في الجهة المقابلة من المدينة، لكنه لم يفهم ما تبقّى من الرسالة، فالإرسال على عادته، رديء جداً. عادوا إلى الشاحنة مسرعين، وانطلقوا. فيما هم

يعبرون السوق الرئيسي التابع للثوار، انحرفت في اتجاههم سيارة أجرة صفراء صغيرة. كان هذا سائقهم أبو ثابت الذي صرخ: «لقد أصيب الشباب! إنهم في المستشفى».

بينما راح أبو ثابت يغير اتجاه سيارته، هرعت الشاحنة نحو المستشفى في أسفل الطريق. كان عدد من شباب الدفاع المدني واقفين خارجاً، يخطون جيئة وذهاباً ويدخنون. بعضهم كان يبكي. عمار، العضو الجديد المبتدئ، كان مغطى بالغبار وخيط دم يسيل من صدغه: «ماذا حدث؟»، سأل خالد.

«كنا نحضر الماء عندما أتت الهليكوبتر»، أجابه عمار. «حاولنا الاحتماء، لكن الانفجار كان قريبا جداً. أنا بخير، لكن شعبان (Shaben)...»

تطلع خالد نحو المستشفى. كان وجهه شاحباً. «اذهب إلى المنزل»، قال.

«أريد أن أبقى»، أجاب عمار.

دخل خالد إلى ما تبقّى من المستشفى التي كانت أكبر، واسمها «دار الشفاء»، وقصفها النظام العام الماضي. الأطباء والممرضات الذين بقوا على قيد الحياة، انتقلوا إلى مركز تسوق صغير؛ حيث أعدّوا أسرّة للجرحى في دكاكينه الضيقة. شعبان (Shaben) الذي أشرف على المتطوع المبتدئ، كان عاري الصدر، متصلاً بأنبوب مصل، رأسُه وجذعه مدميان مضمدان، فيما طبيب يلفّ جبهته بالشاش. «يا خالد، يا خالد»، نَعَقَ بوهن عندما رأى خالداً واقفاً فوقه.

«كل شيء بخير»، قال خالد ضاغطاً على يد شعبان (Shaben) الذي أصيب في جذعه، وأظهرت صورة الأشعة السينية شظايا، استقرت في جسده. كان محظوظاً، فأي منها لم تصب شرياناً، أو عضواً حيوياً. عليه الذهاب إلى تركيا لإجراء عملية لإزالة الشظايا. اهتم خالد بالترتيبات اللازمة لنقله، ثم رجع مع الشباب إلى المركز؛ حيث انهار الجميع في الردهة على الكراسي. لم يحاول أحد المزاح.

«أين كنتم؟ كنا نبحث عنكم»، قال شَهُود الملطخ سرواله بدم شعبان (Shaben). داعب خالد شعر شَهُود، بنعومة.

«إنه برج الراديو اللعين»، تابع شَهُود. «سمعنا المروحيات تقترب، فحاولنا أن نتصل بهم على اللاسلكي؛ كي ينقذوا أنفسهم، لكنهم لم يتمكّنوا من سماعنا».

أحس خالد بغضبه يغلي. في مرات كثيرة، طلبوا من البلدية إصلاح «برج الراديو اللعين»؟ هل من المفترض أن يستمروا بالمخاطرة إلى أن تتعطل كل معداتهم الرديئة؟ هؤلاء الحقيرون الأنذال في مجلس البلدية يمارسون الألاعيب السياسية، ويحشون جيوبهم بالأموال، فيما يتعرض رجاله للإصابات! «يا علي، سنخبر كل شيء على الفايسبوك»، قال خالد. «اكتب أن سبب إصابة شباب الدفاع المدني هو عدم عمل البرج، على نحوٍ سليم! أصيب اثنان خلال عملية إنقاذ. منذ سنة نقول إننا في حاجة إلى برج سليم!».

علا صرير قلم علي في الصمت. راح خالد يفكر بعمّار، العضو المبتدئ. لم ينتسب - بعد - رسمياً إلى الفريق، وها هو قد أصيب. صار واحداً منهم الآن. ثم تذكر خالد اللقاء الذي جرى في ذلك اليوم في الريف بين أعضاء مجالس البلدية وقادة فرق الدفاع المدني من مناطق الشمال التابعة للثوار. كانت تلك فرصة مناسبة لإبراز أنفسهم وممارسة الألاعيب السياسية. هذا بالضبط ما يكرهه خالد. «اللعنة عليكم» قال، وضحك بمرارة.

خ. التستوستيرون والأدرينالين

في معظم الليالي، لدى خروجه إلى باحة المركز، كان في مستطاع أحمد، الأطفائي السابق، رفع ذراعه النحيلة والإشارة إلى حرف W الذي تشكله مجموعة الكراسي النجمية. تكون حينها النجوم ساطعة في السماء الصافية، وهي نفسها التي يراها سكان أميركا الشمالية بعد ست ساعات. نجمته هي النجمة غاما ذات الكرسي، والتي تتوسط حرفW. أما نجمتها؛ فهي ألفا،

إلى الأسفل يميناً. وتلك نجمة حبهما، بيتا ذات الكرسي العملاقة التي تبعد أربعاً وخمسين سنة ضوئية.

يحتفظ أحمد بصورة لخطيبته على هاتفه الخليوي: تبدو رزينة في حجابها، لكنْ؛ في عينيها بريق دعابة. هي عالقة في طرف المدينة التابع للنظام؛ حيث العيش أكثر أماناً على الأقل. وهما يتواصلان عبر «الفايسبوك» و«السكايب».

يتخيل جميع شباب الدفاع المدني حياة أفضل بعد الحرب. لكن أحداً منهم لا يعلم متى تنتهي هذه الحرب. خالد يشعر أنها طويلة، ويتساءل ما الذي ستبقيه من البلد. على هذا النحو، أو ذاك، لقد انحرفت الثورة عن مسارها انحرافاً مأساوياً، فهل يمكن لأحد القول - بعد الآن - إن الثوار أو النظام على حق؟ لقد أدار لهم العالم ظهره، هذا كل ما يمكن أن يقال.

لكن قدرتهم على التحمل التي تحثهم على المضي قدماً في مهمات الإنقاذ، لم تسمح لهم بالاعتقاد أن قضيتهم عقيمة. سينصرهم الله، من دون شك، على الرغم من أن حلب يحاصرها النظام وداعش حصاراً تاماً. فُتُوَّتُهم وبسالتهم ستقيانهم، في الأثناء، من اليأس، من دون أن تدفع عنهم الدمار واحتمال الموت. إنهم يختبرون في هذه الحرب عواطف لن يشعروا بمثلها مرة أخرى في حياتهم. فالحرب في لحظاتها الأكثر جموحاً، تمنحهم نشوة أعظم من تلك التي تَنْجم عن أي مخدِّر، أو علاقة غرامية. وهي - في الأوقات العادية الدنيوية - تضاعف صلابة صداقتهم، التي أضحت أقوى من البراميل المتفجرة المتساقطة من السماء. حتى لو كانوا من المدمنين على «التستوستيرون» و«الأدريتالين» اللذين يحصّلون جرعاتهما من معارك الجبهات السورية، فهم - على الأقل - أبرياء من وصمة القتل. هذا ما يحميهم ربما. لقد أنقذوا أنفسهم، فيما هم ينقذون الآخرين.

كان نهاراً شاقاً طويلاً، وراحوا يستعدون بعده لليلة قصف أخرى. في إمكانهم سماع هدير الطائرات النفاثة والمروحيات وصوت القصف على الخطوط الأمامية. لكنْ؛ إلى حين ورود اتصال، يروّحون عن أنفسهم، بطريقتهم

المفضلة: التدخين وأكل البزر والمزاح. استرخوا في أرجاء غرفة الجلوس. خالد سند رأسه على كتف رب العائلة، شَهُود، العاري والكثيف الشعر، وأخذ يرمي المكسرات في فمه. في الزاوية، استلقى علي، الملقب بالسنكور (أي المتشرد)، وشَرَع يمسّد شعره القصير من الأمام، والطويل من الخلف. سُرْخاي، أحد التوأمين، يملك طبلاً، فأخذ يعزف عليه، كأنه ينفض الغبار عن سجادة. لطيف الذي كان لا يزال مرتدياً شورته الواسع، يستمع إلى أغاني بوب عربية على هاتفه، فيما بدأ الشباب يرددون كلماتها، ثم وقف مع أحمد، ورقصا الدبكة. أطلق سُرْخاي صرخة ذئب طويلة، فضحك الآخرون بابتهاج.

هزَّ خالد برأسه مستنكراً هذه الضوضاء، وشتمهم. صرخ: «يا شراميط الدفاع المدني!». لكنه كان يبتسم.

راحوا ينشدون أناشيدهم، فيما يصفع سرخاي طبله من دون التقيد بأي إيقاع. كانوا يولولون ويصرخون ويضحكون ويرتجلون أغانٍ هزلية لإغاظة علي:

يا سنكور، مين بتحب؟ ومين بحبك إنت؟

إنت محبوب الملايين، يا سنكور!

رويداً رويداً، ومن وراء هذا المزاح والهرج والمرج كله، من وراء هذه الطاقة الجنسية الشابة الهائلة المكبوتة، سُمِعَت نغمة أكثر حِدَّة، أكثر خشونة وجموح، فصبغت نشيدهم بحزن لا حدود له، بحبٍ مجنون للحياة في آنٍ واحد. تغيرت كلمات الأغنية، فصاروا يطلبون بركة، تَحِلُّ على بلادهم المنكوبة، متضرعين إلى الله أن يعيد في يوم ما مدارس حلب، مصانعها، حدائقها، وسكانها، مستحضرين أسماء أحيائها المدمرة على إيقاع التحدي المنبثق من الحرب:

الله ينصرك، يا حلب!

سيف الدولة وصلاح الدين!

وعلت أصواتهم بالغناء، وضربوا الطبل حتى لم تعد تُسمع الطائرات في سماء حلب.

٢- الموت يهطل من السماء

كريستوف رويتر(*)

بعد عبور أحياء المدينة الخارجية، تمتد أرضُ خرابٍ، تسكنها الأشباح. الشوارع والأبنية السكنية خالية نصف مدمرة. لا صوت سوى صرير لافتات معدنية مهشمة، تلهو بها الريح، ودوي مدفعية بعيدة، ترعد متقطعة.

شرق حلب صار مهجورا فعلياً، كحال معظم الأحياء السكنية البعيدة عن الجبهة. مَن بقوا هناك يفضّلون أن يأووا إلى مساكن ملاصقة، غير بعيدة من خطوط الاشتباك شبه الثابتة منذ سنتين. المفارقة هي أن الناس يشعرون بأمان أكثر لدى سكنهم في مرمى الدبابات ونيران القناصة. تلك هي سُنَّة الحياة في حلب.

للوضع هذا أسباب عملية، أحدها أن الطبقات السفلى من المباني، على طول خط الجبهة، توفّر شيئاً من الحماية من قذائف المدفعية. لكن السبب الرئيسي هو عدم إلقاء المروحيات براميلها المتفجرة، التي تزن نصف طن، على هذه المناطق. القنابل هذه فعالة فتاكة، لكن دقة تصويبها متدنية جداً، إلى حد امتناع سلاح جو النظام السوري عن استخدامها على مقربة من قواته.

في ما عدا خطوط الجبهة، كل شيء متاح في شرق حلب. باستطاعة البراميل المتفجرة، المحشوة بالمتفجرات والشظايا، هدم مبانٍ، بأكملها.

---

*) مراسل من الشرق الأوسط لمجلة دير شبيغل الألمانية. نشر النص بالألمانية، وفي ٢٤ سبتمبر/ أيلول٢٠١٤ نُشر بالإنكليزية على الموقع الإلكتروني لمجلة دير شبيغل:
http://www.spiegel.de/international/world/death-and-dying-in-aleppo-as-syria-civil-war-rages-on-a-993123.html

لقد قام النظام بتجريب أنواع مختلفة منها على المدينة: بعض منها تُرْبَط بها خزانات وقود؛ لتشعل حرائق لدى انفجارها. أخرى، بالغة الثقل، تُدَحرج من المروحية بواسطة دواليب مدفع صغير.

تظهر المروحيات في الصباح، وبعد الظهر، في الأوقات نفسها من كل يوم تقريباً. تدور في الفضاء لحين على ارتفاع ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ متر، فتبدو في السماء كنقاط صغيرة. ترمي قنابلها التي لا يُسمع لها صوت، إلا ثوان قبل الاصطدام: وقت كافٍ لتدرك أنك على وشك الموت، وغير كافٍ للهرب.

حتى لو كان الوقت كافياً، فإن الملاجئ الفعلية نادرة جداً. لا أحد يطلق النار على المروحيات من الأرض، فذلك عديم الجدوى: هي تحلق على ارتفاع بالغ، فلا تبلغها رصاصات المدافع المضادة للطائرات، الروسية العتيقة، التي بحوزة الثوار.

أ. مدينة الأشباح

قواعد العيش في حلب واضحة مقلقة، كأن مَن وضعها يقوم بتجربة علمية دموية: كيف يتصرف الناس عندما يمكن للموت أن يهطل من السماء في أي لحظة؟ فرَّ ما يقرب من تسعين في المئة من سكان شرق حلب منذ أواخر عام ٢٠١٣، وقتما ابتدأ القصف الممنهج الذي أودى بحياة ٢٥٠٠ شخص حتى الآن. بالرغم من ذلك لايزال ٢٠٠ ألف إلى ٣٠٠ ألف شخص يعيشون في القسم الشرقي من المدينة.

يقول البعض إنهم لا يريدون المغادرة، والبعض الآخر إنهم لا يستطيعون. هنالك أيضاً مَن يؤكد أن محاولة الهرب لا طائل منها: سيجدهم الموت، إن كان من نصيبهم. وإن لم يكن، فلن يفعل. لذلك يمكثون منتظرين.

المدينة، بعد مرور ثلاث سنوات ونصف السنة على بدء الانتفاضة على عائلة الأسد، وسنتين على اندلاع القتال في محيط حلب، منقسمة إلى جزءين. النظام يفرض سيطرته على الأحياء الأكثر ازدهاراً في القسم الغربي؛

حيث مقرات المخابرات والجيش. هناك، يحتشد ما يقارب المليوني شخص، كُثُرٌ منهم أتوا من شرق حلب، هلعين هاربين من الموت الذي يهطل من السماء.

أما في شرق حلب؛ فمن الأصعب تحديد مَن يسيطر على ما تبقّى من أحياء الطبقات الوسطى والفقيرة، إضافة إلى قسم كبير من وسط المدينة التاريخي. بدايةً، كان هنالك بضع كتائب من الثوار فقط. تكاثروا، فوصل عدد المجموعات الصغيرة إلى أربعمائة. أما الآن؛ فتوجد ست كتائب كبيرة. أتت - أيضاً - المجموعة المتطرفة المعروفة ب"داعش"، لكنها طردت لاحقاً. لا حكومة مركزية في شرق حلب، لكنْ؛ هنالك مجلس بلدية، ووحدات للشرطة، ومتطوعون في الدفاع المدني، يلبُّون - بعد القصف - نداءات الاستغاثة، فيجلون الجثث والأحياء المدفونين تحت الأنقاض.

لقد أوقف الثوار، خلال شهر سبتمبر/ أيلول من هذا العام (٢٠١٤)، تقدم مقاتلي "داعش" قبل قليل من بلوغهم مدينة مارع، الواقعة أربعين كيلومتراً شمال حلب. قوات الأسد من جانبها، لا ينقصها سوى التقدم بضعة كيلومترات، لصد الثوار، فيكتمل حصارها حلب، ويصبح بمقدورها تجويع سكان الطرف الشرقي من المدينة. الوضع مأساوي إذاً، لكنه على هذه الحال منذ أشهر. أنباء متواصلة عن معارك، عن تقدم وانسحابات، تصل إلى المدينة المسكونة بالأشباح، لكنْ؛ خافتة وبعيدة. في أوقات توقف إطلاق النار، يخيم على كل شيء سكون مريب، وينصرف السكان - بصمت تام - إلى تدبير أمور حياتهم اليومية. الأصوات العادية منعدمة: ما من حركة مرور، ما من موسيقى، أو أصوات بشر، أو طير.

ب. امرأة الجسر

في صباح نهار من الأسبوع الأول من شهر سبتمبر/ أيلول. لا يزال الجميع على قيد الحياة: أبو عبدو زكريا صاحب المتجر، جارته الشابة سمر حجازي، محسن الكهربائي، امرأة عجوز ترتدي الأسود، واثني عشر عاملاً

مياوماً من حي الطبقة العاملة في الحيدرية. ١٦ شخصاً من أمكنة مختلفة من المدينة، لا يجمعهم، في صباح هذا اليوم، سوى بقائهم في حلب.

بعد ظهر يوم الاثنين هذا، راحت أجهزة اللاسلكي التابعة للدفاع المدني وشرطة الثوار توشوش. هاتان المؤسستان هما اللتان تحافظان على نوع من النظام البدائي في هذا الجحيم. هنالك امرأة تمشي على جسر صاخور، الطريق السريع المهجور: "يا إلهي، ما الذي تفعله هناك؟!" قال صوت عبر اللاسلكي. "لا بد أنها مجنونة!"

المكان تحت الجسر لا يزال آمناً. الجدران الإسمنتية السميكة توفّر ملاذاً لأحد أكبر مواقف سيارات الأجرة المتبقية في المدينة، ولباعة الفاكهة كذلك. لكن القسم الأعلى بأكمله في مرمى نيران القناصة. لقد نُصِبت حواجز من الركام والحافلات المتفحِّمة لردع الناس عن محاولة سلوك هذه الطريق، لكن المرأة التي ترتدي الأسود تتجنّب الحواجز والركام، وتسير على الجسر.

الرصاصة الأولى تخترق الجو بعد بضع ثوان. مع تتابع الطلقات، يتزايد تدريجاً توتُّر الأصوات الطالعة من اللاسلكي. "ماذا يجب أن نفعل؟ إطلاق النار؟ كلا، ذلك لن يؤدي سوى إلى استفزازهم. يا إلهي...". تنحني المرأة، وتتابع سيرها. طلقة سابعة، فثامنة، فتسقط المرأة ذات الثياب السوداء أرضاً.

لا أحد يدري ماذا كانت تفعل على الجسر. هل كانت تقوم بجمع أكياس بلاستيكية مستعملة، بهدف بيعها؟ أم كانت - ربما - تحاول إنهاء حياتها؟ أم بكل بساطة فقدت عقلها؟ هزَّ الناس بأكتافهم. لا أحد يعرف اسمها. انتشلوا جثتها في الظلام، فلم يعد لها من أثر هناك.

"لا نزال أحياء، لكنْ؛ إلى متى؟ ليوم واحد أم لأسبوع؟ نحن أموات أحياء، كمخلوقات الزومبي في الأفلام!"، يقول متطوع في الدفاع المدني أثناء نوبة حراسته. "أجل، مخلوقات زومبي! هل تشرب قهوتك مع سكر أو بدون سكر؟"، يسأل. شرق حلب مكان أنهكه اليأس، مدينة مخلوقات زومبي دمثة.

كان زكريا، في يوم الاثنين هذا، يشرب قهوته في الحديقة، كعادته في كل صباح. هو خياط هرم، ستيني، يسكن منفرداً في منزل، مرَّت عليه قرون من الدهر. يملك متجراً أجّره، لكن المستأجر توفيَ. يعتني بمزروعات حول بئر في الباحة الداخلية، ويزور عادة، في الصباحات، صديقه القديم أوهانس، مُحْضِراً له، من البراد، إبريق ماء بارد.

ت. سمر، أوهانس، وزكريا

مجدداً، يشرب زكريا القهوة في حديقته، في تمام الساعة التاسعة من يوم الثلاثاء. يسمع فجأة صفير قنبلة، فيهرع نحو غرفته، آملاً في أن يكون في مأمن هناك. كان اتجاهه خاطئاً: على الرغم من صغر حجمها، أصابت القنبلة الرجل الستيني، ودمرت نصف منزله، ومنزل سمر حجازي، أرملة موظف البورصة، البالغة الثمانية والثلاثين من العمر. توفي زوجها قبل خمسة أعوام، يقول الجيران، ويضيفون: "وفاةٌ طبيعية"، وكأنها طريقة غير اعتيادية للموت.

لو فعل زكريا كجاره، وقفز إلى داخل القبو في الطرف الآخَر من الباحة، لكان من الممكن أن ينجو. متطوعو الدفاع المدني، الذين وصلوا مع مولد كهربائي وآلة لثقب الصخور وقاطعة للمعادن، سريعاً وجدوا جثته. لكنهم احتاجوا إلى ساعتين من النشر في جبل الركام، لانتشال جثة سمر حجازي. لقد اخترقت كرتان فولاذيتان ما تبقى من جمجمتها: كرة بحجم حبة كرز، وأخرى كبيرة كحبة جوز. كانت القنبلة محشوة بكرات مماثلة لمضاعفة قوتها التدميرية.

ظهر أوهانس، صديق زكريا القديم، بينما كان رجال الدفاع المدني يتابعون الحفر. أطلعه أحد عما حدث. أومأ برأسه. لا صراخ، لا عينين مذهولتين، ولا مفتوحتين جامدتين رعباً. لا شيء سوى إيماءة. اشترى الخبز،عاد إلى مأواه، مأوى العجزة الكاثوليكي الوحيد الذي تبقّى في شرق حلب: دار القديس إيليا.

"يجب أن أكنس الباحة"، قال مبتعداً، وبنبرة الصوت الرخيم الرقيق إياها، أضاف أنه كان قد خَمَّن ما جرى: في بادئ الأمر حصل انفجار. زكريا لم يظهر مع إبريق الماء، ففكر أوهانس: "لقد قُتِل زكريا أيضاً".

ث. مأوى القديس إيليا

لا يزال هناك سبعة مقيمين في دار القديس إيليا. غادر الباقون أو توفوا. أوهانس، ذو الخمسة والسبعين عاماً، من بين أصغر اثنين سناً. ماغي أناستوس، الجالسة في ظل الأشجار في الباحة، قبالة تمثال يسوع الأزرق السماوي، تبلغ الثمانين. ظنَّ سكان المأوى - بعضهم لا يزالون يمكثون فيه منذ عشرين سنة أو أكثر- إن آخر سني حياتهم ستكون هادئة.

يبذلون قصارى جهدهم للتشبث بهذا الأمل، لكنه ليس بالأمر اليسير. مبنى المأوى، وباحته الشاعرية الهادئة، التي يزيل أوهانس منها كل ورقة شجر شاردة، يقعان على خط الجبهة مباشرة. في الخلف تماماً، تمتد المنطقة المحرمة. "لا أحد يُكِنُّ لنا أي ضغينة"، يقول جوزيف شدياق البالغ، هو الآخر، خمسة وسبعين عاماً. فيما مضى دَرَسَ لسنتين علم اللاهوت، ويترأس حالياً القداس المرتجل في كل نهار أحد، ويعتني بنزلاء المأوى طريحي الفراش. "لكن القناص في الطرف الآخر، لدى صعودي إلى السطح لإصلاح خزان المياه في فصل الشتاء، راح يطلق النار في اتجاهي فوراً. صرخت له أن يتوقف. تحسَّنت علاقتنا بعد هذه الحادثة. صرنا نعلم أنه يدعى أبو جعفر". نزلاء المأوى قلقون حالياً، "فأبو جعفر أصيب بطلق ناري، ونحن لم نتعرف على بديله بعد".

أول قتيل من نزلاء المأوى، ربطه أوهانس وجوزيف بعربة صغيرة، دفعوا بها، عبر خطوط التماس، نحو الطرف الآخر من حلب؛ حيث عائلته. "لم يعد حالياً مثل هذا الأمر ممكنا". مَن يموت الآن من نزلاء المأوى، يُدفن في باحة الحديقة الداخلية.

"هناك متسع لدفننا جميعاً. لكننا نتضرع إلى الله أن يرحمنا، ويهبنا

مزيداً من الوقت"، يقول جوزيف. أبناؤه، كحال معظم المسيحيين، يسكنون في القسم الغربي من حلب. هناك، يعيشون كوالدهم، على مقربة من خط التماس. فادي، أصغرهم سناً، قتلته هناك، قبل شهرين، قذيفة هاون أطلقها من هنا الثوارُ الذين يجلبون الخبز والشاي لنزلاء دار القديس إيليا بين حين وآخر. "ماذا يمكنني أن أقول؟"، يتنهد جوزيف متطلعاً إلى السماء.

ينهض أوهانس لجمع بضعة أغصان سقطت على البلاط اللامع. حدث انفجار على مقربة. ما من أحد يتطلع إلى الأعلى. يفتح جوزيف باب غرفة المعيشة، ويشير بسبابته إلى ثقب في السقف، أحدثته قذيفة هاون في فصل الشتاء. "كنا جالسين هنا قبل نصف ساعة من سقوط القذيفة. لا نقوم بتدفئة غرفة المعيشة؛ حيث نشرب قهوة ما بعد الظهر، إلا في الشتاء".

القذيفة أخطأتهم، وهذه إشارة من الله، يقول جوزيف. كمعظم الباقين في هذه المدينة، الذين نجوا بالكاد من انفجار ما، يرى جوزيف تدخلاً إلهياً في أحداث تلك الفوارق الضئيلة، التي تقاس بالدقائق، وأنقذت حياته.

الآن، في فصل الصيف، جوزيف وأوهانس وماغي يجلسون كل مساء في الباحة المُكَنَّسة بعناية فائقة. يستمعون إلى الهتافات التي يرددها الطرفان من فوق رؤوسهم. "الله أكبر!"، يصرخ الثوار. "بشار أكبر!"، يَردّ عليهم جنود النظام. كأنه جدل بيزنطي حول من الأقوى: الله أم بشار الأسد.

ج. شرفة مائلة

صار هؤلاء الرجال الخمسة الطاعنين، بارعين في التعرف على لهجات المقاتلين من الطرف الآخر. "منذ حوالي شهر، كنا نسمع دائماً، من هناك، عراقيين يتكلمون"، يقول أوهانس. "أجل، لكنهم رحلوا الآن"، تقول ماغي، "واللبنانيون كذلك"، يضيف جوزيف.

من التضليل القول إن وتيرة القتال في محيط حلب قد خفتت بعد مرور

عامين. لكن عدد المقاتلين على الجبهة قد انخفض. كان لدى النظام، منذ بضعة أشهر، ألف محارب عراقي، إضافة إلى مقاتلي "حزب الله" اللبنانيين الشرسين، ومرتزقة أفغان. هذا التحالف الشيعي اختفى تماماً في الآونة الأخيرة. عاد العراقيون إلى ديارهم بعد أن صارت بغداد مهددة من تنظيم "الدولة الإسلامية"، وأمر "حزب الله" مقاتليه بالتوجه نحو دمشق. في المقابل، أرسل الثوار، خلال أغسطس/ آب ٢٠١٤، آلاف المحاربين من حلب إلى الشمال، لوقف تقدم مقاتلي "الدولة الإسلامية". حالياً، الخطوط الأمامية جامدة، فكلا الطرفين لا يحرز أي تقدم. إنها "جبهة باردة"، يقول السكان المحليون.

الأربعاء، بعد التاسعة صباحاً، سُمع صوت مروحية، أعقبه دوي انفجار. ارتجت الجدران على امتداد مئات الأمتار. رياح خفيفة أخذت معها سحابة غبار عملاقة في اتجاه السماء. امرأة تحمل كيسين من البلاستيك، تمشي بتروّ في الشارع الخالي، متجهة إلى موقع الانفجار، فلا تبطئ سيرها أبداً.

الانفجار ليس ببعيد. يكفي النزول نحو شارع عكجول، ثم التوجه يساراً. معظم المباني مدروزة بثقوب الشظايا. الستائر ترفرف في النوافذ المحطمة في مبانٍ لا تزال قائمة، لكنها خالية تماماً. فقط هنالك رجل عجوز على شرفة مائلة يسقي الزريعة. ينظر إلى أسفل، ولا يتفوه بكلمة.

غشاء رقيق من الغبار غطى المنطقة. بعد دقائق معدودة، خرج رجل يكسوه الغبار لجلب الماء. أخذ يغني بهدوء، فيما يغسل دراجته النارية التي نجت بأعجوبة. "لقد سمعته!"، قال الرجل، وهو كهربائي، اسمه محسن، التحق بصفوف الثوار. كان يتكلم عن الصفير الوجيز الذي سبق الانفجار. في اللحظة الأخيرة، قفز إلى داخل مبنى إسمنتي. كان محظوظاً، فالقنبلة سقطت، وانفجرت في حفرة حفرتها قنبلة سابقة، ما أضعف من قوتها التفجيرية. اتجه محسن نحو الحطام، انعطف يميناً، وراح يعدّ الجثث في الباحة المتاخمة. بدا عليه الأسى، وقال: "قَتَلَتْ ثلاثة".

ح. الأنفاق والكهرباء

تكلم محسن عن الدجاجات - معظمها نجت من الانفجار. انتهى من غسل دراجته النارية، وجلس في الدور السفلي مع بقية مقاتلي الثوار؛ لكي يتقاسمون نوبات عملهم. يتمركز بعضهم داخل مبان، تعرضت لقصف عنيف على طول الجبهة. الآخرون، على الرغم من الحرّ، يرتدون سترات ذات أكمام طويلة، ويباشرون حفر الأنفاق بأزاميل، بمطارق، بملاعق، وبقضبان فولاذية يحفرون رويداً رويداً لإزالة الصخور الكبيرة. والأهم أنهم بهدوء يحفرون لتجنّب الانكشاف. هدفهم الالتفاف على مواقع جيش النظام، أو تفجيرها. كما أنهم يحفرون أنفاقهم لمنع الطرف الآخر عن حفر أنفاقه.

تعامُل الثوار مع مباني حلب التاريخية التي لا تثمَّن، ليس مغايراً لتَعامُل قوات الأسد معها. لكنهم يحتاجون وقتاً طويلاً لما يفعله جيش النظام السوري بدقائق معدودة. "فجرنا مبنى، واستولينا على آخر، ولم نخسر أياً من مبانينا خلال الأشهر الأربعة الماضية. صحيح أن مروحيات الأسد تسيطر على الجو، لكننا نسيطر على ما تحت الأرض"، يقول القائد أبو عرب الذيكان صاحب متجر. منذ استقرَّت رصاصة في عنقه وشظية صغيرة فوق عينه، سمّاه رجاله الشهيد الحيّ.

يشعر مقاتلو النظام بتوتر متصاعد خلال استماعهم إلى الأصوات القادمة من تحتهم. كلٌّ من الطرفين ركّب كاميرات على طول خط جبهته. "لكن جماعة الأسد لديهم كهرباء لساعتين أو ثلاث ساعات يومياً. أما نحن؛ فلأربعة وعشرين ساعة"، يقول أبو عرب، ويتابع: "عليهم - إذاً - تشغيل مولداتهم؛ لكي تعمل الكاميرات. لكنهم لن يتمكنوا إذ ذاك من سماع ما يحدث تحتهم".

بإمكان الثوار الانتقام جزئياً على الأقل، للإخلاء السكاني المستمر والممنهج لشرق حلب الذي يمارسه النظام، عبر قطع التيار الكهربائي. خط الإمداد الرئيسي بالكهرباء للمدينة كلها يأتي من حماة في الجنوب، وفي

طريقه إلى أحياء حلب الغربية، يمر في أحيائها الشرقية. يستطيع الثوار، إذاً، قطع التيار الكهربائي عن كامل القسم الغربي من المدينة. لكنْ؛ لن يبقى إذ ذاك ما يردع النظام عن قطع التيار الكهربائي عن المدينة بأسرها.

كلٌّ طرف يستطيع ابتزاز الآخر. توصل وسطاء إلى التسوية التالية: يتلقى كل طرف تقريباً الكمية نفسها من الطاقة الكهربائية. لكن عدد السكان في القسم الغربي ٢,٢ مليون نسمة. أي ما يعادل عشرة أضعاف عدد سكان القسم الشرقي. التزود بالطاقة الكهربائية يختلف جذرياً، إذاً، بين القسمين. فمنذ أن أصلح مهندسو بلدية شرق حلب محطات التوزيع في أوائل سبتمبر/ أيلول ٢٠١٤، صارت الكهرباء تصل على مدار الساعة البعض من أحياء الثوار.

خ. لا تفروا من الموت

لدى عودتنا، كان لا يزال العجوز ينظر إلى الأسفل من شرفة منزله المائلة. رحمة حسين عبد الله، صانع الورق البالغ السابعة والسبعين، هو آخر مَن تبقى في الشارع. يمكن أن تبقى الأمور على حالها، فلا ينزعج. مكتبته تملأ غرفة كاملة. "اتركوني وحيداً مع كتبي! فأُمضي أيامي في القراءة والاعتناء بالمبنى"، يقول. أليس الأعقل أن يعتني بنفسه، ويهرب قبل أن يقتله برميل متفجر؟

"كلا، لماذا؟ لقد سقط برميل هنا منذ ثلاثة أشهر، أمام المبنى تماماً"، يقول. هنا، حيث كان الفرن، عشرات كانوا ينتظرون في الصف عندما ظهرت فوقهم المروحية. لم يشاؤوا خسارة أماكنهم في الصف، أو أن فرصتهم في النجاة كانت معدومة على أي حال، فلم يتزحزحوا. عبد الله لم يكن واقفاً في الصف. كان مسمّراً أمام كتاب، ولم يكن جائعاً. أخلَّت القنبلة من توازن الشرفة، وفتحت ثقباً في حائط غرفة المعيشة. سدّ عبد الله الثقب بالحجارة لاحقاً. ذلك لم يكن حظاً، يقول مُصِرّاً: "ساعتي لم تكن قد حانت بعد".

بعد مقتل آخر جارٍ له، اشترى عصفور زيبرا؛ ليخفف عنه وطأة الوحدة. من مسجلة كاسيت عتيقة لقّنه أغان قديمة. إحدى غرائب حلب، هي متاجر الحيوانات الأليفة التي لا تزال أبوابها مشرعة، على الرغم من إقفال المحال الأخرى، أو زوالها مع الأبنية التي كانت فيها.

تُسْمَع طلقات قريبة، لكن عبد الله لا يرفّ له جفن. بدلاً من ذلك، يروي لنا من كتبه حكايات عن سليمان والملك نمرود وإسحاق ويوسف، ويخبرنا عن عنجهية من يصبو إلى أن يكون سيداً على الحياة والموت. يخبرنا - أيضاً - عن قصاص الله، عن البعوضة التي أرسلها الله لقتل نمرود عقاباً له على غطرسته: "فلا تَفرُّوا من الموت!"، إذاً، يقول عبد الله.

لكن الله لا يرسل بعوضاً إلى حلب: جيش الأسد يُسقط براميل ضخمة متفجرة. "هذا غير مُهِم - يقول - فالقنابل ليست المشكلة، بل ساعة الموت التي حُدّدت مسبقاً". هل من الجنون التفكير بهذه الطريقة؟ أم أنها مجرد محاولة لجعل الجنون الذي يحاصره يبدو طبيعياً؟

د. رحلة المحجبات والفودكا

حفّارو أنفاق شرسون، ومتقاعدون سئموا الحياة: إنهما مجموعتان متباينتان رُميتا معاً في شرق حلب. الأولى تعتقد أن مصيرها لا يزال ملك أيديها، وإن كان ثمن ذلك باهظاً. الثانية تؤمن أن ما من أحد يتخذ أي قرار على الإطلاق. صار الفريقان رفاق جحيم.

أسباب بقائهم قد تختلف من شخص إلى آخر، لكنهم ما يزالون جميعهم هنا. هنالك آمر قوي، يوحّدهم إذن.

نادراً ما يعبر أحدٌ عن عداوة تجاه الطرف الآخر من المدينة. "رجالي وأنا نقاتل النظام، لا الأشخاص المقيمين هناك"، يقول القائد أبو عرب. بالطبع هذا لا يمنع الثوار عن إطلاق القذائف وعبوات الغاز المتفجرة على الطرف الآخر. هي متفجرات وقذائف قصيرة المدى، لكنها تقتل عشوائياً.

للجميع، عموماً، أقارب أو معارف في الطرف الآخر. في صلاح الدين، على الجبهة تماماً، هنالك مكاتب وكالات سفر، تعرض رحلات "من حلب إلى حلب". المسافة، مستقيمة، هي ٦٠٠ متر فقط، لكن الرحلة تستغرق اثنتي عشرة ساعة؛ إذ يشق الباص طريقه في قسم كبير من شمال سورية. فقط مَن ليس اسمه على لوائح المطلوبين لدى مخابرات الأسد الجبارة، يجرؤ على القيام بهذه الرحلة. على الرغم من ذلك، يشتد الطلب على مقاعد الباصات.

أحصى أحد مَن قاموا بهذه الرحلة ٤٦ حاجزاً. "لم يكترث الثوار لأماكن جلوسنا في الباص، رجالاً ونساء. لكننا حين عبرنا لاحقاً إمارة "داعش"، تحجبت النساء كلياً، وجلسن في الخلف، أما الرجال؛ فجلسوا في مقدمة الباص. صار يتوجب على كل امرأة أن تكون برفقة زوجها أو والدها أو شقيقها، وإلا تُمنع من السفر! لذا؛ أخذ السائق، لحل هذه المعضلة، يخترع زيجات وهمية: أنتما الاثنان، أنتما الاثنان، أنتما الاثنان!".

وصلوا إلى المنطقة التي يسيطر عليها النظام: "من جديد، صار على الرجال والنساء أن يجلسوا معاً. اختفى فجأة كل حجاب. كان من المستحسن أن تمسك بيدك زجاجة فودكا". يصعب تخيل أن احد ساكني شرق حلب- الذي يحاول جيش الأسد تدميره - قد يذهب إلى غرب حلب؛ حيث يسيطر جيش الأسد، ثم يعود من هناك إلى هنا، إلى هذا الجحيم، لكن هذا ما يحدث.

في يوم الجمعة، على عادتهم كل صباح، تجمع العمال المياومون من حيّ الحيدرية شبه المهجور، قرب المستديرة الوحيدة في المنطقة. مَن يحتاج حِرفياً، أو عاملاً لبضع ساعات، يأتي إلى هذه المستديرة. هي في الحيدرية المكان الوحيد الذي لا يزال الناس يحتشدون فيه. أما الشوارع؛ فمقفرة، والجامع مهجور، حتى في أيام الجمعة. في الثامنة من صباح اليوم، خمسة عشر رجلاً ينتظرون قرب الدوار. يجلس بضع سائقين داخل

شاحناتهم المركونة على طرف الطريق، وقد تركوا محركاتها تشتغل. لاحقاً سيقول أحد الناجين إنهم لم يسمعوا أي شيء. مقاتل مفجوع من سكان الحي سيهمس قائلاً إنه كان دوماً يحذّرهم من التجمع هناك، كل يوم، وفي الوقت نفسه. وسيقول أحد المصابين إن الخوف كان - بالطبع - لا يفارقه، لكن: "علي أن أطعم عائلتي"، قال أيضاً.

في تمام الساعة الثامنة وثلاث دقائق، برميل متفجر مَرَّق إرباً ثلاث مبانٍ، وكذلك الشاحنات الصغيرة و١١ من رجال المستديرة. لدى وصولهم إلى الموقع، وجد المسعفون أشلاء على سطوح المباني المهدمة. الضحية الثانية عشر توفيت في المستشفى. طَلَب منا الأطباء عدم ذكر اسم وموقع المستشفى، "وإلا سيقصفونا بوتيرة مضاعفة".

من الأشخاص ال١٦، وحده محسن تبقّى على قيد الحياة، الكهربائي الذي راح يغني بينما كان يغسل دراجته النارية.

في المستشفى ثلاثة من جرحى الحيدرية. واحدٌ بتر الأطباء ساقه، الثاني يَئِنُّ بهدوء، والثالث صارت يده كتلة متورمة مضمدة، ويقول: "أين أنا؟". مجدداً، عبثاً، وبدون أمل، يردد: "أين أنا؟".

٣- الأفغان الشيعة..
مرتزقة إيرانيون في حروب الأسد

كريستوف رويتر(*)

يستمر عديدُ جنود الدكتاتور السوري بشار الأسد في تضاؤله، ما يرغمه على اللجوء إلى المرتزقة في معركته المستمرة مع الثوار. كثرٌ من مقاتليه الأجانب يأتون من أفغانستان: مُراد مثلاً، المحتجز حالياً في حلب كأسير حرب، بعد خوضه معركة واحدة، دامت من فجرٍ إلى آخر، تلاه مباشرة. وعندما أشرقت عليه الشمس للمرة الثانية في حلب، كان المزارع الأفغاني مُراد لا يزال منكمشاً مرتعداً في الطبقة الثانية من المنزل المفروض أن يدافع عنه حتى الموت. على الأقل، تلك هي الأوامر التي كان قد تلقاها من الضابط الإيراني المسؤول عنه.

كيف وصل مراد إلى هذه المدينة التي مزقتها الحرب، بعيداً كل هذا البعد عن قريته في جبال أفغانستان؟ يقول إن جُلّ ما أراده هو إجازة إقامة إيرانية. لكنه في ختام رحلته وجد نفسه يقاتل في الحرب الأهلية السورية، مرتزقاً لدى نظام بشار الأسد.

في ذاك الصباح في حلب، لم يعرف مُراد كم بقي من عناصر وحدته على قيد الحياة. كان يجهل أين هو، ومَن يقاتل. مخازن رشاشه الأربعة فرغت قبل ساعات. وعندما تسبّب انفجار عنيف بانهيار المنزل، وجد نفسه يفكر في بناته. يقول: "رحت أصرخ ظانّاً أنني أختنق. ثم حلّ السكون على كل شيء حولي".

---

*) كاتب التحقيق: كريستوف رويتر، مراسل من الشرق الأوسط لمجلة دير شبيغل الألمانية. نشر بالألمانية، وفي١١مايو/ أيار ٢٠١٥ ونُشر بالإنكليزية على الموقع الإلكتروني لمجلة دير شبيغل: http://www.spiegel.de/international/world/afghan-mercenaries-fighting-for-assad-and-stuck-in-syria-a-1032869.html

وصل رجال، انتشلوه من تحت الأنقاض، فيما لا يزال يصرخ. كان محظوظاً، ولو أنه لم يرَ الأمر على هذا النحو بدايةً. يقول: "اعتقدت أنهم سيقتلونني على الفور. لكنهم ضمّدوا جراحي، واقتادوني إلى مقرهم. واحدٌ منهم كان يتكلم بعضاً من الفارسية، فقال لي إنه ما من داع للخوف".

كان ذلك منذ سبعة أشهر. ومذ ذاك، يقبع مُراد مع أفغاني آخر في سجن مُرتَجَل تابع ل"للجبهة الشامية"، إحدى أكبر تشكيلات الثوار في حلب. هما محتجزان في قبوٍ مضاء بالنيون، قرب مولد كهربائي، يهدر باستمرار. الجدران على وشك التداعي نتيجة انفجارات، لا تعد، ولا تحصى، هزّت المدينة. إضافة إلى الأفغان، أسرت مجموعات الثوار المقاتلة على الجبهات الأمامية باكستانيين وإيرانيين.

الحرب في مدينة حلب السورية الشمالية - كما على تخوم حماة ودمشق وصولاً إلى درعا في الجنوب - اتخذت وجهاً أفغانياً، أو وجهاً ذا ملامح آسيوية واضحة. كثرٌ من هؤلاء الأفغان الذين أُرسلوا إلى المعركة ينتمون إلى الهزارة، وهي أقلية شيعية، من أفقر الفقراء في أفغانستان.

أ. نفاد الجنود

بدأت الدكتاتورية الأسدية تنفد من الجنود، فأخذت تعتمد اعتماداً متزايد على المرتزقة. فمنذ البداية، شكلت الديموغرافيا السورية غريماً فعلياً للنظام الذي لم يقوَ قط على هزيمته هزيمة كاملة.

للحؤول دون انهيار القوات الحكومية السورية، راحت وحدات قتالية تتمتع بخبرة عالية من ميليشيا حزب الله اللبنانية، تقاتل نيابة عن الأسد منذ العام ٢٠١٢. لاحقاً انضم الإيرانيون والعراقيون والباكستانيون واليمنيون. جميعهم شيعة من أنحاء مختلفة من العالم، وأخذ النظام يعوّل عليهم أكثر فأكثر. لكنْ؛ كلما طال أمد الحرب من دون تحقيق النصر، صعُبَ على حلفاء الأسد تبرير هذا العدد المتنامي من الجثث. في العام ٢٠١٣ خسر حزب الله، على سبيل المثال، ١٣٠ مقاتلاً لدى

استيلائه على القصير. أكثر من ذلك بكثير كلفته المحافظة على مواقعه في هذه المدينة، فراح يكتب "حادث سير" على شهادات وفاة مقاتليه الذين يسقطون في سورية.

أما العراقيون؛ فجميعهم - تقريباً - عادوا إلى ديارهم. بدل أن يقاتلوا بأنفسهم، يتحكمون عن بعد، وعلى نطاق واسع بسير العمليات. تُشرف الميليشيا العراقية، "عصائب أهل الحق" مثلاً، على انتشار المتطوعين الباكستانيين في سورية. لكنْ؛ ما من مجموعة إثنية حاضرة حضور الهزارة الأفغان على جبهات النظام كلها. من الصعب الحصول على أرقام دقيقة لأعدادهم، لكن يُعتقد أن حوالي ٧٠٠ منهم فقدوا حياتهم في حلب ودرعا وحدهما. والأسوأ أن معظمهم لم يأتوا إلى سورية بإرادتهم الكاملة.

ب. تجار البؤس

يعيش في إيران حوالي مليونين من الهزارة، معظمهم مهاجرون غير شرعيين. وهم خزان لا ينضب من اليائسين الذين جَنَّد الباسدران (الاسم الذي يُعرف به الحرس الثوري الإيراني) ألوفاً منهم في السنة ونصف السنة الماضيين للقتال في سورية.

مُراد الحميدي البالغ من العمر ٤٥ عاماً، والقابع حالياً في سجن حلب، مزارع من شمال أفغانستان، من قرية شهرزاد خان التي يطلق عليها اسم ال"٤٠٠ منزل". كان يملك حقلاً صغيراً مساحته ٢٥٠٠ متراً مربعاً. الكهرباء والمياه والمدارس لم تكن متوفرة في تلك القرية. من دون وثائق سفر، هرب إلى إيران؛ حيث عمل على نحو غير شرعي في مقلع للحجار، إلى حين إلقاء القبض عليه في سبتمبر/ أيلول ٢٠١٣: "اتهموني ببيع المخدرات، لكن الأمر ليس صحيحاً"، قال، مضيفاً، إنه ضُرب على مدى ١٥ يوماً، وتعرض للجلد بكابلات ثخينة.

الندبة الدائرية على ظهره برهان على ما يرويه عن حرقه بالسجائر: "انهم عنصريون في إيران. لا يريدوننا في بلدهم لمجرد اننا أفغان. نادراً ما يحصل

أحد منا على أوراق لجوء". أوراق كهذه كانت ستسمح له بإرسال أولاده إلى المدرسة والحصول على بعض المواد الغذائية على الأقل.

يقول مُراد إنه حكم بالسجن لمدة ست سنوات. بعدما أمضى السنة الأولى في سجن "إيفين" سيىء السمعة في طهران، تلقى زيارة غير متوقعة من شخص، يرتدي زيّ الباسدران (الحرس الثوري) الأخضر.

- ما سبب سجنك؟ سأله الرجل.

- المخدرات، أجابه مُراد.

- هل تريد أن تستبدل آخر خمس سنوات من عقوبتك بعقوبة أخفّ؟

لم يرفض مراد العرض، فقال له الضابط إن عليه الالتحاق بالحرب في سورية لمدة شهرين: مهامه ستكون بسيطة، كالحراسة مثلاً. ووعده باحتمال حصوله على إجازة إقامة لدى عودته. وافق الأفغان الآخرون في الزنزانة على مقايضة ما تبقى من مدة عقوبتهم بشهرين من الخدمة العسكرية في سورية. وُعدوا براتب شهري، قدره مليوني تومان إيراني، أي ما يعادل سبعمائة دولار أميركي.

سعيد أحمد حسين، الرجل المحتجز مع مُراد في حلب، ذَكَرَ المبلغ نفسه. أمضى حسين سنوات في العمل في قطاع البناء في منطقة سكنية شمال طهران. يقول: "فجأة، حدثت هنالك مداهمات، وكنت واحداً من ال١٥٠ مهاجراً غير شرعي، اعتقلوا. كنا جميعا من الهزارة. ثم أتى أشخاص من الحرس الثوري وعدونا بالمال وإجازات إقامة مقابل ذهابنا طوعاً إلى سورية. لكنهم قالوا - أيضاً - إنهم سيرسلوننا إلى هناك على أي حال. قَبِل الجميع بعرضهم".

من السجن، أرسلوهم إلى قواعد عسكرية مختلفة قرب طهران لتلقي تدريب على استخدام الكلاشينكوف: "قال لنا المدرب إننا سنقاتل الإرهابيين في سورية"، يتذكر مُراد. ألبسوهم لباساً مدنياً، ونقلوهم في

حافلات إلى مطار الإمام الخميني الدولي في طهران، ثم في طائرة ركاب، إلى دمشق: "كانت عائلات على متن الطائرة. لم يكن من المفترض أن يعلم أحد أننا جنود"، يروي مُراد.

ضابطان إيرانيان رحّبا بهم لدى وصولهم إلى دمشق، وقدما لهم الشاي. نُقلوا إلى أبعد من ذلك، إلى مدينة اللاذقية الساحلية، ومن ثم؛ بالباص إلى قاعدة عسكرية على مشارف حلب؛ حيث مكثوا عشرة أيام: "لم يعُد الإيرانيون يتحلّون بتلك الوديّة. وأقل منهم وداً كان السوريون الذين كانوا يصرخون علينا عندما نتحدث بالفارسية"، قال أحدهم في إحدى الليالي وُزعت عليهم الأسلحة واللباس العسكري، وسيقوا في سيارات إلى نقطة تجَمُّع لثلاثمئة أفغاني: "مشينا على الأقدام حتى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً - يقول مُراد - ثم أشاروا في الظلام إلى مبنى متعدد الطبقات، وأمروا عشرا منا باقتحامه، والمحافظة على موقعهم في داخله بأي ثمن! ظلوا يرددون أنه لا يمكننا أن نستسلم لأن الإرهابيين سيقطعون رؤوسنا". هذا ما رواه مُراد، مردداً كممسوس: "لا تستسلموا، لا تستسلموا".

ت. محاربون كالآلات

يقول اثنان من قادة الثوار شاركا في تلك المعركة، لكنْ؛ على الجهة المقابلة، إن الأفغان كانوا "يحاربون كالآلات. هم عنيدون بشكل لا يُصَدَّق، يركضون أسرع منا، ويواصلون إطلاق النار حتى بعد محاصرتهم. لكنْ؛ بمجرد فقدهم الاتصال اللاسلكي بمقرّ القيادة، يصابون بحال من الهلع".

"جميعنا كنا خائفين - يقول مُراد - سألت نفسي ما الذي افعله هنا، فهذه ليست بلادي". عندما سأله المترجم لماذا سمح لنفسه بالتورط في مثل هذا الوضع منذ البداية؟ غضب للمرة الوحيدة أثناء حديثي معه: "خمسون متراً بخمسين من التربة الرديئة! كيف بمقدور خمسة أشخاص أن يعيشوا منها؟!"، قال ثم رفع يديه بوهن وتابع: "بدأنا نركض. لحسن حظنا، كان المبنى خالياً، فانتشرنا بين طبقاته. تعرضنا لإطلاق نار. لم ننتبه حتى

إلى أنه لم يكن هناك أحد غيرنا. كان في المبنى ضابط إيراني، راح يصرخ عليّ قائلاً: إما تقاتل، أو أقتلك! أفرغت كل ما لدي من ذخيرة من دون أن أدرك على ماذا كنت أطلق النار".

يقول أبو حسنين، أحد القائدَيْن من الثوار اللذين شاركا في معركة تلك الليلة: "لم يكن لمواصلتهم القتال أي معنى إطلاقاً. لكنهم لم يستسلموا. فقمنا بتفجير المبنى". كان ذلك هو الانفجار الذي دفن مُراد وسعيد تحت الأنقاض. هما الوحيدان اللذان ظلا على قيد الحياة من المجموعة.

هما - الآن - سجينان في مدينة، الحياة فيها أخطر من أي سجن. معرضان يومياً لأن يمزقهما إرباً برميل متفجر، يلقيه الجيش الذي أتيا للقتال في صفوفه. البراميل هذه دليل على يأس النظام الذي مُنيَ بهزائم عسكرية كبيرة في الأسابيع الأخيرة.

ث. وقت البراميل

الوقت الممتد بين الثامنة والتاسعة صباحاً، هو وقت البراميل في شرق حلب. وقت دحرجتها ورميها من المروحيات العسكرية، بعدما صارت تُصنَّع بكميات هائلة، لتُلقى كالمطر من السماء، فتدمر كل شيء على الأرض في محيط عشرين متر من انفجارها.

"تعالَ بعد الساعة التاسعة"، يوصي الرجل المسؤول عن السجناء الأفغان. إنه الأحد ٣ مايو/ أيار ٢٠١٥. قبل وقت قصير من توجه فريق "دير شبيغل" الصحافي إلى السجن الذي أقامه الثوار، سمعنا دوي انفجار ضخم في مكان مجاور لحيّ سيف الدولة. في طريقنا للقاء السجناء، رأينا باستمرار أشخاصاً بادية ملامح الذعر والهلع على وجوههم. بعضهم يبكي، في سيره نحو حي سيف الدولة. شعرنا بداية أن ما يحدث أمر غريب. فمعظم البراميل المتفجرة تصيب أبنية مدمَّرة شاغرة. حتى في حال سقوط قتلى، فإن الناس لا يركضون عادة في الشوارع. الموت غادر في حلب. والمئة ألف شخص الذين لا يزالون في الأحياء الشرقية من المدينة، يعبّرون عن مقاومتهم الصلبة والعنيدة، برفضهم مغادرة منازلهم.

ج. ما وراء اليأس والأمل

البرميل المتفجر الذي سقط قبل وقت وجيز من الساعة التاسعة صباحاً، أصاب المدرسة الوحيدة في الحيّ: مبنى من أربع طبقات تحوّل حفرة مليئة بالركام. ما تبقى منه معلق في الهواء فوق الحفرة، كخرق عملاقة ممزقة. كان الأحد يوم امتحانات، أي اليوم الأخير الذي لا يزال التلامذة أن يجتمعوا فيه معاً. وهو اليوم نفسه الذي تُقام فيه الامتحانات في الشطر الغربي من المدينة، والواقع تحت سيطرة النظام. من شبه المؤكد أن الطيارين كانوا يعلمون ماذا يفعلون تماماً.

على الفور، قُتِل ستة أطفال ومدرّس. لم يكن الأطباء واثقين من أن أطفالاً كثيرين سيبقون على قيد الحياة. في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك النهار، توقف بمحاذاة الركام رجل على دراجة نارية، وسأل أولئك الذين كانوا لا يزالون يحفرون، إن وجدوا ابنته. قال إنه قصد المستشفيات كلها في المدينة، وكذلك المشارح، من دون أن يعثر عليها. اقتصر جواب الحفارين على هزّ رؤوسهم، بصمت: "ابنتي!"، قال متنهداً، بنبرة آتية من ما وراء اليأس والأمل، ثم غادر على دراجته النارية.

كما لو أن مصيري مراد الأفغاني ورجلَ الدراجة النارية قد تشابكا للحظات. فقبل وقت قصير، كان مُراد قد لفظ كلمة "بناتي!" بنبرة شبيهة جداً بنبرة رجل الدراجة النارية فيما هو يقول "ابنيي". بنات مراد لم يصلهم أي خبر من والدهم منذ أكثر من سنتين. ليس لديه أي أشقاء في القرية، ووالداه قد توفيا. فقط حماته لا تزال على قيد الحياة، لكنها فقيرة جداً هي أيضاً: "مَن يعتني بعائلتي؟ هل لديهم ما يكفي من الطعام؟ هل لديهم ملابس؟ هل استطاعوا تحمّل فصل الشتاء؟". ويقول - أيضاً - إن مصيره ليس في يد الله.

ج. بين البؤس والرعب

بوساطة من إمامٍ ومن الهلال الأحمر، حاول ثوار من "الجبهة الشامية" مبادلته مع أفغان آخرين برجالهم المحتجزين في سجون النظام. لكن ذلك لا يبعث على الأمل لدى مُراد. يعتقد أن التبادل سيكون نوعاً آخر من الرعب:

"ماذا يفعلون بي إن سلموني مجدداً إلى الجيش السوري؟ سيضعوني مرة أخرى في إحدى وحدات المغاوير الانتحارية، كما حدث سابقاً. لا أريد أن أقوم بذلك مرة ثانية. أريد أن أعود إلى أفغانستان". لكنها لست سوى عودة إلى البؤس الذي حاول يوماً الهرب منه.

الحكومة الأفغانية لا تبدو مهتمة على وجه الخصوص باختفاء آلاف من مواطنيها التي ابتلعتهم الحرب السورية. "لا يوجد لدى وزارة الخارجية الأفغانية أي وثيقة رسمية تتعلق بأفغان أُجبروا على الذهاب إلى سورية من أفغانستان أو إيران"، يقول المتحدث باسم الخارجية الأفغانية شكيب مستغني. تابعَ: "لا يمكن التعويل على الوثائق التي يُعثر عليها على شبكة الإنترنت". وبالطبع أضاف: "إن الحكومة الأفغانية تتابع بجدية مسألة المقاتلين الأفغان في سورية، وتحاول إنقاذ حياتهم".

"في الوقت الراهن لا يبدو أن هناك عمليات تبادل للأسرى"، يقول الشيخ عبد القادر فلص الذي يقود المفاوضات. يتابع: "لقد بادلنا في الماضي ضباطاً سوريين تابعين للنظام أسرهم الثوار. النظام مستعد للإفراج عن سجناء ومعتقلين لديه في مقابل مقاتلين إيرانيين ومن حزب الله خصوصاً. أما في مقابل الأفغان؟: لا شيء. لقد اتصلنا باللجنة الدولية للصليب الأحمر: مجدداً لا شيء. سيبقى هذان الرجلان عندنا حتى نهاية الحرب، على الأرجح".

استطاع أحد قادة الثوار القيام بمفاوضات على ستة أفغان آخرين في حلب. تكلم عبر الهاتف مع واحد من أقوى الضباط السوريين: العقيد سهيل الحسن الذي يلقبه أنصاره ب"النمر". كان جواب العقيد موجزاً: "افعل بهم ما تشاء. اقتلهم إن أردت، فهم ليسوا سوى مرتزقة. بإمكاننا أن نرسل لك ألوفاً منهم".

الفصل السادس
التشكيلات والألوية العسكرية

عارف حاج يوسف

أسوةً بغيرها من المدن، مرّت حلب بمراحل الثورة التي شهدتها سورية، كالتظاهرات الصغيرة، وحملات المناشير والكتابة على الجدران، والمظاهرات الطيارة، وصولاً إلى المظاهرات الحاشدة التي كانت تجمع عشرات الألوف من المتظاهرين ظهيرة كلّ يوم جمعة في أحياء صلاح الدين وبستان القصر والسكري والشعّار والأشرفية وغيرها.

١- تحرير الريف

بدأ حضور السلاح سراً، بعد المداهمات الليلية والاعتقالات التي قامت بها قوات الأمن، فطاولت أعداداً كبرى من المدنيين الذين نشطوا في أعمال معارضة للنظام. قمعت قوّات النظام المظاهرات بالرصاص، ما أدّى إلى مقتل أعداد كبيرة من المتظاهرين، وارتقى عدد من هذه الأعمال القمعية الشرسة إلى مستوى المجازر الجماعية. عدا القمع المباشر للمظاهرات والاعتصامات، سُجّل عدد كبير من الاعتقالات، كما وُثّق عدد كبير من حالات القتل تحت التعذيب، ومارست ميليشيات الشبيحة والأجهزة الأمنية سياسية اختطاف ممنهجة لابتزاز الناس.

شكّلت هذه الممارسات سبباً كافياً للبعض، لحمل السلاح "للدفاع عن المتظاهرين العُزّل"، على ما أعلنت بعض الكتائب إبّان تشكيلها. أسست هذه الكتائب مقرّاتها السرّية الأولى في ريف حلب؛ حيث عقدت اجتماعاتها وخبأت أسلحتها، نظراً للضغط الأمني الكبير في المدينة آنذاك. لكنّ هذه السرّية لم تدم طويلاً، فظهور بعض قطع السلاح في أيدي متظاهري الريف، شكّل ذريعة رآها النظام مناسبة للتصعيد ضد معارضيه.

هكذا، بدأت قوات الجيش النظامي بإرسال أرتال عسكرية مرفقة بالدبابات وناقلات الجند إلى مناطق الريف الشمالي، التي نشطت فيها الكتائب المعارضة، وقامت - أيضاً - بعدّة بعمليات عدّة داخل مدينة حلب.

إقحام الجيش في قمع الانتفاضة الشعبية شكّل نقطة تصعيد مهمّة، بعدما اقتصرت مهمة القمع في المراحل الأولى من الثورة على الأجهزة الأمنية و"اللجان الشعبية"، أي "الشبيحة".

بدأت معركة تحرير مدينة أعزاز، على الحدود السورية التركية، على أيدي أبنائها المدنيين ممّن حملوا السلاح، مدعومين بأبناء مناطق أخرى في الريف وبعض المنشقين عن جيش النظام.

تُعد أعزاز أول مدينة محررة في محافظة حلب، وثاني مدينة "بعد عندان" تحمل السلاح ضد النظام. في التاسع عشر من تموز ٢٠١٢، وبعد مرور ١٩ يوماً على بدء معركة التحرير، خسر النظام مدينة أعزاز، وشارك في تحريرها عدد من الكتائب التي ينتمي غالبية أفرادها إلى الريف الحلبي: "لواء ثوار الشمال، أحرار عندان، كتيبة الخال". بعد ذلك، بدأت معارك تحرير الريف، فنشبت معارك في حريتان وعندان والأتارب وتل رفعت ودارة عزة والباب، شارك فيها أبناء هذه المناطق بمؤازرة عسكرية من باقي كتائب الأرياف الموزعة في المناطق المحررة. لم تكُن هذه المعارك مثل معارك مدينة حلب التي تلتها؛ إذ إن تحرير العديد من القرى لم يكن يتطلب أكثر من السيطرة على مخفر الشرطة أو على المفرزة الأمنية في كل قرية. لم تستطع قوات النظام الصمود أمام المدّ الشعبي الريفي الذي اتخذ المقاومة المسلحة نهجاً تحريرياً. وبالرغم من أن الكتائب المسلحة في الريف كانت قليلة ومتوارية، ولم تكن تملك من السلاح والذخيرة ما تملكه الآن أيّ كتيبة صغيرة من رشاشات الكلاشينكوف الروسية، وبنادق البمب أكشن الأميركية، وبعض قواذف آر بي جي، فإن الحاضنة الشعبية لهذه الكتائب في الريف الحلبي، هي التي ساهمت بقوة في إحكام السيطرة على مساحات شاسعة من ذلك الريف.

٢- كتائب مسلحة في حلب

اختلفت المُعطيات في مدينة حلب؛ حيث استمر الحراك السلمي مدة أطول، وتصدّرت الجامعة مشهد تظاهراته، وتنوّع المشاركون فيها بين حلبيين وغير حلبيين من مختلف مناطق سورية بتنوّع أديانها وطوائفها وأعراقها. وعلى الرغم من الضغط الأمني الهائل الذي مُورس على الحراك الحلبي، من اعتقالات وانتشار الشبيحة واللجان الشعبية في أماكن التظاهر، فإن عدد المتظاهرين في حلب وصل إلى الآلاف في بعض المظاهرات عام ٢٠١٢.

بدأ الحراك المسلّح في حلب بكتائب صغيرة شُكّلت سرياً، لا مقرات لها وغير معروفة العناصر، ونُظِّم ما يعرف بـ "الخلايا النائمة"، التي قامت بعمليات اغتيال لشخصيات أمنية وقادة للجان الشعبية والشبيحة. من أهم هذه الخلايا ما عُرف لاحقاً بكتيبتي "أبو عمارة" و"الأبابيل" و"لواء حلب المدينة".

استمرّ الجيش الحر، كامتداد مسلّح للمجتمع المحلي، غالباً على التشكيلات المقاتلة في البداية، مستنداً إلى تديّن شعبي تقليدي كمرجعية روحية وأخلاقية ناظمة لعلاقاته، من دون أن يتطوّر ذلك التدين إلى إيديولوجيا ومشروع سياسي، يهيمنان على الحياة والعلاقات اليومية العامة.

وبعدما أفرج النظام عن معتقلي صيدنايا، شكّل هؤلاء عدداً من المجموعات الإسلامية المقاتلة الواضحة في اعتمادها النهج الدعوي الإسلامي. تطورت بعض من هذه المجموعات، فأضحت في شكل وحجم "حركة أحرار الشام" و"ألوية صقور الشام" و"جيش الإسلام". في الوقت نفسه، كثّف النظام ارتكاب المجازر ذات البُعد الطائفي، وضاعف اعتماده على إيران سنداً إقليمياً. ثم دخل تنظيم "القاعدة" و"حزب الله" والحرس الثوري الإيراني على خط الصراع. عندئذٍ، شارك الإخوان المسلمون السوريون في دعم مجموعات مقاتلة في سورية.

ساهمت هذه العوامل في إفراز ظواهر عسكرية - دينية، تطورت إلى أشكال مختلفة من الفصائل، بعضها انتهى وجوده كأسماء، في حين ترسّخ وجود بعضها الآخر واسمه في سورية. تلا ذلك بدء إرسال الدعم الحكومي الغربي والأميركي لمجموعات سورية، ظلت ضمن هيكلية الجيش السوري الحُر، الذي وصله الدعم عبر هيئة أركانه والمجالس العسكرية للمحافظات.

في حلب، بعد طغيان العمل العسكري على الثورة السورية، نستطيع أن نحصي عدداً من الكتائب والألوية والتجمعات العسكرية الناجمة عن تحالفات وصراعات داخلية، وعن صراعات بين الفصائل المسلحة.

كيف تشكّلت هذه المجموعات؟ كيف وصلت إلى ما هي عليه الآن من إيديولوجيا ومعتقدات وخطابات وأشكال تنظيمية وأسماء مختلفة؟ أين يتوزّع مقاتلوها؟ ومن أين تنحدر أصولهم الاجتماعية؟ وضدّ مَن يُقاتلون؟ وكم أعدادهم؟ من هم قادة الفصائل؟ وما هي مصادر تمويلها، ومشاريعها الفكرية والسياسية؟

أ. الجبهة الإسلامية

أعلن عن تشكيل الجبهة الإسلامية في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ٢٠١٣، وضمّت فصائل إسلامية تعمل في كل المناطق التابعة لسيطرة المعارضة في سورية: "لواء التوحيد، حركة أحرار الشام الإسلامية، ألوية صقور الشام، جيش الإسلام، لواء الحق، أنصار الشام، الجبهة الإسلامية الكردية". في حلب شملت الجبهة الإسلامية فصائل: التوحيد، أحرار الشام، أحرار سورية الذي انضم إلى الجبهة منتصف عام ٢٠١٤.

- لواء التوحيد

يتمركز لواء التوحيد في حلب وريفها، وتم الإعلان عن تشكيله في الثامن عشر من تموز ٢٠١٢ في ريف حلب الشمالي، بهدف توحيد الكتائب المقاتلة في الريف تحضيراً لمعركة حلب. ضمّ اللواء - آنذاك - عدداً كبيراً من كتائب الريف التي كان لها الدور الرئيس في سيطرة المعارضة على

الريف الحلبي: كتائب الباب، منبج، عندان، حريتان، جرابلس، رتيان، بيانون، حيان، دارة عزة، قبتان الجبل، عنجارة، معارة الأرتيق، دابق، دير حافر، أعزاز، دير جمال. هذا إضافة إلى كتائب الشهباء في حلب، ولواء أحرار الشمال الذي كانت له اليد الطولى في معركة أعزاز، ويُعتبر النواة الأولى لـ "لواء التوحيد". وذكر بيان التشكيل، الذي تلاه عبد العزيز سلامة، القائد العام للواء، أنه يهدف إلى العمل العسكري الجماعي والمنظّم سعياً لإسقاط النظام، وحماية المدنيين والأملاك العامة والخاصة، ومحاسبة كل من يعتدي على المدنيين، ومساعدة كل من يريد الانشقاق عن جيش النظام. عُين عبد القادر الصالح، ابن مدينة مارع، قائداً للعمليات العسكرية في لواء التوحيد.

قاد الصالح، ولقبه "حجّي مارع"، العديد من المعارك ضد قوّات النظام، أهمها معارك تحرير أعزاز الحدودية ومدن الراعي، جرابلس، وحريتان. كان لواء التوحيد من أوائل المجموعات التي دخلت إلى الطرف الغربي من حلب، بعد بدء الاشتباكات بين ثوار حي صلاح الدين وقوات النظام. تمكن اللواء من إدخال ٢٧٥ مقاتلاً الحي في اليوم الأول من المعارك في ٢٠ تموز ٢٠١٢، بقيادة أحمد يوسف الجانودي الذي قتل في وقت لاحق على أيدي قوات النظام. أما دخول الصالح؛ فدخل مع نحو ٥٠٠ مقاتل في اليوم التالي إلى الأحياء الشرقية. وهكذا كان لواء التوحيد العنصر الأساسي الحاسم في تحرير الأحياء الشرقية من المدينة خلال ساعاتٍ قليلة. شارك الصالح في السيطرة على المراكز الأمنية في النيرب والشعار وطريق الباب وهنانو والصالحين ومقر الجيش الشعبي. شارك اللواء بقوّة، في معارك السيطرة على ثكنة هنانو واللواء النظامي ٨٠ ومدرسة المشاة.

في المدة الفاصلة ما بين تشكيل لواء التوحيد ومقتل حجي مارع أواخر ٢٠١٣، كان اللواء يضم في صفوفه أكثر من عشرة آلاف مقاتل، بتسليح خفيف ومتوسط، لا بأس بهما، من رشاشات ثقيلة وقاذفات صاروخية مضادة للدروع، والقليل من السلاح الثقيل المصادر من مخازن ومراكز

الجيش السوري النظامي، كناقلات الجند والدبابات. وكان التوحيد يُعتبر الفصيل الأقوى في مدينة حلب؛ حيث سيطر على ٧٠ بالمئة من المناطق الخارجة عن سيطرة النظام في المدينة، إضافة إلى قتاله على أكثر جبهات حلب عنفاً، مثل المدينة القديمة، صلاح الدين، سيف الدولة، العامرية، مدرسة المشاة، السجن المركزي، ومطار النيرب العسكري. كما شارك اللواء بقيادة الصالح في معارك كبرى خارج حلب، مثل معركة القصير في ريف حمص ضد الجيش النظامي وعناصر حزب الله اللبناني، ومعركة "قادمون، يا حماه" في ريف حماه. وضمّ اللواء في صفوفه عدداً لا بأس به من الكتائب التي كانت تقاتل في مناطق مختلفة من سورية.

أصيب الصالح خلال قصف جوّي، بجروح بليغة، نُقل على إثرها إلى مدينة غازي عنتاب التركية. أعلن عبد العزيز سلامة، القائد العام للواء التوحيد، عن وفاة عبد القادر الصالح في ١٨ تشرين الثاني ٢٠١٣. أثّر الخبر على قوّة لواء التوحيد تأثيراً كبيراً، فتراجع زخم اللواء تراجعاً ملحوظ حتى بعد تعيين الشيخ أبو توفيق قائداً عسكرياً بديلاً للصالح. أبو توفيق هو ابن مدينة تل رفعت في ريف حلب الشمالي. واستمر تراجع حضور لواء التوحيد في مدينة حلب مع دخوله في معارك ضد تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" في حلب وريفها، ما اضطره لسحب عدد كبير من قواته في حلب، وإرسالها إلى قرى الريف الشمالي والشرقي لصدّ هجمات التنظيم المتطرف عليها.

يُشار إلى أن لواء التوحيد لم يشارك في القتال ضد تنظيم "الدولة الإسلامية" في بداية المعارك ضده في حلب. تلاقى هذا الموقف مع باقي فصائل الجبهة الإسلامية التي أعلنت في البداية وقوفها على الحياد. لكن اعتداءات "داعش" على جميع مقاتلي الفصائل الأخرى، ومن بينهم مقاتلي لواء التوحيد، أدّى إلى تغيير هذا الموقف وإصدار قياديي التوحيد قراراً بخوض المعركة. كان هذا عاملاً مهماً من عوامل استنزاف قوة لواء التوحيد إلى الحدّ الذي نراه عليه اليوم.

يقتصر حضور اللواء - الآن - على جبهات المدينة القديمة وسيف الدولة. وهي جبهات هادئة نسبياً. وهنالك بعض المقرات العسكرية في مارع وعندان اللتين تعتبران المعقلين الأساسيّين لـ "لواء التوحيد" الذي يسيطر مقاتلوه - وإن تحت اسم الجبهة الإسلامية - على معبر باب السلامة الحدودي مع تركيا قرب أعزاز، بعد انصهار ما تبقّى من "لواء عاصفة الشمال" ضمن تشكيلات "الجبهة الإسلامية". ولواء عاصفة الشمال تأسس في أعزاز، وخاض معركة تحريرها، ثم تمركز في عدّة أحياء حلبية مثل بستان الباشا والهلّك، قبل أن يشنّ تنظيم "داعش" حملةً عسكرية على مقرّاته في أعزاز، مما أضعف عاصفة الشمال، واضطره إلى الانصهار ضمن تشكيلات عسكرية أخرى.

يمتلك لواء التوحيد مؤسسة أمنية، شُكّلَتْ أواخر عام ٢٠١٣، ومكوّنة من: جهاز للشرطة عسكرية، يهتم بشؤون الأمن العام ومراقبة التجاوزات التي ترتكبها فصائل المعارضة المسلحة، ويعمل على فض النزاعات بين المدنيين. وفرع أمن الطرق الذي يتولّى تأمين المواصلات، وحمايتها من قطّاع الطرق في ١٥ حاجز أمني في الريف الشمالي لمدينة حلب. وفرع أمن الصناعة الذي عمل على حماية الممتلكات في المنطقة الصناعية في الشيخ نجّار، قبل أن تتحوّل هذه المنطقة إلى جبهة قتال، ويسيطر النظام عليها لاحقاً.

قبل الإعلان عن تشكيل لواء التوحيد، كان تمويل الكتائب المقاتلة الصغيرة يعتمد على مصادر ذاتية، ورجال أعمال مستقلين من سوريين مقيمين في المغترب، أو خليجيين داعمين للثورة السورية. لكن تأثير المال الخليجي- الإخواني كان جلياً بعد تشكيل اللواء وبدء وصول التمويل من قطر عبر شخصيات محسوبة على الإخوان المسلمين في المجلس الوطني السوري، مثل أحمد رمضان. وبدأت الرايات الإسلامية بالظهور على جبهات اللواء، وفي مقرّاته العسكرية وسياراته. ثم تغيّر شعار اللواء، فسُحب منه اللون الأخضر والنجوم الحمراء الثلاث، وأضيفت إليه عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

كان النَّفَس الإسلامي يبدو جلياً في إيديولوجيا اللواء منذ تأسيسه، نظراً للمصدر الريفي المحافظ لغالبية عناصره. ولم تكن هناك أهداف سياسية مطروحة بوضوح في خطاب اللواء في مراحله الأولى. تغيّر هذا الأمر حين أعلن عبد القادر الصالح، في لقاء تلفزيوني مع تيسير علوني في قناة الجزيرة، رداً على سؤال علوني عن رؤية لواء التوحيد لطبيعة الدولة في المستقبل، فقال الصالح: "نحن نسعى لأن تكون سورية دولة إسلامية معتدلة. أين المشكلة في أن نسعى لسورية إسلامية وطنية تراعي حقوق الأقليات، ونعيش فيها نحن وهؤلاء ضمن نسيج واحد؟ نريد أن يكون التشريع الإسلامي هو المصدر الوحيد للدستور، لكننا لن نفرض ذلك بالقوة".

تبنّى لواء التوحيد "مشروع أمة"، على ما ورد في ميثاق "الجبهة الإسلامية" بعد انخراط اللواء فيها. يؤكد الميثاق "على إسلاميّة سورية بعد سقوط النظام، ذلك عبر بناء دولة إسلامية، تكون السيادة فيها لشرع الله وحده، كمرجع وحاكم وموجّه وناظم لتصرفات الفرد والمجتمع والدولة"، رافضاً "مصطلحات العلمانية والديموقراطية والدولة المدنية" رفضاً قاطعاً، "لما فيها من تناقض مع الدين الإسلامي"، على ما جاء في نص ميثاق الجبهة الإسلامية.

- حركة أحرار الشام الإسلامية

تمخّض اتحاد أربعة فصائل إسلامية سورية كانت تقاتل مستقلة - وهي "كتائب أحرار الشام"، و"حركة الفجر الإسلامية"، و"الطليعة الإسلامية"، و"كتائب الإيمان" - عن تشكيل "حركة أحرار الشام الإسلامية" في الشهر الأخير من عام ٢٠١١. تقاتل الحركة في معظم المناطق السورية، ويُقدَّر عدد مقاتليها على امتداد الأراضي السورية بحوالي ٢٥ ألف مقاتل، بعدما نشأت في مدن وقرى محافظة إدلب، ثم توسّعت إلى ريف حلب، ومنه إلى جبهات المدينة.

شاركت "حركة أحرار الشام" في القتال على جبهات مدينة حلب،

عندما كانت تقاتل تحت اسم "كتائب أحرار الشام"، قبل الاندماج وتشكيل الحركة. ونشطت في حلب بعد تحرير جزء كبير منها على يد مقاتلي "لواء التوحيد"، مدعومين بثوار المناطق الريفية التي تمّ تحريرها في تموز ٢٠١٢. وتواجد مقاتلو الحركة، والمتحدّرون بشكل رئيسي من ريف حماه وريف إدلب، على جبهات سيف الدولة وصلاح الدين ومطار النيرب العسكري.

أنكرت "حركة أحرار الشام" دوماً وجود مقاتلين أجانب في صفوفها، لكن التقارير الميدانية أثبتت وجود عدد محدود منهم في صفوفها. يشار إلى أن عدد مقاتليها في حلب بقي ضئيلاً؛ حيث لم يتجاوز ٥٠٠ مقاتل، لم يشاركوا في معارك تحرير الريف الحلبي، ودخلوا إلى المدينة بعد السيطرة على أحيائها الشرقية، وكان لهم حضور ضئيل في قُرى عندان وأعزاز خلال معارك تحرير مدن الريف الشمالي؛ حيث شاركوا مع الكتائب المحلية في المعارك التي حصلت في بداية ٢٠١٢.

حاولت الحركة استقطاب ألوية من الريفَين الشمالي والشرقي لحلب، ونجحت في ضم "لواء أبو بكر الصديق"، وهو أكبر الألوية المقاتلة آنذاك في مدينة الباب شرق حلب، والمقاتل على جبهات سيف الدولة ومنطقة السبع بحرات في حلب القديمة.

عند اندلاع المعركة ضد تنظيم "داعش" في حلب وريفها، وقفت قيادات "أحرار الشام" على الحياد من النزاع الدائر، واصفة إياه بـ"الفتنة بين المسلمين"، لكن ذلك لم يمنع مقاتليها من أبناء مدينة الباب في الريف الشرقي من الدفاع عن مدينتهم ضد ضربات التنظيم المتشدّد، الذي نجح في السيطرة على المدينة بعد معارك طاحنة.

استُنزف مقاتلو الحركة كثيراً في حربهم ضد "داعش". لم يمنع وقوفهم الأولي على الحياد هجماته عليهم وقتلهم أينما وجدهم مقاتلوه. أعدم "داعش" عدداً كبيراً من مقاتلي "أحرار الشام" في ساحات المدن التي

سيطر عليها، كما صفّى ما يُقارب ٢٠٠ عنصر منهم قُرب مقره في ريف حلب الشرقي، عندما كانوا متّجهين إلى قُراهم إثر قرارهم اعتزال القتال ضد تنظيم "الدولة الإسلامية" الذي اعتبرهم "من الصحوات".

لمقاتلي "أحرار الشام" مقارّ وحواجز في حيّ السكّري الحلبي، ممثّلين بحركة "مجاهدون أشدّاء"، التي تشكّل القوّة الرئيسية لهم في حلب. كما يتواجد مقاتلو الحركة على الجبهات في مناطق عزيزة والبريج والملّاح وحندرات والراموسة وسيف الدولة، وجبهات الريف الجنوبي لحلب، وهي جبهات محتدمة دوماً.

مؤسس حركة "أحرار الشام" هو حسان عبود، الملقّب بأبي عبد الله الحموي، وقُتل في التاسع من أيلول ٢٠١٤ إثر انفجار، استهدف اجتماعاً لقادة الحركة في ريف إدلب، أسفر عن مقتله وشقيقه وعدد كبير من قياديي الحركة. يقول حسان عبود، في مقابلة مع تيسير علوني بثّتها قناة الجزيرة، "إنّ كتائب أحرار الشام - وهو الاسم الذي اتخذته الحركة عند انطلاقتها - سبقت الجيش الحر في نشأتها في أيار٢٠١١، لكنها استمرّت بإعداد خلاياها سرّاً حتى لحظة الإعلان عن تشكيل الكتائب في نهاية العام نفسه".

عُيّن هاشم الشيخ، أبو جابر، قائداً عاماً لحركة أحرار الشام بعد اغتيال أكثر من ٤٥ من قياديها، إثر عملية اختراق مدروسة بإحكام أسفرت عن مقتل حسان عبود، مؤسس الحركة وقائدها العام. هاشم الشيخ، من مواليد ١٩٦٨ في مدينة مسكنة شرقي حلب، وكان قد قاتل ضد القوات الأمريكية في العراق، ثُمّ سُجنَ عام ٢٠٠٥ عند عودته إلى سورية، وأصدرت المحكمة حكماً بسجنه ثماني سنوات، لكنّه خرج في أيلول ٢٠١١، بعد ٦ أشهر من اندلاع الانتفاضة السورية السلمية. عقب الإفراج عنه، أسس "كتيبة مصعب بن عمير" في مدينته مَسكنة. انضمت الكتيبة فيما بعد لـ "حركة أحرار الشام"، وساهمت في السيطرة على مدن وأحياء الرقة والطبقة ومطار الجراح العسكري وخناصر ومسكنة وغيرها. كما عُيّن أبو جابر عضواً في مجلس شورى "حركة أحرار الشام" وأميراً للقطاع الشرقي،

ثمّ أميراً لحلب بعد مقتل أبو خالد السوري الذي وصفته لوائح الإرهاب الأميركية كأحد أخطر قيادات تنظيم "القاعدة".

اعتمدت الحركة، كما تنظيم "القاعدة" في العراق، على شبكة خارجية كبيرة من الإسلاميين أصحاب رؤوس الأموال والمقيمين في الخليج وأوروبا. ساهم في ذلك انضمام شخصيات جهادية مهمة إلى الحركة، ولها خبرات كبيرة في هذا المجال، مثل أبو خالد السوري، الذي سهّل الكثير من عمليات الحصول على الدعم، وإيصاله إلى الحركة التي استطاعت شخصيات منها أن تحظى بدعم من المصادر نفسها التي دعمت في السابق تنظيم "القاعدة" في العراق، والذي دعم "جبهة النصرة" في سورية في ما بعد. عدا الشبكة الدولية لدعم الحركات الجهادية، ساهم العديد من أبناء الأرياف الشمالية السورية من أصحاب رؤوس الأموال في دعم "أحرار الشام"، منجذبين إلى توجّهها الريفي المحافظ وانخراط عدد كبير من أبناء أرياف إدلب وحماه، ولاحقاً حلب، فيها.

شملت الاستراتيجية العسكرية للحركة مهاجمة القطع العسكرية الغنية واغتنام أسلحتها، واستفادت من خبرة أعضائها في إنتاج متفجرات محلية الصنع، وبكلفة منخفضة، وكثفت استخدام هذا النوع من المتفجرات. وهذا يفسّر سعي الحركة إلى ضم "لواء أبو بكر الصديق" في الباب، لما كان يمتلكه من خبرات في هذا المجال.

كان لقطر وتركيا دورٌ كبيرٌ في تقديم الدعم العسكري النوعي للحركة. وإضافةً إلى تكريس هذه الدول "الجبهة الإسلامية" كقناة مرور للحملات الإغاثية الضخمة ودعم العمل المدني، فقد حظيت الجبهة بدعم "صندوق الإغاثة والمساعدات الإنسانية"، وهي منظمة مجتمع مدني مرتبطة بالحكومة التركية، و"جمعية قطر الخيرية"، المرتبطة بالحكومة القطرية. وحظيت الحركة بتمويل "الهيئة الشعبية الكويتية" التي يتزعمها الشيخ الكويتي حجّاج العجمي.

كغيرها من التشكيلات السلفية تعتمد "حركة أحرار الشام"، على سردية المظلومية السّنّيّة التي تستخدمها مجموعة كبرى من التنظيمات التي اتخذت من الدفاع عن أهل "السّنّة والجماعة" شعاراً رئيسياً لحمل السلاح. لا تلتزم الحركة بعلم الاستقلال، وتستبدله، براية بيضاء، عليها رمز لصقر، ومعه اسم الحركة.

تعمل قيادة "أحرار الشام"، بمساعدة شرعيي الحركة، على إقامة مشاريع تأهيل ديني تقصد تحويل عناصرها إلى مجموعة من المقاتلين الملتزمين والمؤمنين بأهداف ومبادئ التنظيمات الإسلامية، والمنحازين للسرديات السّنّية. وتعمل - أيضاً - على ترسيخ أسس الحكم الإسلامي وفق رؤية التيار السلفي الجهادي، لكنها تعتمد - أيضاً - على "السياسة الشرعية وموازنة المصالح والمفاسد" في تعاملها مع القضايا الشائكة. وهذا جانب تختلف فيه استراتيجيتها عن استراتيجية تنظيم "القاعدة" وتفرّعاته في أفغانستان والعراق وسوريا وغيرها. فقادة الحركة يهتمون ببناء استراتيجيتها العامة عن طريق حساب العواقب المنتظرة من أي خطوة عسكرية، أو سياسية، وحساب الفوائد والمضار من دخول أي معركة، أو الخروج من أخرى. وهذا ما يجعل حركة "أحرار الشام" أقرب فكرياً إلى حركة المقاومة الإسلامية "حماس" الفلسطينية، أكثر من قربها من "جبهة النصرة".

وتهدف "حركة أحرار الشام" إلى إرساء نظام حكم إسلامي عادل، بوسائل مشروعة، وبرؤية استراتيجية"، كما تتبنّى - أيضاً - "مشروع أمّة" الذي سبق ذكره.

- لواء أحرار سورية

تكوّنت النواة الأولى لتشكيل "لواء أحرار سورية" في مدينة عندان في الريف الشمالي لمدينة حلب، وضمّت ثلاث كتائب رئيسية: "كتيبة شهداء عندان"، "كتيبة أحرار عندان" بقيادة أحمد عفش، و"كتيبة شهداء الجبل" بقيادة محمد غادة. ظهرت هذه الكتائب لأول مرة في صد محاولات جيش

النظام اقتحام عندان في ٢٥ آذار ٢٠١٢. وشاركت مع كتائب الريف الأخرى في معارك تحرير قرى الريف الشمالي كحريتان وحيان وبيانون. انضمّت الكتائب المذكورة إلى تشكيل "لواء التوحيد" في تموز ٢٠١٢، وشاركت مع اللواء في تحرير قسم كبير من أحياء حلب القديمة، كقاضي عسكر وباب الحديد وأقيول وقسطل المشط والأصيلة والبيّاضة وجبّ القبّة. لم يدم انخراط الكتائب الثلاث في "لواء التوحيد" أكثر من شهر، أُعلنَ بعده عن تشكيل "لواء أحرار سورية" في آب ٢٠١٢ بقيادة علي بلّو كقائد عام للّواء، وأحمد عفش كقائد عسكري، بتعداد قوامه ٣٠٠ عنصر، يعود أصل أغلبهم إلى مدينة عندان. استقطب اللواء - بعد مدة قصيرة - مقاتلين من حريتان وحيّان وكفر حمرة، إضافة إلى انضمام عدد من الحلبيين إليه من مناطق حلب القديمة، ما رفع عدد مقاتليه - عندئذ - إلى قرابة ١٠٠٠ مقاتل. حصل هذا الاستقطاب الكبير بسبب تزايد قوة اللواء العسكرية وامتلاكه للسلاح الثقيل والدبابات بعد عمليّتي السيطرة على حواجز عندان وبيانون واغتنام دبابات ومدرّعات وأسلحة ثقيلة من قوّات النظام من هذين الحاجزين المدججين بترسانة عسكرية كبيرة.

شارك "لواء أحرار سورية" في عدد كبير من المعارك التي خيضت ضد قوات النظام في حلب وريفها، كمعارك السيطرة على حواجز الريف الشمالي، إضافة إلى العمليات التي انتهت بإحكام السيطرة على دوّار البلليرمون وصالات البلليرمون وضهرة عبد ربه، واقتحام حي جمعية الزهراء غربي مدينة حلب، والمعارك حول فرع المخابرات الجوية في جمعية الزهراء. كما لعب "لواء أحرار سورية" دوراً رئيسياً في السيطرة على حي الشيخ مقصود والقصر العدلي القديم في حلب القديمة، وهي عمليات نفّذها منفرداً، أو تمت تحت قيادته العسكرية وبذخيرته وسلاحه الثقيل. أما باقي العمليات؛ فقد شارك فيها إلى جانب فصائل أخرى معارضة في حلب، وأهمّها معركة مدرسة المُشاة ومعارك ثكنة هنانو، إضافة إلى قتاله على جبهة جبل معارة الأرتيق ومطار منّغ العسكري في الريف الشمالي

قرب أعزاز، وفي معارك حول مطار كويرس العسكري في ريف حلب الشرقي. وشاركت في هذه المعارك كتائب من مدن جرابلس ومنبج، انضمّت ل "لواء أحرار سورية"، بعد انشقاقها عن "لواء التوحيد" في ريف حلب الشرقي، بقيادة النقيب مأمون كلزي، وكان تعدادها يفوق الألفَي مُقاتل، عملوا تحت اسم اللواء لمدة ٦ أشهر. وفي حلب شارك اللواء في عمليات في المدينة القديمة، كمعارك مشفى ميسلون والتدريب المهني؛ حيث سيطر مقاتلوه على هذه المناطق قبل أن يستعيدها الجيش النظامي لاحقاً.

وشارك اللواء في الحرب التي شُنّتْ على تنظيم "داعش" في حلب وريفها مع بداية ٢٠١٤، إثر خطف قائد اللواء علي بلّو في صيف ٢٠١٣ في ظروف غامضة، وعُرف في ما بعد أنه مخطوف لدى "داعش"، ولا أخبار عن مصيره حتى اليوم. وفي المعارك التي اندلعت ضدّ "داعش" في مناطق معمل آسيا وحريتان وكفر حمرة وباشكوي في الريف الشمالي، شارك اللواء إلى جانب مساهمته في محاصرة مشفى الأطفال، المقر الرئيسي ل "داعش" في حلب، قبل انسحابه من حلب، بشكل كامل.

يتوزّع مقاتلو "لواء أحرار سورية" في حلب على جبهات ثكنة هنانو وأقيول والسيد علي والحميدية والأصيلة وقلعة حلب والصاخور وسليمان الحلبي والشيخ مقصود، إضافة إلى جبهات عزيزة والملّاح والبريج وجبل شويحنة ومعارة الأرتيق وضهرة عبد ربه في ريف حلب.

على صعيد التمويل، استطاع "لواء أحرار سورية" تأمين أشكال متنوعة من الدعم. فلدى تشكيل كتائب نواته الأولى، اعتمدت هذه على مصادر تمويل ذاتي، بدأت بتبرعات أثرياء عندان ومارع، بصفتهما معقل "لواء التوحيد"، ومناطق ريفية حلبية، يحضر فيها الزخم الثوري، بقوّة. اعتمدت الكتائب - أيضاً - على الغنائم في معاركها ضد جيش النظام، وعلى تقاضيها فدية مالية لقاء إطلاقها سراح شخصيات من النظام، كضباط جيش وقيادات ميليشيات الشبيحة، قامت بخطفها.

بعد تشكيله، انضم "لواء أحرار سورية" إلى هيكلية الجيش السوري الحر التي أسّسها العقيد المنشق رياض الأسعد في تموز ٢٠١١، فاعتمد على الدعم الذي كان يُقدّم من طريق الأسعد، والوارد من مصادر حكومية مختلفة. كما اعتمد اللواء - أيضاً - على الدعم المقدم مباشرة من أمراء سعوديين، وعلى الدعم الذي كان يتلقّاه قائد اللواء علي بلّو من تيار المستقبل اللبناني.

خُطفَ علي بلّو في الخامس من آب ٢٠١٣، في الفترة التي شهدت أفول أهمية رياض الأسعد ودوره، ما أدى إلى انقطاع الدعم المتوفر من طريقه. بعد ذلك انضم "لواء أحرار سورية" إلى المجلس العسكري الثوري لمحافظة حلب بقيادة عبد الجبار العكيدي، العقيد السابق في الجيش السوري، والمنشق أوائل عام ٢٠١٢. ترك العكيدي منصبه في ما بعد؛ ليتسلّمه العقيد المنشق "أبو أحمد عمليات"، قبل تعيين العميد زاهر الساكت، القائد الحالي للمجلس العسكري الثوري. حظي اللواء بالدعم المقدّم من الحكومات الغربية من طريق المجلس العسكري الثوري، إضافة لاستمرار اعتماده على مصادره الخاصة التي أمّنت له رواتب مقاتليه، ودعماً غذائياً لعوائلهم، أو رعاية طبية للمصابين منهم، كما أمّنت استمرار معمل الذخائر والقذائف والقنابل اليدوية، الذي يعمل بطاقة إنتاجية عالية، ويؤمن ذخيرة مستدامة لعناصره.

بعد خطف علي بلّو، قائد "لواء أحرار سورية"، والعلم بأن تنظيم "داعش" هو الخاطف، توجّهت ١٢ شخصية قيادية من اللواء إلى الرقة لمفاوضة "داعش" على إطلاق سراح بلّو، ولكنهم خُطفوا، بدورهم. وطولب "لواء أحرار سورية" بإصدار بيان، يُعلن فيه عدم اعترافه بالائتلاف الوطني وقوى المعارضة السياسية والجيش الحر والمجلس العسكري الثوري مقابل إطلاق سراح القياديين المخطوفين. صدر بيان عدم الاعتراف فعلاً، لكن "داعش" رفض تنفيذ ما وعدت به، وصفّى القياديين جميعاً.

مرّ "لواء أحرار سورية" في المدة ما بين شباط ٢٠١٤ ومنتصف العام

نفسه، بركود مالي قاسٍ، فتناقصت أعداد مقاتليه تناقصاً كبيراً. حصل هذا حين رفض اللواء الدخول في "غرفة عمليات الموم") تأسّست في بداية عام ٢٠١٤، بتنسيق بين بعض دول "مجموعة أصدقاء سورية"، وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والأردن، وبمشاركة السعودية والإمارات وتركيا. وهدفت الغرفة إلى الإمساك بزمام قيادة العمل العسكري في سورية بالتدريج، عبر دعم فصائل الجيش الحر والكتائب "المعتدلة" وتزويدها السلاح النوعي والموارد المالية اللازمة لدفع رواتب مقاتليها. مقرّها المخصص لدعم الجبهة الشمالية موجود في تركيا. أما مقرها المخصص لدعم الجبهة الجنوبية، ففي الأردن). رفض اللواء الدخول في "الموم"، بسبب اشتراط التحالف الدولي المسبق عليه الدخول في مواجهات ضد التنظيمات الإسلامية. وهو شرط رفضه أحمد عفش، القائد العسكري العام للواء. خلال هذه الأزمة، باع اللواء كمية من أسلحته الثقيلة لفصائل أخرى لتأمين الذخيرة والطعام لمقاتليه الموزّعين على جبهات حلب وريفها، كما اعتمد بشكل بسيط على مصادره الخاصة التي تضاءلت بدورها نتيجة التخبط الذي مرّ به، وبسبب وقوفه وحيداً عارياً من حلف عسكري كبير، على عكس ما فعلت معظم الألوية في حلب.

انضمّ "لواء أحرار سورية" إلى "الجبهة الإسلامية" منتصف عام ٢٠١٤، ما يوضح أن قيادة اللواء اقتنعت أخيراً بأن استمرارية وجوده مشروطة بالانخراط في تحالف كبير. وهكذا اعتمد على الدعم المقدّم من الجبهة، والآتي من مصادرها الإسلامية المعروفة، والمتمثلة بالتمويل القطري، والتسهيلات التركية، مع الاعتماد على بعض المصادر الخاصة، وإن بزخم أقل من ذي قبل.

يبلغ عدد مقاتلي "لواء أحرار سورية" الآن حوالي ١٠٠٠ مقاتل، وقد وصل في ذروته إلى ما يزيد عن خمسة آلاف مقاتل بعدما انضمت إليه كتائب من ريف حلب الشرقي، حينما كان عدد مقاتليه قرابة ١٥٠٠ مقاتل عند إعلان تشكيله.

إيديولوجياً، لم يظهر أن "لواء أحرار سورية" قد غيّر من توجّهاته المعتدلة. فهو من الفصائل القليلة في حلب التي تحمل اسماً، يتضمّن كلمة سورية. اختار الاسم مؤسس اللواء علي بلّو، ويعتمد علم الثورة حتى بعد انضمامه إلى الجبهة الإسلامية، وإن أضاف عبارة "لا إله إلا الله" على شعار اللواء. تبدو أهداف اللواء متمركزة حول القتال ضد النظام السوري، كما لم يتردد في قتال تنظيم "داعش"، وخسر أكثر من ٥٠ قتيلاً في قتاله هذا، بينهم مقاتلون وقياديون وأمنيون.

- ألوية صقور الشام

تشكّلت "ألوية صقور الشام" عام ٢٠١١. حضورها الأساسي في ريف إدلب؛ حيث ترجع أصول غالبية مقاتليها إلى مدينة إدلب وريفها. في حلب، اقتصرت على بعض الكتائب التي كانت على جبهات الريف الجنوبي بقيادة "أبو نوران"، في كل من بلدتي الحاضر وبردا، إلى أن قامت قوات من "جبهة النصرة" و"جبهة أنصار الدين" باقتحام مراكز هذه الكتائب، والاشتباك معها، فتمّ طردها خارج إلى المنطقة، لأنها اتهمت "بالتلاعب بقوت المدنيين والسلب والنهب".

يتزعّم "ألوية صقور الشام" القائد الميداني أحمد الشيخ الملقّب بـ "أبو عيسى"، وينتشر مقاتلوها - بشكل رئيسي - على جبهة جبل الأربعين قُرب مدينة أريحا في ريف إدلب. وهي كانت عنصراً رئيساً في السيطرة على جبل الزاوية وخان السبل، كما انضوت تحت راية الجبهة الإسلامية منذ تأسيسها وحتى الآن. تتبع صقور الشام توجّهاً إسلامياً معتدلاً، وهي مُقرّبة من جماعة الإخوان المسلمين، وتحظى بدعم قطري جيد.

ب. جبهة النصرة

تم الإعلان عن تشكيل "جبهة النصرة" في أوائل عام ٢٠١٢ بقيادة أبو محمد الجولاني، الملقّب بـ "الفاتح". وأعلنت عن نفسها لاحقاً كذراع لتنظيم "القاعدة" في سورية. أدرجتها الإدارة الأميركية على لائحة الإرهاب

في كانون الأول ٢٠١٢. وفي ٣٠ أيار ٢٠١٣ قرر مجلس الأمن الدولي إدراج "جبهة النصرة لأهل الشام" في قائمة العقوبات للكيانات والأفراد التابعين لتنظيم "القاعدة".

كان الظهور الأول لمقاتلي النصرة في حلب في حي الميسّر في تموز ٢٠١٢. وكان هذا الحي على خط الجبهة، في تلك الفترة. وسُرعان ما أصبح مقاتلو النصرة من أشرس مقاتلي حلب؛ إذ لعبوا دوراً رئيساً على جبهات القتال في أحياء سيف الدولة والإذاعة وكرم الطراب وكرم الجبل، وكانوا من أوائل المقاتلين الذين اقتحموا ثكنة هنانو العسكرية في السابع من أيلول ٢٠١٢، غنموا كمية كبرى من الأسلحة والذخائر والسيارات العسكرية قبل أن يستعيد النظام الثكنة مدعوماً بالطيران الحربي. تمتد ثكنة هنانو على سفح تلّ، يطلّ على الكثير من أحياء حلب القديمة والشعبية، كباب الحديد وأغيور والعرقوب وسليمان الحلبي وقارلق وكرم الجبل وميسلون.

منذ اليوم الأول، ضمّت النصرة في صفوفها عدداً كبيراً من المقاتلين الأجانب المدرّبين، والذين خاضوا تجاربهم الجهادية في العديد من البلدان قبل القدوم إلى سورية.

تصاعُد الخط البياني لعمليات جبهة النصرة، وشراسة الحرب التي شنّتها ضد قوات النظام، دفعا كثرة من الشبان الحلبيين إلى ترك ألويتهم في الجيش الحر أو الكتائب الإسلامية الأخرى، والانضمام إلى الجبهة. فهي كانت توفّر لهم تعويضاً مادياً جيداً، بالمقارنة مع ما كان يقدمه غيرها من الفصائل التي لم يكن لدى بعضها موارد مادية؛ لتقدّمها لمقاتليها الذين كانوا يحتاجون إلى ما يعيلهم، ويعيل أسرهم. سببٌ آخر دفع شباناً حلبيين كثر للانضمام إلى "جبهة النصرة": عدم انقطاع الدعم العسكري عنها. فلدى النصرة مخزون كبير من الأسلحة والذخيرة، يكفي لقتال النظام شهوراً عدة من دون انتظار الدعم والتمويل. وكثيرة هي الفصائل التي انتهى وجودها، بسبب انقطاع الدعم عنها. لكن الانضمام إلى النصرة لم

يكن سهلاً، ولا مباشراً، بل كانت له شروطه. فعلى الراغب بالانضمام أن يجتاز الدورات الشرعية التي يقيمها شرعيو النصرة وشيوخها، وهي عبارة عن دروس دينية في "السلفية الجهادية"، الإيديولوجيا التي تبنّتها جبهة النصرة منذ اليوم الأول.

أثارت عمليات الجبهة في حلب ضجةً كبيرة. وكان أولها عملية تفجير مشفى الحياة في العاشر من أيلول ٢٠١٢، بعد تحوّل المشفى حصناً لقوات النظام، بالقرب من الملعب البلدي. تلته، في ٣ تشرين الأول، ثلاثة تفجيرات، استهدفت مبنى الضباط والفندق السياحي والقصر البلدي في ساحة سعد الله الجابري في مركز المدينة؛ حيث يتفاقم الضغط الأمني للنظام، ويتكاثف. ثم سيطرت النصرة على مركز البحوث العلمية في أحد أحياء حلب الجديدة. أثارت هذه العمليات إعجاب الشبان السوريين الذين اعتبروا قتال النظام قضيّتهم الأولى.

تشاركت جبهة النصرة مع عدة فصائل إسلامية في حلب في تشكيل "الهيئة الشرعية" التي اهتمّت بالأمور القضائية وفض النزاعات بين المدنيين، أو بين العسكريين، وعملت على تحكيم الشرع الإسلامي كقانون جامع، واتخذت من مشفى العيون في حي قاضي عسكر مقرّاً لها.

وعند الإعلان عن تشكيل تنظيم الدولة الإسلامية، انضم عدد كبير من مقاتلي النصرة إليه، خاصة الأجانب منهم، فلم يتبقَّ للنُصرة في حلب غيرَ عدد قليل من المقاتلين، شاركوا في المعارك الأخيرة التي دارت في المنطقة الصناعية وحندرات؛ حيث يحاول النظام إحكام الحصار على الأحياء الخاضعة لسيطرة المعارضة. لكنّ مقاتلي النصرة سُرعان ما تركوا جبهات حلب متّجهين إلى إدلب، للمشاركة في عمليات السيطرة على المناطق الحدودية وجبل الزاوية بعد معارك دارت هناك ضد "جبهة ثوار سورية"، بقيادة جمال معروف.

ويتوزّع مقاتلو النصرة في حلب على جبهات نبّل والزهراء في الريف

الشمالي، إضافة إلى حضورهم على جبهات القتال في أحياء سليمان الحلبي، جمعية الزهراء، فرع المخابرات الجوية، كرم الطرّاب، بستان القصر - جبهة كراج الحجز. وينتشر مقاتلوها - أيضاً - على جبهة مناطق الملاح وحندرات الهامّة في محيط حلب. وهذه تقدّم إليها جيش النظام ضمن محاولاته المستمرة لحصار القسم الخاضع لسيطرة المعارضة من المدينة عن طريق شلّ الطرق الرئيسية الواصلة بين حلب وريفها. وقد نجح في قطع العديد من الطرق، فلو يبق للمعارضة سوى طريق وحيد هو طريق الكاستيلو الزراعي، الواصل بين منطقة الجندول، فالأشرفية إلى ريف حلب الشمالي.

قاتلت النصرة ضد "حركة حزم" التابعة لهيئة أركان الجيش السوري الحر في ريف حلب الغربي، بعدما اندلعت المعارك في ريف إدلب، بسبب مشروع النصرة التوسّعي، وانسحاب مقاتلي حزم من ريف إدلب، إلى ريف حلب الغربي.

تمتلك جبهة النصرة مقرّات عدّة وحواجز تفتيش عسكرية في مناطق من حلب وريفها، كأحياء باب النيرب، مثل مقر "أبو عبيدة رايات". وهو مركز للتحقيق والاحتجاز. ولها بضع نقاط في حلب القديمة، وحواجز تفتيش ومقرّات في أحياء الصاخور والحيدرية شرقي حلب. وفي الريف، يتمركز مقاتلو النصرة - بشكل أساسي - في مناطق تل رفعت؛ حيث لها حاجز تفتيش ضخم. وفي حريتان، تشرف النصرة على دار للقضاء.

يُقدّر عدد مقاتلي الجبهة في حلب وريفها بحوالى ٦٠٠ مقاتل، بعد انتقال عدد كبير من عناصرها للعمل في ريف إدلب تزامناً مع الحملة التي شنّتها على "جبهة ثوار سورية"، ثم على "حركة حزم". وفي تمويلها، تعتمد النصرة على مصادر عدة، أهمها ما كان يُرسَل من تنظيم القاعدة في أفغانستان والعراق، في الفترة الأولى. لكنّها عملت - أيضاً - على إيجاد سبل للتمويل الذاتي، فسيطرت على عدد كبير من المراكز الحيوية

مثل صوامع القمح، بالقرب من الباب، والتي كانت تحتوي على مخزون ضخم من القمح يكفي لإطعام حلب لسنتين. وفي منطقة دويرينة في الريف الجنوبي، سيطرت على صوامع الحبوب ومحالج القطن ومعمل الجرارات؛ حيث كانت النصرة تنفرد بتلك الجبهة قرب معامل الدفاع في السفيرة. وسيطرت الجبهة - أيضاً - على آبار النفط في دير الزور، قبل أن تخسرها لصالح داعش. لكنّ جزءاً كبيراً من تمويل الجبهة كان يأتي من العمليات الخطرة التي تقوم بها، فتغنم جراءها مخزونات استراتيجية من للنظام، كالأسلحة والذخائر والأموال. في الوقت نفسه، تحظى النصرة، بدعم مادي كبير من أثرياء سلفيين خليجيين، يقيمون في الخليج، أو خارجه، ويدعمون التيار السلفي الجهادي.

ت. تنظيم الدولة الإسلامية "داعش"

بعد الإعلان عن إلغاء اسمَي "جبهة النصرة" و"الدولة الإسلامية في العراق"، ودمجهما تحت مسمّى واحد هو "الدولة الإسلامية في العراق والشام" إثر كلمة صوتية، ألقاها أبو بكر البغدادي، بايع عدد كبير من مقاتلي النصرة البغدادي، وانضووا تحت راية "الدولة الإسلامية"، فأدّى هذا التحوّل إلى ظهور "داعش" في حلب بين ليلة وضحاها.

شاركت "داعش" في عدد من المعارك ضد قوات النظام السوري، أهمها في مطار منّغ العسكري في الريف الشمالي. بقي مطار منّغ محاصراً حوالي السنة، من دون أن يتمكّن الثوار من اقتحامه. لكنّ مقاتلي داعش استطاعوا إحكام السيطرة عليه بعد عملية انتحارية، نفذها شاب سعودي. كما كانت داعش عنصرَ حسمٍ أساسي في معركة خان العسل في الريف الغربي؛ حيث أُسر ٣٠٠ جندي من جنود الجيش النظامي. وخاض "داعش" قتالاً شرساً في محيط سجن حلب المركزي، لكن الدفاع المستميت لقوات النظام حال دون السيطرة عليه.

بعد ظهوره، بمدة قصيرة، بدأ "داعش" بالتدخّل في الأمور المدنية،

فأقام محكمة شرعية غير تلك التي كانت أغلب فصائل حلب قد اتفقت على إنشائها، وأرسل عناصره لتسيير شؤون معبر كراج الحجز للمشاة. وهو المعبر الفاصل بين مناطق حلب الواقعة تحت سيطرة النظام، وتلك المناطق الخارجة عن سيطرته. حاول داعش تسيير الأمور الخدمية للمدنيين، بإنشاء ما أسماه "الإدارة الإسلامية للخدمات"، وفتح المدارس لتعليم الأطفال وفق مبادئ الشريعة الإسلامية، فألغى مادتي القومية والتاريخ، واستبدل منهاج التربية الإسلامية القديم، بكتب دينية، قام بطباعتها.

في بدايات تلك الفترة، انضم "مجلس شورى المجاهدين" إلى "داعش" بقيادة أميره عمرو العبسي، ولقبه "أبو الأثير". وهو سوري من ريف إدلب، وعيّنه داعش والياً على حلب.

بعد ذلك، أطلق "داعش" حملته ضد "المُفسدين" في الجيش الحر، فشنّ حملة عسكرية ضخمة على "جبهة غرباء الشام" التي كانت تحت قيادة حسن جزرة، وتتمركز في مناطق الصاخور وهنانو والحيدرية والهلك، فتمكن من السيطرة على تلك المناطق، وأعدم حسن جزرة. ثم شنّ حملة عسكرية أخرى على "كتائب شهداء بدر" التي يقودها خالد الحياني، في مناطق الأشرفية والخالدية والبلليرمون، لكن داعش فشل في حملته، بسبب تمترس الحياني في منطقته المغلقة جغرافياً.

اعتقل داعش عدداً كبير من الثوار، فأعلن عن قتله بعضهم، ومنهم مَن لا أخبار عنه حتى الآن. كما أنه خطف وقتل العديد من الإعلاميين والصحافيين المحليين والأجانب في إطار حربه على الإعلام.

بدأت المعركة ضد "داعش" في حلب وريفها بقيادة "جيش المجاهدين"، وبمشاركة عدد من الفصائل، فاستطاعوا طرد تنظيم الدولة الإسلامية من أحياء مدينة حلب بعد معركة استمرت بضعة أيام، ارتكب خلالها تنظيم الدولة مجزرة بحق ٥٠ من المعتقلين الذين كان يحتفظ بهم في سجنه التابع لمقره في مشفى الأطفال في حي قاضي عسكر بحلب. العديد

من ضحايا تلك المجزرة كانوا من الإعلاميين المختطفين، والباقي موزّعون بين مقاتلين في الجيش الحر ومدنيين. استمرت المعارك ضد داعش في الريف الشمالي بعد تحصنه في مناطق أعزاز وحريتان وعنجارة. لكنّه انسحب منها إلى مدن الريف الشرقي، بعدما حُسمت المعارك التي دارت فيها لمصلحته، ضد مقاتلين محلّيين من أبناء هذه المناطق، مثل "لواء أبو بكر الصديق" في الباب، و"لواء جند الحرمين"، و"لواء ثوار منبج" في منبج. هكذا سيطر داعش - بالكامل - على مدن الباب ومنبج وجرابلس والراعي ودير حافر ومسكنة. ثمّ تمدّد باتجاه أعزاز مرة أخرى، وتمكّن من السيطرة على قرى أخترين ودابق واحتيملات وتركمان بارح. لكنه توقف عند هذا الحد بعد بدء الحملة العسكرية التي شنّها التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة، ما اضطرّه إلى إبطاء وتيرة المعارك. خاض تنظيم "داعش" بعد ذلك معركة ضد المقاتلين الأكراد في كوباني شمال شرق حلب، وتمكّن من السيطرة على الغالبية العُظمى من مساحة المدينة قبل أن ينسحب مقاتلوه من مركزها باتجاه الريف المحيط.

لا يُعرف عدد مقاتلي تنظيم "الدولة الإسلامية" في حلب. وهم يتمركزون في ريفها الشرقي. لكنّ قدرة التنظيم على السيطرة على مساحات واسعة متصلة جغرافياً جعل من الصعب تقدير أعداد مقاتليه الذين يتنقلون دائماً داخل مناطق سيطرته من العراق إلى سورية. بعض التقديرات تُشير إلى أن عددهم في ريف حلب الشرقي ومحيط كوباني يصل إلى حوالي ألف مقاتل.

هناك تشابه واضح بين جبهة النصرة وتنظيم الدولة الإسلامية في طرق التمويل. يسيطر تنظيم "داعش" - أيضاً - على مراكز حيوية، يستطيع أن تؤمن من خلالها تمويلاً ذاتياً دائماً. فهو سيطر على عشرات الآبار النفطية في العراق وسوريا. وتشير التقارير إلى أنّ داعش يبيع النفط لقوات النظام. كما يحاول التنظيم السيطرة على حقول الغاز شرق حمص. وغنم داعش - أيضاً - مخزونات استراتيجية عسكرية هائلة من قوات الجيشين العراقي والسوري بعد السيطرة على قطعات عسكرية.

يشار إلى أن عدداً كبيراً من الأثرياء الداعمين للنصرة، قد حوّلوا دعمهم باتجاه داعش، معتبرين التنظيم ممثلاً لطموحهم في بناء الدولة الإسلامية.

ث. جبهة أنصار الدين

تم الإعلان عن تأسيس جبهة أنصار الدين بتاريخ ٢٥ تموز ٢٠١٤ في حلب وريفها، وقد ضمّت ثلاثة فصائل رئيسية:

- جيش المهاجرين والأنصار

كانت "كتيبة المهاجرين" النواة الأولى لجيش المهاجرين والأنصار. وهي شُكّلت في شباط ٢٠١٣ بقيادة أبو عمر الشيشاني، وضمت عدداً من المقاتلين الأجانب القادمين من القوقاز، وغالبيتهم من الشيشان. توزّعت الكتيبة على عدد من الجبهات في ريف حلب، أهمّها جبهة الجندول؛ حيث استطاعت الكتيبة من لعب دور رئيسي في السيطرة على منطقة دوّار الجندول وما حوله في نيسان ٢٠١٣. وكان لها النصيب الأكبر من الغنائم التي تركها جيش النظام خلفه بعد انسحابه من المنطقة. وشكّلت هذه المعركة انعطافة قويّة للكتيبة، فاستقطبت بعدها عدداً كبيراً من المقاتلين.

تشكّل "جيش المهاجرين والأنصار" بعد اتحاد كتيبة المهاجرين مع "جيش محمد" بقيادة أبو عبيد المصري، و"كتيبة أسود السّنّة" التي شكّلها أبو الأثير العبسي، والي حمص الحالي في تنظيم الدولة الإسلامية. أُعلنَ عن تشكيل جيش المُجاهدين والأنصار في أواخر ٢٠١٣، وغالبية مقاتليه من القوقاز: الشيشان وداغستان وإنغوشيا وأوسيتيا الشمالية، إضافة إلى مقاتلين من أوزبكستان. وانضم إليهم سوريّون، فيما بعد، لكن الغالبية بقيت شيشانيّة. واللغة الروسية هي المستخدمة بين مقاتلي هذا الفصيل.

يُعتبر هذا التنظيم السلفي الجهادي الأكثر غموضاً في سورية، كما أنه غير نشط إعلامياً. تقول صفحتهم الرسمية على تويتر "إن جيش المهاجرين والأنصار مكوّن من اتحاد مجموعة من الكتائب الإسلامية المجاهدة في

سورية تحت قيادة موحّدة للمشاركة في نصرة الشعب السوري، وإقامة دولة الخلافة".

قاتل "جيش المهاجرين والأنصار" على جبهات عدة في ريف حلب وريف اللاذقية. وتمركز مقاتلوه في مناطق حريتان وكفر حمرة ومعارة الأرتيق ومعمل آسيا في ريف حلب الشمالي. وقاتلوا - أيضاً - على جبهات نبّل والزهراء ومطار منّغ العسكري وخان طومان وحندرات والشقيّف في الريف، وجبهة جمعية الزهراء وفرع المخابرات الجوية غربي مدينة حلب.

بعد ظهور تنظيم "الدولة الإسلامية"، والخلافات التي عصفت بقوى المعارضة العسكرية خلال العام ٢٠١٤، سعت قيادة جيش المهاجرين والأنصار إلى الحفاظ عليه في منأى من الاصطفاف مع طرف من الأطراف المتحاربة. لم يدخل التنظيم في أيّ معركة مع أي فصيل في تلك الفترة. لكنّ إعلان أبو عمر الشيشاني، القائد العسكري السابق لـ "جيش المهاجرين والأنصار" مبايعة تنظيم داعش مع ٨٠٠ عنصر يشكّلون نصف عدد مقاتلي الجيش، كسر هذا الموقف. في ذلك الوقت، أعلنت قيادة "جيش المجاهدين والأنصار" الجديدة، وعلى رأسها القائد العسكري صلاح الدين الشيشاني في بيان مصوّر مطلع ٢٠١٤، التزامها الحياد، واعتبار الاقتتال الحاصل بين داعش والفصائل الأخرى فتنة، ينبغي اعتزالها.

انضمّ الجيش إلى "جبهة أنصار الدين" عند تشكيل الجبهة، فأُدرج اسمه في لوائح الإرهاب الأميركيّة في أيلول ٢٠١٤.

برز "جيش المهاجرين والأنصار" بعد معارك خان طومان في ريف حلب الجنوبي في آذار ٢٠١٣، قبل أن يلعب دوراً حاسماً في السيطرة على مطار منّغ العسكري شمال حلب. وبالرغم من الاعتقاد السائد بأنّه أقرب إلى "جبهة النصرة"، فإن عدم قتاله إلى جانب النصرة في معاركها ضد "داعش" يؤكد أن "الجيش" يتّبع عقيدة سياسية مختلفة، تقوم - بالأصل - على عدم التدخل في اختيار حاكم البلاد التي يقاتل فيها القوقازيون

الذين يغادرون أرضهم، وهم يدينون بالبيعة لعلي أبو محمد الداغستاني، أمير إمارة القوقاز الإسلامية.

استقبل "الجيش" عدداً من المقاتلين المحليين بين صفوفه من مناطق حريتان وقبر الانكليزي ومعمل آسيا وكفر حمرة في ريف حلب الشمالي. وبدأ بالمساهمة في الأنشطة الدعوية والمحاكم ضمن "جبهة أنصار الدين" بعد أشهر طويلة من الانكفاء وعدم الاحتكاك بالسكان المحليين.

يبلغ عدد مقاتلي "جيش المهاجرين والأنصار" قرابة ٥٠٠ مقاتل، يشكلون الغالبية العظمى من مقاتلي جبهة أنصار الدين في حلب. ويعتمد في تمويله - غالباً - على التمويل الذاتي والغنائم التي تتركها القوات النظامية السورية خلفها. ويبرع جيش المجاهدين والأنصار في اختيار المناطق التي يتمركز على جبهاتها. فهي تحوي ثكنات عسكرية، تضم أسلحة وذخائر. ويحظى "الجيش" بدعم مادي من طريق إمارة القوقاز الإسلامية.

- حركة شام الإسلام

أسّسها في العام ٢٠١٣ المعتقل المغربي السابق في سجن غوانتانامو إبراهيم بنشقرون، أبو أحمد المهاجر، قبل أن يلقى حتفه في نيسان ٢٠١٤ في إحدى معارك الساحل السوري. تُعتبر "حركة شام الإسلام" تنظيماً مغربياً. فهي أكبر التشكيلات المُستقطبة للمقاتلين ذوي الأصول المغاربيّة. وتشير التقارير إلى أنّ هذا التنظيم يضم ٨٠٠ مقاتل من المغاربيين. وانضمّ إليهم - في ما بعد - عدد من المقاتلين المحليين، في كل من حلب واللاذقية؛ حيث ينتشر التنظيم على جبهات ريف اللاذقية، بشكل أساسي. وقد كان عنصراً أساسياً في حسم معركة كسب، والتي سُمّيت "معركة الأنفال".

القائد الحالي للتنظيم هو محمد مزوز، المعروف بأبو العز المهاجر. بويعَ مزوز أميراً للتنظيم بعد أيام من مقتل بنشقرون. ومزوز - بدوره - من معتقلي غوانتانامو السابقين، وأحد مؤسسي "حركة شام الإسلام". اعتقله الجيش الأمريكي على الحدود الأفغانية الباكستانية بعد الاجتياح

الأميركي لأفغانستان، ومكث في سجن غوانتانامو قبل أن يتم تسليمه إلى السلطات المغربية.

يتوزّع معظم مقاتلي الحركة على جبهات ريف اللاذقية؛ حيث يقاتلون إلى جانب جبهة النصرة، الطرف الأقرب إلى عقيدتهم ومشروعهم.

أضيف التنظيم إلى لوائح الإرهاب الأميركية مع جيش المهاجرين والأنصار في أيلول ٢٠١٤.

تتبنّى "شام الإسلام" الفكر السلفي الجهادي. وتسعى إلى إقامة دولة الخلافة الإسلامية. يبلغ عدد مقاتليها حوالى ١٥٠ مقاتل، بعدما قُتل الكثير منهم في معركة كسب مع الأمير القديم للحركة. ولمقاتليها حضور في منطقة جبل الأكراد في ريف اللاذقية.

- حركة "فجر الشام الإسلامية"

تم الإعلان عن تأسيس حركة فجر الشام الإسلامية في حزيران ٢٠١٢ في بلدة دارة عزّة في ريف حلب الغربي تحت مُسمّى "حركة فجر الإسلام" بقيادة الطبيب محمد الحسن، ولقبه أبو عبد الله الشامي. وهو سجين سابق في صيدنايا، وأحد أبناء حي جبل بدرو شرق حلب. سُمّي الحسن أميراً للحركة، كما عُيّن شقيقه أبو الوليد أميراً عسكرياً.

نشطت الحركة في ريف حلب الغربي، ومنه انتقلت إلى القسم الخاضع لسيطرة المعارضة من مدينة حلب، وأسست مقراً رئيسياً في حي السكّري، جنوب غربي حلب. انضمّت الحركة، بعدما أصبح اسمها "حركة الفجر الإسلامية"، إلى تجمع "حركة أحرار الشام الإسلامية" بداية عام ٢٠١٣. وضم التجمّع "كتائب أحرار الشام،جماعة الطليعة الإسلامية، كتائب الإيمان المقاتلة". انسحبت "الفجر" من التجمع في منتصف ٢٠١٣ بعد معركة الجندول إثر خلاف نشب بينها وبين أحرار الشام حول غنائم تلك المعركة. عمل الفجر بعد ذلك منفرداً تحت اسم حركة "فجر الشام الإسلامية"، ما بين منتصف ٢٠١٣ ومنتصف ٢٠١٤.

بعد انضمام الحركة إلى "جبهة أنصار الدين"، شاركت في عدد من المعارك الهامّة في ريف حلب ومحيطها ضد قوات النظام السوري، كالمعارك التي أدّت إلى السيطرة على مناطق الجندول ومخيّم حندرات ومشفى الكندي وضهرة عبد ربه. كما شاركت في معظم المعارك التي جرت في الريف الجنوبي، ومعارك نبّل والزهراء في الريف الشمالي. في حلب شاركت في معركة السيطرة على أحياء الراموسة والشيخ سعيد، وكان لمقاتليها نشاط محدود في مناطق حماه وإدلب، لكنه يكاد ينعدم حالياً.

ينتمي مقاتلو الحركة - تُقدّر أعدادهم بـ ٥٠٠ مقاتل - إلى مناطق ريف حلب الغربي، وخاصة منطقة دارة عزّة. ثمّ انضم إليهم مقاتلون من حريتان، إثر تمدّد نشاط الحركة باتجاه الريف الشمالي بعد انضمامها إلى "جبهة أنصار الدين". كما تضم الحركة بعض المقاتلين الأجانب، ويقدّر عددهم بـ٤٠ مقاتل بعد أن انتقل كثر منهم إلى جبهة النصرة.

ينتشر مقاتلو الحركة في بعض مناطق حلب القديمة في محيط قلعة حلب ومناطق السكّري والمرجة. تشارك الفجر في جبهات القتال الحالية ضد قوّات النظام في كل من عزيزة والشيخ سعيد وحندرات والملاح على أطراف مدينة حلب، كما تتواجد على جبهة جبل عزّان في ريف حلب الجنوبي، وجبهات نبّل والزهراء في الريف الشمالي. وليس للحركة أي نشاطات مدنيّة.

تعتبر "حركة فجر الشام الإسلامية" حركة عسكرية ذات توجّه سلفي جهادي واضح. فأمير الحركة أبو عبد الله، أجاب عن سؤال، طرحه عليه أحد الصحافيين من صحيفة "حبر" الحلبية حول مشروع الحركة السياسي قائلاً: مشروعنا واضح الأهداف، ونشترك فيه مع كل مسلم صادق، يجاهد لإعلاء كلمة الله، وتحكيم شرع الله في أرضه. وكانت الحركة قد اتّخذت موقفاً حيادياً علنياً من المعركة بين تنظيم الدولة الإسلامية وباقي الفصائل في حلب؛ حيث صرّح أبو عبد الله في لقاء له مع موقع "زمان الوصل"

أنّ موقف الحركة تجاه الاقتتال الحاصل كان واضحاً منذ البداية، وهو الحياد الإيجابي، قائلاً عن الموقف أنه "مكّننا والحمد لله من حقن دماء المسلمين في أكثر من واقعة". الحركة مقربة فكرياً من "جبهة النصرة" و"جيش المهاجرين والأنصار"، ويفضّل مقاتلو حركة الفجر دوماً القتال إلى جانب النصرة في المعارك ضد قوّات النظام. تتّخذ الحركة موقفاً واضحاً - أيضاً - ضد مصطلحات الديموقراطية والدولة المدنية.

على صعيد التمويل، اعتمدت الحركة على الكثير من المصادر الذاتية والعلاقات مع شخصيات سلفية خليجية. كما اعتمدت - بشكل كبير - على الغنائم التي حظيت بها بعد السيطرة على مواقع عسكرية، أو صناعية. وقد استطاعت غنائم معركة الجندول وحدها أن تضمن تمويل الحركة قرابة السنة.

ج. جيش المجاهدين

تم تشكيل جيش المجاهدين مطلع عام ٢٠١٤ بقيادة توفيق شهاب الدين، قائد "حركة نور الدين الزنكي"، والذي عُين قائداً عاماً للتشكيل، كما عُيّن المقدّم محمد بكور جمعة أبو بكر قائداً عسكرياً. يُعدّ جيش المجاهدين الفصيل الأقوى في حلب، والأكثر عدداً وتوزّعاً على جبهات القتال. وكان الهدف الأساسي من إنشائه جمع سبعة فصائل كبيرة تحت مسمّى واحد للدخول في معركة ضد تنظيم الدولة الإسلامية. الفصائل المجتمعة هي: حركة نور الدين الزنكي، لواء الأنصار، تجمّع فاسْتقِم كما أُمِرت، لواء أمجاد الإسلام، حركة النور الإسلامية، لواء جند الحرمين، لواء الحرية الإسلامي (لم يستمر كثيراً، فانسحب من التشكيل الجديد). لاحقاً انضم إلى هذه الفصائل جبهة الأصالة والتنمية، ولواء أنصار الخلافة (لم يبقَ في هذا التشكيل مدّة طويلة؛ إذ انسحب بسبب خلافات فكرية).

سُرعان ما اندلعت المعركة ضد داعش الذي بدأت محاولاته السيطرة على كامل الأحياء والقُرى الخاضعة لسيطرة المعارضة في حلب وريفها.

لكن "جيش المجاهدين" استطاع حسم العمليات لصالحه في الريف الغربي لحلب، وجزء من ريف إدلب. وتمكّن - أيضاً - من طرد التنظيم من قرية الدانا، آخر معاقله في ريف إدلب. وانسحبت داعش باتجاه قرى الريف الشمالي والشرقي في حلب. وبعد معركة، استمرت خمسة عشرة يوماً لم يستطع التنظيم الإسلامي المتشدد أن يقاوم كثيراً، بسبب قلة عدد مقاتليه في المدينة، إضافة إلى قوة تشكيل "جيش المجاهدين" الذي كان إعلانه مفاجئاً لداعش الذي انسحب مقاتلوه بعد أن ارتكبوا مجزرة بحق خمسين معتقلاً، كانوا في سجون التنظيم. وفي المقابل، تم اعتقال عدد كبير من مقاتلي داعش في أحياء حلب.

كانت الفصائل التي شُكِّل منها "جيش المجاهدين" تقاتل على جبهات كثيرة في حلب وريفها ضد قوات النظام. وهي مستمرة في ذلك حتى اليوم.

عدد لا بأس به من فصائل جيش المجاهدين شاركت في المعارك التي اندلعت في حلب وريفها ضد قوات النظام في ٢٠١٢، كلواء حلب الشهباء بقيادة ملهم عكيدي، وهو فصيل، يضم بين صفوفه عدداً كبيراً من أبناء مدينة حلب. ولواء حلب المدينة الذي تم تشكيله على يد عبد الرؤوف كريّم في ٢٠١٢، والذي اختفى في ظروف غامضة، ليتحوّل بعدها إلى فصيل إسلامي، لأسباب تتعلق بالتمويل وسيطرة قيادات إسلامية عليه. ولواء الأنصار الذي أُسس كوريث لبندقية الثوار الحلبيّين، ويعتبر لواء الأنصار نواة أساسية لجيش المجاهدين، ويشرف على المكتب السياسي للجيش والتمويل والتفاوض والبيانات الإعلامية.

تقلّصت أعداد "جيش المجاهدين" بعد الكثير من التخبّطات الداخلية، ما أدى إلى انسحاب حركة نور الدين الزنكي، ليصبح أبو بكر في منصب القائد العام للجيش. ثم انسحب تجمع ألوية "فاستقم كما أُمرت" بسبب خلافات، تتعلق بالمعارك الدائرة في محيط حلب مع قوات النظام. هذا إضافة إلى التطرّف الذي يُظهره بعض قادة التجمّع، ما يؤثر - بشكل كبير - على الدعم الأمريكي المُقدّم للجيش. سبق هذه الانسحابات

انضمام كتائب "الصفوة الإسلامية" المنفصلة عن لواء التوحيد إلى جيش المجاهدين. تتمركز الصفوة على جبهات القتال في أحياء حلب القديمة، وتحمل توجهاً إسلامياً صوفياً. لكن "جيش المجاهدين" بقي الفصيل الأكبر في حلب وريفها، بقوام من مقاتلين يفوق عددهم ٤ آلاف مقاتل، ينضوون تحت خمسة تشكيلات هي: لواء الأنصار، كتائب الصفوة الإسلامية، لواء أمجاد الإسلام، حركة النور الإسلامية، لواء جند الحرمين.

يعتمد "جيش المجاهدين" في تمويله على مصادر مختلفة، ويُعدّ من أبرز الفصائل المعتدلة في سورية. وقد تم الاعتراف به ودعمه من قبل غرفة عمليات "الموم". وقد تلقّى جيش المجاهدين دعماً من تلك الغرفة من الذخائر والرواتب والأسلحة. وكان هذا الدعم يصل إلى "لواء الأنصار" و"لواء أمجاد الإسلام"، المسؤولين عن توزيعه على الفصائل المنضوية تحت "جيش المجاهدين" الذي يحظى - أيضاً - بدعم قطري محدود من طريق هيئة حماية المدنيين. وتلعب تركيا دور الوسيط في عملية تسليم الدعم.

إيديولوجياً، لا توجد مرجعية فكرية واضحة للجيش، إلا أنّه يمثّل تياراً شبابياً إسلامياً صاعداً وقريباً من نمط التديّن السائد في حلب وريفها، بالتوازي مع دعم جماعة الإخوان المسلمين له.

ح. كتائب أبو عمارة

تأسّست "سرية أبو عمارة" بشكل سرّي في منتصف عام ٢٠١١، أي بعد بضعة أشهر على اندلاع الانتفاضة السورية. كان ذلك في بلدة عندان في ريف حلب الشمالي، وهي أول منطقة، حمل شبابها السلاح ضد النظام في حلب وريفها. أسّس السرية ياسر العبد، الذي اعتُقل، في ما بعد، وأمضى قرابة سنة ونصف السنة في سجون النظام، قبل أن يخرج بصفقة تبادل. وشاركه في التأسيس كلٌ من مهنّا جفّالة أبو بكري قائد عمليات كتائب أبو عمارة منذ التأسيس، وهو من أبناء مدينة حلب، وطالب في

كلية الاقتصاد في جامعتها. أما مُضر نجّار الذي شارك في التأسيس؛ فقد انتقل - في ما بعد - للعمل مع لواء التوحيد.

نشطَت "سرية أبو عمارة" ما بين تمّوز ٢٠١١ و تمّوز ٢٠١٢ سرّياً في مدينة حلب وريفها، ونفّذت عمليات اغتيال وتفجير عبوات ناسفة، استهدفت شخصيات أمنية وعسكرية وقيادات ميليشيا اللجان الشعبية التابعة للنظام، ومن بينهم محمد رمضان، أحد المموّلين الكبار للميليشيات التي عملت على قمع المظاهرات داخل مدينة حلب وجامعتها. ومحمد هو شقيق أحمد رمضان، عضو المجلس الوطني السوري المعارض وأحد سياسيي الإخوان المسلمين السوريين. واغتالت السرية الملاكم الحلبي غياث طيفور الذي ترأّس إحدى مجموعات الشبيحة داخل المدينة. وشاركت - أيضاً - في عدد ضئيل من معارك السيطرة على مناطق ريف حلب الشمالي، كمعركة الأمن العسكري في عندان، لكنّ معظم نشاطها تركّز داخل المدينة.

مع بدء معركة حلب، كانت "سريّة أبو عمارة" قد تحوّلت إلى "كتائب أبو عمارة"، وشاركت في السيطرة على الأحياء الشرقية لمدينة حلب على جبهات صلاح الدين وسيف الدولة والإذاعة والعامرية. لاحقاً تمركزت في هذه المناطق، وفي أحياء المشهد والأنصاري والشعّار؛ حيث تتواجد مقرّات الكتائب العسكرية. وعلى الرغم من أنّ كتائب أبو عمارة انتقلت للعمل في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، بشكل علني، إلا أنّ نشاطها في مناطق النظام بقي مستمراً باسم سريّة أبو عمارة للمهام الخاصة، مواصلة - بذلك - تنفيذ عمليات ضد قيادات في جيش النظام ومخابراته ولجانه الشعبية.

يبلغ متوسط عدد مقاتلي كتائب أبو عمارة ٢٥٠ مُقاتلاً، ينقصون حيناً، ويزدادون حيناً، بعدما كان تعداد السريّة النوّاة حوالي ١٠ أشخاص فقط. وشارك مقاتلوها في عدد من المعارك الهامة في حلب وريفها؛ حيث كانت فاعلاً رئيسياً في الدفاع عن حي صلاح الدين ضدّ هجمات النظام

أواخر عام ٢٠١٢. كما شاركت في معظم عمليّات الريف الجنوبي، لكنْ؛ على فترات متقطّعة: معارك خناصر، السفيرة، جبل عزّان، معامل الدفاع. وشاركت - أيضاً - في المعارك حول مطار النيرب العسكري.

ينتمي مقاتلو "كتائب أبو عمارة" إلى أحياء حلب ومناطقها الريفية. وكانت - على الدوام - ذات ميول استقلالية واضحة، لكنها خاضت تجربة الانضمام إلى تجمّعات عسكرية مرّات عدّة، كانت أطولها المدّة التي قضتها الكتائب مع تجمع "ألوية فاستقم كما أُمرت". وذلك منذ منتصف عام ٢٠١٣، عندما تم الإعلان عن إعادة هيكلة التجمّع الذي شُكّل أواخر عام ٢٠١٢. وكان قد سبق هذه التجربة تجربتان قصيرتان مع "لواء حلب المدينة" و"لواء حلب الشهباء" عند الإعلان عن تشكيل اللواءين. بقيت "كتائب أبو عمارة" ستة أشهر مع التجمّع قبل أن تنسحب منه مع بداية ٢٠١٤، معترضةً على دخوله في جيش المجاهدين الذي بدأ المعركة في حلب وريفها ضد تنظيم داعش. ويقول أبو بكري، قائد الكتائب، عن رفضهم قتال تنظيم "الدولة الإسلامية" في لقاءٍ مع جريدة صدى الشام: "لم نُشارك؛ لأنّنا لا نستطيع إخلاء جبهات المدينة والتوجّه إلى الريف الشمالي، بالدرجة الأولى ظروفنا غير مواتية، وثانياً تلك المعارك تصب في مصلحة النظام قولاً واحداً".

تُشير المعطيات، إلى أنّ "كتائب أبو عمارة" تتّبع فكراً جهادياً سلفياً، لم يكُن واضحاً طوال سنة ونصف؛ أي منذ تشكيل السريّة وحتى الفترة الأولى من معارك مدينة حلب. وهي مقرّبة من "جبهة النصرة"، واتّخذت الموقف نفسه حيال تنظيم داعش في حلب. حاربت أبو عمارة إلى جانب "جبهة النصرة" في كثير من المعارك، وكانت العلاقة بين التنظيمين جيدة جداً. وتقوم كتائب أبو عمارة - الآن - بفرض أحكام إسلامية في مناطق المشهد والأنصاري والشعّار؛ حيث تفرض إغلاق المحال التجارية وقت صلاة الجمعة، إضافة إلى حادثة رمي أحد المدنيين من علو شاهق، بعدما وجّهت إليه تهمة الشذوذ الجنسي. ترفع "أبو عمارة" الرايات الإسلامية

السود، بعدما استخدمت علم الثورة لمدّة قصيرة، إلى جانب الرايات الإسلامية في بداية معارك حلب أواخر ٢٠١٢.

على صعيد التمويل، اعتمدت كتائب أبو عمارة على مصادر خاصة، مثل شخصيات تجارية ذات توجّه إسلامي في سورية وخارجها. كما اعتمدت على غنائم المعارك التي خاضتها، ولم تتلقَّ أيّ دعم حكومي رسمي إلا في فترة تواجدها مع تجمّع "فاستقم"؛ حيث حظيت بدعم قطري محدود.

خ. حركة نور الدين زنكي

شُكّلت "كتيبة نور الدين زنكي" بداية شهر تشرين الثاني ٢٠١١ في الريف الغربي لمدينة حلب، وتحديداً في قرية قبتان الجبل، بقيادة الشيخ توفيق شهاب الدين، وهو واحد من أهم أسماء الحراك المسلح. قال توفيق شهاب الدين في مقابلة مع تيسير علوني على قناة "الجزيرة"، إن قرار تشكيل الكتيبة جاء بعدما استجرّهم النظام نحو العمل العسكري، بسبب بطشه واعتدائه على المظاهرات السلمية. قبل انقسامها إلى عدة كتائب في مناطق ريف حلب الغربي، نفّذ مقاتلو الكتيبة عمليات عسكرية عدة، مستخدمين السلاح الفردي، من أجل إنهاء سيطرة النظام على تلك المناطق. وشاركت كتائب نور الدين الزنكي في المعارك التي اندلعت في قُرى قبتان الجبل، تقاد، عنجارة، بسرطون، حوّر، المنصورة، الأبزمو، كفرناها، الشيخ سليمان، عويجل، الأتارب، وسرمدا في إدلب.

انفردت كتائب الزنكي بتحرير المناطق التي ينتمي عناصرها إليها كقبتان الجبل وتقاد وعنجارة وبسرطون وكفرناها، بينما شاركت مع فصائل أخرى في بقية المناطق. وانضمت إلى لواء التوحيد بعيد تشكيله في الثامن عشر من تموز ٢٠١٢، ثم انسحبت منه مع نهاية عام ٢٠١٢، وانضمّت إلى تجمّع ألوية فاستقم كما أُمرت المقرّب من الإخوان المسلمين. وتمّت إضافة كلمة الإسلامية إلى تسمية الكتائب، فأصبحت كتائب نور الدين الزنكي الإسلامية، ثمّ انسحبت من التجمع في حزيران ٢٠١٣.

كانت كتائب الزنكي من أوائل الكتائب التي دخلت معركة حلب، وتحديداً في حي صلاح الدين؛ حيث تمركز مقاتلوها على جبهة شارع ١٥، وهو شارع شهد أعتى المعارك مع قوات النظام في محاولتها استعادة الأحياء الأولى التي خضعت لسيطرة المعارضة المسلحة في المدينة. وخاضت كتائب الزنكي عدداً كبيراً من المعارك، أهمها اقتحام كتيبة الهندسة في خان العسل، حيّ الراشدين غربي حلب، وهو من الأحياء الحديثة عمرانياً في حلب الجديدة. وتفردت الكتائب في التصدي للأرتال العسكرية التي أرسلها النظام لاستعادة السيطرة على الريف الغربي في بلدات تقاد وحوّر. لكنها شاركت فصائل أخرى في معارك هامة، دارت في حلب وريفها، أهمها: معارك تحرير الأتارب والأبزمو وخان العسل والمنصورة وبابيص وكفر داعل والراعي وجبل معارة الأرتيق وجبل شويحنة.

في مدينة حلب، شاركت كتائب الزنكي في معارك السيطرة على أحياء صلاح الدين والسكّري والعامرية والأنصاري وجسر الحج والمشهد والزبدية والشيخ سعيد ومعمل الإسمنت الضخم في الشيخ سعيد. كما كانت لها مشاركات محدودة خارج إطار محافظة حلب، أهمها المشاركة في محاصرة مطار دير الزور العسكري، وتحرير اللواء ٦٦ في حماه، والسيطرة على سرمدا وباب الهوى الحدوديّتَين في ريف إدلب. ويُذكَر أنّ كتائب الزنكي قامت بإنشاء أول غرفة عمليات مشتركة في حلب وريفها، بالاشتراك مع عدة قوى مسلّحة، وهي غرفة عمليات خان العسل.

بداية عام ٢٠١٤، انضمت كتائب الزنكي إلى تشكيل "جيش المجاهدين" لقتال تنظيم "الدولة الإسلامية" تحت قيادة مركزية، وبغرفة عمليات مشتركة، وعُيّن الشيخ توفيق شهاب الدين قائداً عاماً لجيش المجاهدين. شاركت كتائب الزنكي مع الفصائل الأخرى في جيش المجاهدين في قتال التنظيم في مناطق الريف الغربي، واستطاعت إخراجه من أغلب القرى.

استمرت كتائب الزنكي بالعمل تحت راية جيش المجاهدين حتى أيار

٢٠١٤، عندما أعلنت انسحابها منه، وأكد جيش المجاهدين ذلك في بيانٍ رسميّ منشور. وسُرعان ما أُعلن عن تغيير اسم الكتائب من "كتائب نور الدين الزنكي الإسلامية" إلى "حركة نور الدين الزنكي"، ما يدل على أنّ تغييراً جذرياً قد طرأ على السياسية العامة لـ "الزنكيين"، تلاه توسع أعداد مقاتليهم وأعداد المقاتلين المنضمين إليهم من كتائب أخرى، كانفصال لواء أبناء الصحابة عن لواء التوحيد، وانضمامه للزنكي، حتى وصل عدد مقاتلي الحركة إلى ألفَيْ مُقاتل.

ترجع أسباب انسحاب الزنكي إلى تلقّي "جيش المجاهدين" الدعم عن طريق "لواء الأنصار"، إبان معركة خان العسل. وهذا الدعم جاء من هيئة حماية المدنيين القطرية المحسوبة على الإخوان المسلمين. وهذا شكّل شُبهةً لدى الداعم الأميركي الذي اعتادَ أن يثق بحركة الزنكي، ويرسل لها الدعم عن طريق "غرفة عمليات الموم". وهناك - أيضاً - رغبة توفيق شهاب الدين الدائمة في بناء زعامة مستقلة، تحقّقَت له فعلياً، بوجود الحاضنة الشعبية لحركة الزنكي في الريف الغربي الذي انضم كثيرون من أبنائه للقتال تحت رايتها. وتتمتع الحركة بمستوى تنظيمي عالٍ، وصلت إليه تدريجاً. ففي ما يتعلق بالنشاط العسكري والأمني، أنشأت الحركة مكاتب عديدة، أُوكلت إليها مهام محددة:

- المكتب العسكري: تتبع إليه ٣٣ كتيبة ٥ سرايا (م د، م ط، مدفعية، دبابات، هندسة عسكرية).
- المكتب الأمني والشرطة: يضم ١٠ مخافر شرطة، و١٥ حاجزاً، وتعمل على ضبط الأمن في المناطق التابعة الحركة، ومكافحة الجريمة واللصوص.
- مكتب التسليح: يتولى ضبط السلاح، وتسجيله في القيود مع توزيع الذخيرة.
- مكتب الإدارة والتنظيم: يقوم بضبط الأعداد، وتوثيق سير عناصر الكتائب، وتوزيعها حسب الاختصاصات.

هذا إضافة إلى مكاتب: للإشارة والاتصالات، للشؤون الإدارية (مطبخ وورشة تصليح الآليات ومحطة محروقات)، للمالية، للإغاثة العسكرية، للمعسكرات (يشرف على تدريب العناصر، وتأهيلهم)، والمكتب السياسي والعلاقات العامة (يتولى رسم السياسة العامة للكتائب).

واهتمت كتائب الزنكي بالعمل المدني، على نحو خاص ومنظّم، فاسحدثت مكاتب للاعتناء بأمور المدنيين في المناطق الخاضعة لسيطرتها. توزّعت المكاتب على النحو التالي:

- مكتب الإدارة المحلية: يعنى بالشؤون البلدية والمجالس المحلية، ويعمل على توحيد نشاطها. وينسق مع المجلس المحلي لمحافظة حلب الحرّة المُرتبط بالحكومة السورية المؤقتة.
- المكتب الطبّي: يتألف من عدة مستوصفات منتشرة في البلدات التابعة لنفوذ الكتائب، وهي مرتبطة بمشفى ميداني، يؤمن الدواء والإسعافات الأوليّة.
- المكتب التعليمي: يشرف على شؤون التعليم في مناطق وجود كتائب الحركة، كما يعمل على إعادة تأهيل المدارس وتأمين الاحتياجات اللازمة لاستمرار العملية التعليميّة.
- المكتب الشرعي والدعوي: يُشرف على المساجد والأوقاف، ويقيم المعاهد الشرعية لتخريج الدُعاة، ويعمل على نشر الفكر الإسلامي المعتدل الذي تتخذه الحركة منهجاً إيديولوجياً.

تشارك حركة نور الدين الزنكي بجانب كبير من المعارك الدائرة في حلب، ويتوزّع مقاتلوها على الجبهات في أهم المناطق التي تشهد معارك ضد النظام السوري وتنظيم "الدولة الإسلامية".

على صعيد التمويل، حصلت الحركة على دعم مادي محدود شخصيات خليجية وسورية مقيمة في المغترب. كما اعتمدت على السلاح

والذخيرة التي كانت تستولي عليها في معاركها ضد قوات النظام. تطوّر التمويل، فحصلت الحركة على دعم قطري، بسبب انضمامها إلى تجمّع "فاستقم كما أُمرت"، ما أسس لإقامتها علاقات جيدة مع الإخوان المسلمين السوريين الذين كانوا ينسّقون عمليات التمويل بين الحكومتَين القطرية والتركية. والأخيرة كانت - على الدوام - العنصر المساعد لدخول الأموال القطرية إلى الفصائل الإسلامية في سورية. كما حصلت الحركة الزنكية على دعم مجلس الأمة الكويتي، إضافة إلى الهيئة الشعبية الكويتية التي يترأّسُها الشيخ السلفي حجّاج العجمي. ومع بداية عام ٢٠١٤، وانضمام الحركة إلى جيش المجاهدين، حظيت بتمويل منوّع عن طريق هذا الجيش: خليط من تمويل قطري - إخواني، ومن مجموعة أصدقاء سورية عن طريق "غرفة عمليات الموم". وبعد انسحابها من جيش المجاهدين وتغيير الاسم إلى "حركة نور الدين الزنكي" اعتمدت الحركة على التمويل الدولي من طريق "الموم". وهو ما يُفسّر - إلى حدٍّ كبير - عملية التغيير الجذرية التي حصلت في صفوف الزنكي بعد أيار ٢٠١٤، مثل اعتمادها علم الثورة، بشكل كثيف، في بياناتها الإعلامية ومقرّاتها العسكرية، وعلى سياراتها.

تؤمن "حركة نور الدين الزنكي" بالفكر الإسلامي المعتدل، على الرغم من أنّ التوقعات كانت الميل المتطرّف لتوفيق شهاب الدين. لكن الزنكي بقيَت محافظةً على خطّها الاستراتيجي الإسلامي المعتدل والواضح، رغم تنوّع التمويل بين القطري والأمريكي، محافظةً على هدفها الأساسي: إسقاط النظام، وبناء دولة المؤسسات الإسلامية المعتدلة.

د. تجمّع ألوية فاستقم كما أُمرت

أُعلنَ عن تأسيس تجمّع ألوية "فاستقم كما أُمرت" منتصف كانون الأول ٢٠١٢، إثر اتحاد مجموعة من فصائل الجيش السوري الحر آنذاك، معتمدة راية الثورة السورية. وضمّ الاتحاد - في بداية تشكيله - الفصائل التالية: "لواء درع الأمّة، لواء درع الوطن، لواء درع الشهباء"، المنضوية في "هيئة دروع الثورة". وهو تجمّع عسكري، يتبع للإخوان المسلمين، تأسس

في اسطنبول، بحضور رياض الأسعد، قائد الجيش الحر آنذاك، ومحمد رياض الشقفة، المراقب العام السابق لجماعة الإخوان المسلمين في سورية. وضمت "فاستقم" بعد ذلك: "لواء حلب المدينة، لواء حلب الشهباء، كتائب ذي النورين، تجمّع كتائب السلام، لواء أنصار محمد، وكتائب نور الدين الزنكي".

عُيّن الشيخ توفيق شهاب الدين، قائد الزنكي، قائداً عاماً للتجمّع، ومصطفى برّو الملقب بصقر أبو قتيبة، قائداً عسكرياً. هذا قبل أن تنسحب كتائب الزنكي من التجمّع؛ ليصبح أبو قتيبة قائداً عاماً، وهو من قاطني مدينة حلب، وأصوله إدلبية.

تم الحفاظ على الدور القيادي لقائد كل فصيل على جبهات القتال وغرفة العمليات العسكرية.

كان عدد مقاتلي التجمّع يُقارب ١٣٠٠ مُقاتل، قبل أن يتناقص جرّاء انسحاب الزنكي منه. لكن أعداد مقاتليه تراوحت طوال مدة نشاطه وحتى الآن بين ٩٠٠ و١٣٠٠ مُقاتل.

- لواء حلب الشهباء تشكّل في ٦ أيلول ٢٠١٢ بقيادة "أبو الصادق"، وانضوى تحت اسمه - آنذاك - عدد كبير من الكتائب الصغيرة الناشطة في الجبهات الغربية، مثل "كتائب أبو عبيدة بن الجراح، شهداء صلاح الدين، درع صلاح الدين، صقور صلاح الدين، سرايا أمن الثورة، وعمرو بن العاص". غالبية مقاتليها من المدنيين المنتمين إلى أحياء مدينة حلب والريف الشمالي والغربي وريف إدلب. اعتمد اللواء علم الثورة في شعاراته وبياناته الإعلامية. ترك أبو الصادق منصبه في قيادة اللواء إلى ملهم عكيدي، أحد طلاب جامعة حلب، ولا يزال العكيدي قائداً للواء حتى الآن.
- لواء حلب المدينة أُعلن عن تشكيله مطلع أيار ٢٠١٢ بجهد شخصي من الطبيب عبد الرؤوف كريّم، الذي أصبح - في ما

بعد - عضواً في المجلس العسكري الثوري لمدينة حلب، قبل أن يختفي في ظروف غامضة، ولم يُعرف مصيره حتى اليوم. تشكّل اللواء قبل بدء معركة حلب، وعمل سرّياً إلى جانب "سريّة أبو عمارة" في أحياء حلب، وقام باغتيالات، استهدفت عناصر جيش النظام وقياداته الأمنيّة ومموّلي وقياديي "اللجان الشعبية". تغيّر اسم اللواء بعد دخوله التجمّع إلى لواء حلب المدينة الإسلامي إثر سيطرة قيادات إسلامية عليه، ويشغل عمر سلخو منصب قائد اللواء حتى الآن.

- كتائب السلام أسسها مصطفى برو (صقر أبو قتيبة)، وهو القائد الحالي لتجمّع "فاستقم". وضمّت مجموعات عدّة، كانت تنشط في أحياء حلب الغربية، ككتيبة فجر حلب التي قادها عبد السلام منّغاني، والذي أصبح أحد قياديي لواء السلام قبل أن يُقتل في إحدى المعارك. وكتيبة "سيوف الله الأحرار" بقيادة "أبو علي صليبة" ذي الأصول الساحلية، وأحد قياديي اللواء على جبهة حيّ الإذاعة، قبل أن يختطفه تنظيم داعش. ولا أخبار مؤكدة عنه حتى الآن.

ويُعتبر تجمّع ألوية "فاستقم" من أكبر الفصائل التي تضم مقاتلين حلبيين، فيشكّل الحلبيّون وساكنو حلب النواة الأساسية لكتائب ألوية حلب الشهباء وحلب المدينة. كما يسيطر التجمّع - منذ تأسيسه - على أحياء صلاح الدين والمشهد والأنصاري والزبدية وجب الجلبي والعامرية؛ حيث تتواجد مقرّاته وحواجزه العسكرية ومساكن مقاتليه.

كانت الكتائب الصغيرة التي شكّلت ألوية التجمّع عاملاً رئيسياً في بدء معركة حلب، فاستطاع مقاتلوها السيطرة على حي صلاح الدين وجزء من حي المشهد قبل أن تصلهم المؤازرات الريفية التي تمثّلت بلواء التوحيد وكتائب نور الدين زنكي. وكانت ألوية التجمّع فاعلاً أساسياً في السيطرة على مناطق الريف الجنوبي والمعارك الدائرة هناك حتى الآن، كما شاركت في القتال ضد تنظيم داعش، وساهمت بطرده من أحياء حلب.

يُعتبر تجمّع "فاستقم" الذراع العسكري الإخواني الأوّل في منطقة حلب. ويحظى بالدعم من الدول الداعمة لجماعة الإخوان المسلمين السوريين، وفي مقدمها قطر. وكانت إيديولوجيا التجمّع، حسب بياناته الإعلامية، ومقاطع فيديو، ينشرها على يوتيوب، إسلامية مُعتدلة، من دون أن يخلو الأمر من بعض المواقف المُتطرّفة التي كان أغلبها يصدر من مقاتلي لواء حلب المدينة، بسبب سيطرة القيادات السلفية الجهادية عليه. حارب التجمّع ضد تنظيم داعش في حلب وريفها، ويُعتبر "لواء حلب الشهباء" الأكثر اعتدالاً بين ألوية التجمّع، وهو الفصيل الذي ما يزال يرفع علم الثورة السورية حتى الآن.

ذ. حركة حزم

تأسست حركة حزم أواخر كانون الثاني ٢٠١٤ بجهد شخصي من اللواء سليم إدريس، رئيس هيئة أركان الجيش السوري الحر، والذي أُقيل بعد تأسيس حزم بفترة وجيزة، على خلفية اقتحام أحرار الشام مخازن السلاح والذخيرة الخاصة بهيئة الأركان في منطقتي باب الهوى وأطمة في ريف إدلب الشمالي. ذلك إضافة إلى الخلاف الكبير الذي نشب بين إدريس وأحمد الجربا، رئيس الائتلاف الوطني آنذاك، ما دفع بالأخير للضغط على السعودية لإقالة سليم إدريس، وتعيين عبد الإله البشير بدلاً منه، وهذا ما تمّ، بالفعل.

أثبت إدريس أنه قادر على إحداث تغيير في خريطة القوى، بتشكيل "حركة حزم"، بعد أن قررت الولايات المتحدة دعم المعارضة السورية المعتدلة بأسلحة ثقيلة وذخيرة، إضافة إلى تدريبات عسكرية. لكن الفصيل المناسب لتلقّي هذا الدعم لم يكن موجوداً في تجمّع عسكري منظّم وواضح، ما دفع إدريس للبدء بجمع القوى التابعة لهيئة الأركان في بوتقة حزم. حينذاك أعلنَ ١٢ فصيلاً عسكرياً يشكّلون ٢٢ كتيبة من مناطق مختلفة في سورية عن تشكيلهم لحركة حزم التي تُعتبر من القوى العسكرية المعتدلة في المعارضة السورية.

تشكل قوام حركة حزم الأساسي في حلب، من مقاتلي الفرقة التاسعة التابعة لهيئة أركان الجيش السوري الحُر التي شُكّلتْ أواسط حزيران ٢٠١٣ في ريف حلب بقيادة عبد الناصر أبو جلال، وضمّت مقاتلين من ريف حلب وريف إدلب من عدة كتائب وألوية ضمن تشكيل عسكري بحت: اللواء أوّل مدرّعات، الفوج الأوّل قوّات خاصّة، لواء أحباب الله، لواء درع الشهباء، اللواء ٦٠ مُشاة، لواء المشاة الأوّل مهام خاصّة، كتائب م د، فوج المدفعية والصواريخ. وضمت حزم في المدن الأخرى تشكيلات مختلفة في أرياف إدلب وحماه وحمص واللاذقية والقلمون ودرعا. وكانت كتائب الفاروق من أهم هذه التشكيلات، وهي تُعتَبر النواة الأولى للجيش السوري الحر. وأُعلن عن هيكليتها التنظيمية في أواسط شباط ٢٠١٣، بعد أن شكّلت معارك حي بابا عمرو في حمص الانطلاقة الأولى لها. ومنه انطلقت باتجاه بقية مناطق حمص وريفها، قبل أن تتحوّل إلى "فاروق سورية". هكذا شكّلت كتائب الفاروق في كل المحافظات السورية - باستثناء حلب - القوام الرئيس لحركة حزم، إضافة إلى عدة كتائب صغيرة أُخرى. وجاء في بيان التشكيل أنّه اعتباراً من تاريخ البيان تُلغى أسماء التشكيلات، وتندمج جميعها تحت مُسمّى "حركة حزم" التي يمثّلها الأشخاص التالية أسماءهم وصفاتهم : القائد العسكري لحركة حزم الملازم أوّل عبد الله عودة (أبو زيد)، القائد العسكري للقطاع الجنوبي. محمد الضحيك (أبو حاتم)، قُتلَ بعدما استهدف الطيران الحربي للنظام إحدى مقرّاته في تلبيسه بريف حمص. القائد العسكري للقطاع الشمالي الملازم أوّل مُرشد الخالد (أبو المعتصم). رئيس المكتب السياسي لحركة حزم حمزة الشمالي (أبو هاشم). أمين عام الحركة بلال عطّار الذي استقال في ما بعد، وترك منصبه لخالد الصالح عضو الائتلاف الوطني السابق، والذي وقّع بتاريخ ٢٨-١٠-٢٠١٤ في جنيف على معاهدتين ضمن الإعلان الخاص بنداء جنيف المتعلق بحظر الألغام المضادة للأفراد ومنع العنف الجنسي والتمييز بين الجنسين. نتيجةً للمعاهدة، خضع مقاتلون من الحركة لدورات توعية وتدريب للتعرف على

أساليب الالتزام بالمعاهدات التي تم التوقيع عليها، إضافة لدورات تثقيفية متعلقة بالقانون الدولي الإنساني وقوانين النزاعات.

وصل عدد مقاتلي حزم إلى ٤٠٠٠ مُقاتل بُعيدَ تشكيلها. قسم كبير منهم من الضُبّاط والعسكريين المُنشقّين عن النظام. وهذا ما تمتاز به حركة حزم عن باقي الفصائل السورية المعارضة. فللحركة هيكلية عسكرية، تشبه هيكليّة الجيوش النظاميّة إلى حدٍّ كبير.

تلقّت حركة حزم أسلحة نوعية متطورة، مثل صواريخ "تاو" المضادة للدروع. وتم تدريب عدد كبير من مُقاتليها في معسكرات خاصة في السعودية وقطر والأردن، تحت إشراف الإدارة الأمريكية. وهذا ما يفسّر المدة الزمنية الطويلة التي فصلت بين إعلان التشكيل وبداية ظهور المقاطع على يوتيوب باسم حركة حزم. وتستخدم الحركة صواريخ تاو الأميركية الموجّهة المضادّة للدبابات. لذا؛ تتمتّع حزم بفعالية عسكرية، كما أنّ مقاتليها غالباً ما يقومون بضرب أهدافهم مباشرةً، وليس بصورة عشوائية على غرار الكثير من الفصائل الثورية الأُخرى. تضاءلت أعداد مقاتلي حزم - بشكل كبير - نتيجة حربهم مع جبهة النصرة في ريف إدلب، بعد أن استطاعت النصرة حسم المعركة مع "جبهة ثوار سورية" في جبل الزاوية لمصلحتها، فأنهت وجود أحد أهم الفصائل المحسوبة على المعارضة المعتدلة.

توجّهت النصرة - بعد ذلك - نحو القضاء على "حركة حزم" التي تعرض عدد من قادتها لمحاولات اغتيال، وتمّت السيطرة على بعض الحواجز والمقرّات التابعة لها في ريف حلب الغربي وريف إدلب. وقامت النصرة باعتقال عدد من قادة الحركة، أبرزهم مشهور الطويل (في ٥-١٢-٢٠١٤). وردّت حزم باعتقال ثلاثة شرعيين تابعين للنصرة للإفراج عن مشهور. حاولت حركة حازم التملّص من المعركة رغبةً منها في الاستمرار بقتال النظام، فسحبت قواتها من ريف إدلب، باتجاه جبهات حلب. لم تتمكن النصرة - آنذاك - من القضاء على حركة حزم، لكّنها استطاعت إخراجها من ريف

إدلب، فتمركز مقاتلوها في ريف حلب الغربي الذي يُعتبر - الآن معقلاً - أساسياً للحركة. تمّ الاتفاق - بعد ذلك - على هدنة بين حركة حزم وجبهة النصرة، وتم بموجبها سحب مقاتلي حزم من ريف إدلب، باتجاه ريف حلب. لكن المعركة سرعان ما اندلعت مجدداً في مناطق ريف حلب الغربي؛ حيث تحاول النصرة التمدّد والقضاء على الحركة. تمكن مقاتلو النصرة التمدد في ريف حلب الغربي، وتحديداً في مناطق سيطرة حركة حزم في الأتارب ودارة عزّة إبّان حالات الخطف التي حصلت بين الفصيلَيْن. دافع مقاتلو حزم لعدة أيام عن دارة عزّة، لكنّ النصرة استطاعت -أخيراً- أن تسيطر عليها وعلى القُرى المحيطة بها. بعد ذلك، تمدّدت جبهة النصرة باتجاه الأتارب.

قُتل خلال المعارك الأخيرة أكثر من ٦٠ من مقاتلي حزم، و ١٥ من مقاتلي النصرة، الإضافة إلى الأسرى بين الطرفين، وهؤلاء قُتلوا أيضاً. لم يستطع مقاتلو حزم الصمود أمام التمدّد الهائل لمقاتلي النصرة. والموقف الرمادي الذي اتّخذته قيادات الجبهة الشامية حيال هذه المعركة (طالبت الجبهة الشامية في بيانها الرسمي كلاً من حركة حزم وجبهة النصرة تطبيق هدنة فورية، والاحتكام إلى محكمة قضائيّة شرعية توافقية بين الطرفين، تحكم بشرع الله) حمل حركة حزم على حلّ نفسها، وانضمام مقاتليها إلى الجبهة الشامية في الأول من آذار ٢٠١٥، ليسيطر - بعدئذ - مقاتلو النصرة على الفوج ٤٦ ومدينة الأتارب.

تقول حركة حزم عبر موقعها الخاص على الإنترنت، والذي لم يعد متاحاً عند تحرير هذه المادة، "إن أهداف الحركة هي: تصحيح مسار الثورة السورية، والحفاظ على ثوابتها، والوقوف في وجه كل مَن يحاول حرف مسارها، وتحقيق طموحات الشعب في نيل حريّته، واستعادة كرامته المتمثّلة في إسقاط النظام؛ والتنسيق مع كافة الفصائل الثورية التي تسير على نفس مسار الحركة وأهدافها". وأكّد سليم إدريس في بيان التشكيل على أنّ دعم القوى الثورية هو الضمانة الحقيقية لأي حل سياسي.

تؤمن حركة حزم بالدولة المدنية وبالأسلوب الديموقراطي وحق الشعب

في تقرير مصيره، وتعترف بالمواثيق الدولية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وتُعتبر من أكثر الفصائل الثورية المعارضة التي تميل إلى الاعتدال والعلمانية. وهي تتبع تنظيمياً لـ "هيئة أركان الجيش السوري الحر" بقيادة العميد زاهر الساكت، وتحظى بدعم حكومي من مجموعة أصدقاء سورية عبر غرفة عمليات "الموم" في تركيا وغرفة عمليات "الموك" في الأردن. لم تتلقَّ حركة حزم أي تمويل من خارج هذا النطاق.

ر. الفرقة ١٦

في التاسع عشر من أيلول لعام ٢٠١٣، أعلنت أكثر من عشرة ألوية مقاتلة في حلب وريفها عن تشكيل "الفرقة السادسة عشر" للجيش السوري الحر. جاء في بيان تشكيل الفرقة: "نعلن نحن الكتائب والألوية المقاتلة في ريف حلب الشمالي عن تشكيل الفرقة السادسة عشرة التابعة للمجلس العسكري الثوري في محافظة حلب، والمؤلفة من الفصائل التالية: لواء أحرار سورية، لواء شهداء بدر، لواء الأقصى، تجمع كتائب أحفاد عُمر، لواء الربيع العربي، لواء أسود الثورة، لواء شهداء المصطفى، تجمع كتائب صقور السلام، لواء يوسف العظمة، لواء صلاح الدين الأيوبي". ألقى هذا البيان العقيد الركن المُنشق سليمان الشلال الذي عُيّن قائداً عاماً للفرقة ١٦، قبل أن يستقيل، ويسلّم منصبه للعقيد الطيار حسن رجّوب. كما عُيّن الملازم أوّل المُنشَق أبو حاتم الحمصي قائداً عسكرياً للفرقة، ومحمد سراج حياني منسقاً عاماً. شُكّلت الفرقة قبل إعلان تنظيم الدولة الإسلامية حربه على مَن سمّتهم "المُفسدين" في حلب، والتي بدأت باستهداف كتائب غرباء الشام في مناطق الصاخور والحيدرية وبستان الباشا. حُسمَت المعركة ضد غرباء الشام لصالح داعش الذي سُرعان ما اتّجه إلى المناطق التي تسيطر عليها الفرقة ١٦ في الأشرفية والسكن الشبابي والخالدية والكاستيلو والشيخ مقصود شرقي.

لم يستمر "لواء أحرار سورية" مع الفرقة كثيراً. فقد انسحب منها خوفاً من هجوم محتمل لتنظيم داعش على عندان في الريف الشمالي، معقل

لواء أحرار سورية. كما انسحب لواء الأقصى من الفرقة ١٦ للسبب نفسه. تحالفت كتائب وألوية الفرقة ١٦ مع وحدات حماية الشعب الكردية، في منطقة الشيخ مقصود، ضد مقاتلي داعش. واستطاعوا منع تنظيم الدولة الإسلامية من الدخول إلى الأحياء الواقعة تحت سيطرة الفرقة في حلب. بعد ذلك، توجّه التنظيم إلى القُرى التي ينتمي إليها مقاتلو الفرقة، وتتواجد مقراتهم فيها، واستطاع السيطرة على قُرى حيّان ورتيان وبيانون وحريتان والكاستيلو. كل هذا كان قبل إعلان المعركة الكُبرى في حلب ضد تنظيم داعش، والتي قادها "جيش المجاهدين" في بداية ٢٠١٤. قبل ذلك كانت باقي فصائل حلب تقف موقف المُشاهد مما يحصل بين تنظيم داعش والفرقة ١٦، فخسرت الفرقة أحد أهم قادتها في حلب، أبو جميل العنجريني، الذي قُتل على يد مقاتلي داعش بعدما كشفوا مشاركته في مقاومتهم داخل المدينة. كما قُتل أبو علي صليبة، أحد أوائل الثوّار المسلّحين في مدينة حلب، بعدما اكتشف داعش محاولاته تفخيخ الطرق التي كان يمر عليها عناصره باتجاه الريف الشمالي والكاستيلو.

يشكّل "لواء شهداء بدر" النسبة الأكبر من مقاتلي الفرقة ١٦، التي يبلغ عدد مقاتليها حالياً ٩٠٠ مقاتل بعد الكثير من الانسحابات والمشاكل الداخلية داخل كل لواء. بعض هذه الانسحابات والمشاكل أدّت إلى إنهاء وجود فصائل مثل "لواء يوسف العظمة" و"لواء صلاح الدين الأيوبي"، وهي فصائل كردية، ينتمي مقاتلوها إلى مناطق عفرين وكوباني، وكانت تتبع للمجلس العسكري الثوري، وترفع علم الثورة السورية إضافة إلى علم "كردستان" على جبهاتها ومقرّاتها، وكانت قد تلقّت دعماً من هيئة الأركان إضافة إلى تمويل من المجلس الوطني الكردي المعارض، ومقاتلوها من الأكراد المعارضين لحزب الاتحاد الديموقراطي PYD، الجناح السوري لحزب العمّال الكردستاني التركي PKK. وتؤمن هذه الفصائل الكردية بسورية موحّدة، بينما يُعد مقاتلو حزب الاتحاد الديموقراطي (YPG: وحدات حماية الشعب) ذوي ميول انفصالية، ويطلقون تسمية Rojava (غرب كوردستان) على المناطق السورية ذات الغالبية الكردية.

كان "لواء شهداء بدر" قد خاض معركة استمرت أقل من شهرين ضد المقاتلين الأكراد من وحدات حماية الشعب YPG في حي الشيخ مقصود غربي. يُعتقد أن المعركة سببها صراع على النفوذ العسكري في المنطقة. لكنها لم تدُمْ طويلاً؛ إذ تم الإعلان عن تشكيل الفرقة ١٦، وتحالفها مع وحدات حماية الشعب YPG ضد تنظيم داعش الذي كان يحاول اقتحام المنطقة. وكان هذا التحالف هو السبب الأساسي لامتناع فصيلَي يوسف العظمة وصلاح الدين الأيوبي من الدخول في المعركة ضد داعش، ومن ثمّ؛ خروجهم من الفرقة وتلاشي وجودهم تدريجياً بسبب انقطاع التمويل عنهم، وخسارتهم عدداً كبيراً من مقاتليهم كقتلى ومصابين. أما تجمّع "كتائب أحفاد عمر"؛ فانضمّ إلى الجبهة الإسلامية.

ينتمي مقاتلو لواء شهداء بدر ولواء أسود الثورة ولواء المصطفى (الذين يشكّلون الفرقة ١٦ الآن) إلى قُرى حيّان ورتيان وحريتان وعندان وبيانون وباشكوي والليرمون في ريف حلب الشمالي. ويتوزّعون على جبهات القتال في حلب ضد قوات النظام في كل من مناطق الخالدية والأشرفية وبني زيد (وهي الجبهات التي تعمل عليها الفرقة منفرّدةً)، وبستان الباشا والشيخ مقصود شرقي وصلاح الدين وحندرات والبريج والملاح (وهي جبهات القتال التي تتواجد فيها الفرقة مع فصائل أخرى).

كان للواء شهداء بدر الذي يقوده خالد سراج، المدني ابن قرية حيّان، باع طويل في المعارك التي اندلعت ضد النظام في مناطق الريف الشمالي والجزء الشمالي الشرقي من مدينة حلب. فشارك في السيطرة على منطقة دوار البلليرمون، وفي ضرب حواجز النظام في حريتان وبيانون، كما شارك في السيطرة على مدينة أعزاز في منتصف ٢٠١٢.

شاركت فصائل الفرقة ١٦ في المعارك التي دارت حول مدينتَي نبّل والزهراء، واللتين تقعان تحت سيطرة النظام، ويدافع عنها أبناؤها - المنتمون إلى الطائفة المسلمة الشيعية - بمؤازرة من مقاتلين شيعة من حزب الله وقوّات الدفاع الوطني. كما خاضت معارك محدودة خارج

الإطار الجغرافي الحلبي في ريف حماه، وأرسلت مؤازرات عسكرية إلى ريف اللاذقية، للمشاركة في المعركة التي اندلعت هناك في ٢٠١٣ ضد قوّات النظام.

تتبع الفرقة ١٦ لهيكلية الجيش السوري الحُر، وتُعدّ من الفصائل المعتدلة في سورية. فلا يُستَشفّ من بياناتها ومقاطع الفيديو التي تنشرها على يوتيوب أيّ نَفَس إسلاميّ سَلَفيّ، بل توجّه إسلامي مُعتدل، يبدو أنّه يؤمن بالأسلوب الديمقراطي في الحُكم. تهدف الفرقة ١٦ إلى إسقاط النظام السوري، والاستمرار في قتال تنظيم داعش كونه "تنظيماً متطرّفاً، لا يمثّل الثورة السورية" كما قالت في أحد بياناتها.

على صعيد التمويل، اعتمدت فصائل الفرقة ١٦ قبل اتحادها، على أساليب مختلفة في تأمين الذخيرة والسلاح والرواتب لمقاتليها. فحظيت بدعم محدود من شخصيات سورية مغتربة، إضافة إلى دعم محدود آخر من هيئة أركان الجيش السوري الحر. واعتمدت - بشكل أساسي - على الدعم الذاتي جرّاء سيطرة "لواء شهداء بدر" على منطقة المعامل والشركات الكبيرة في الليرمون وبني زيد والخالدية. ثم تلقّت بعد اتّحادها تحت راية الفرقة ١٦ دعماً من غرفة عمليات "الموم" كونها شكّلت أحد فصائل المجلس العسكري في حلب وريفها. ويبدو أن التمويل قد انخفض كثيراً في المدة الأخيرة. وهذا ما قد يفسّر تتالي الانسحابات منها، وتناقص أعداد مقاتليها. فبعدما كانوا أكثر من ١٥٠٠ مقاتل، صاروا لا يتجاوزون ٦٠٠ مقاتل، يتوزّع أغلبهم على جبهات قتال هادئة منذ فترة طويلة (الأشرفية، بني زيد، الخالدية، الشيخ مقصود).

ز. ألوية التركمان

ليس هذا اسمها التنظيمي، لكنّها تُعرف في حلب باسم "ألوية التركمان"؛ لأنها شُكّلت في القُرى التركمانية في ريفَي حلب الشمالي والشرقي. وعندما اقتحمت الكتائب المسلحة المدينة، وسيطرت على أجزاء واسعة منها، استقرّت هذه الألوية، والتي كانت عبارة عن كتائب

صغيرة، في الأحياء ذات الغالبية التركمانية: الهلّك، بعيدين، الحيدرية، الشيخ فارس، الشيخ خضر. وهي أحياء، تقع في الجزء الجنوبي الشرقي من مدينة حلب.

كانت البداية مع تجمّع أحرار تركمان سورية، بوصفه مظلة سياسيّة جامعة لكل الهيئات والأحزاب والأشخاص العاملين على الساحة السياسية السورية من الأصول التركمانية. وأدى التجمع دوراً بارزاً في تشجيع التركمان السوريين على إنشاء مجموعات مسلّحة خاصة بهم. كانت حلب وريفها مسرح الظهور الأوّل لتلك المجموعات، انطلاقاً من القُرى والأحياء التي يسكنها التركمان، مثل راعل والراعي وتركمان بارح. هناك، تأسّست كتائب، تتراوح أعداد مقاتليها بين ٣٠ و ٥٠ مسلحاً، أولها كانت "كتيبة السلطان عبد الحميد". وكان أول إعلان مُباشر عن ظهورها في أيار ٢٠١٢، عندما تبنّت زرع عبوة ناسفة على طريق مطار حلب الدولي، فراح ضحيّتها ثلاثة ضباط، وجُرحَ ١٨ آخرون. ومع اتخاذ قرار اقتحام مدينة حلب، بدأت هذه المجموعات تتكاثر سريعاً، ومنها "كتيبة السلطان محمد الفاتح"، و"كتيبة السلطان مراد"، و"كتيبة السلاجقة"، و"كتيبة أحفاد الفاتحين". ولأنّ زيادة العدد واتّساع رقعة الانتشار كانا شرطَين أساسيّيْن للحصول على دعم تركي مستمر، فقد تحولت معظم تلك المجموعات إلى ألوية لاحقاً. كان أبرزها "لواء السلطان محمد الفاتح" و"لواء السلطان مُراد". وقد ساهم في قيامها وتوسعها التهميش الكبير الذي عانى منه التركمان السوريون طوال فترة حكم النظام. فمن المعروف أن أحياء الهلّك وبعيدين والحيدرية والشيخ فارس تُعتَبر من المناطق الفقيرة والمهمّشة في مدينة حلب، ويُعاني قاطنوها البطالة والفقر وانعدام الموارد وإهمالٍ خدميٍّ كبير. وعاش عدد كبير من التركمان بدون حقوق مدنيّة، وبدون هويّة سورية. كان هذا هو العامل الأكبر الذي شجّع الكثير من التركمان السوريين على الانخراط في صفوف الثورة السورية، ومن ثمّ؛ حمل السلاح لقتال النظام السوري.

- لواء السلطان مُراد

تمّ تشكيل كتيبة السلطان مُراد في مُنتصف عام ٢٠١٢، بالتنسيق مع المجلس العسكري لمدينة حلب، في قرى منطقة الراعي في ريف حلب الشرقي. شاركت الكتيبة في تحرير بلدة الراعي والقُرى المحيطة بها، ثمّ دخلت معركة حلب بعد فترة من سيطرة المعارضة على نصف المدينة تقريباً. استقرّ عناصر "السلطان مراد" في الأحياء ذات الغالبية التركمانية. وهذا ما أفسح المجال للشباب السوريين التركمان من أبناء هذه المناطق للانضمام إلى الكتيبة والقتال تحت رايتها ضد قوّات النظام. كما انضمّ إليهم عدد من المقاتلين العرب السوريين الذين يقطنون هذه الأحياء أيضاً. هذا التوسّع دفع إلى الإعلان عن تشكيل "لواء السلطان مُراد" في الشهر الثالث لعام ٢٠١٣، بقيادة العقيد المُنشق أحمد عثمان، وكان فهيم عيسى هو القائد العسكري الميداني للواء الذي ضمّ الكتائب التالية: "كتيبة الشهيد جمال موسى، كتيبة الشهيد ماجد عبد الحي، كتيبة المستقبل، كتيبة أنصار المصطفى، كتيبة جبهة الحق، كتيبة الشهيد أسامة بكور، كتيبة الشهيد محمد الرحمو، كتائب اليرموك، كتائب أحفاد حمزة".

وصل العدد التقريبي لمقاتلي لواء السلطان مراد في ذروته إلى ٥٠٠ مُقاتل، شاركوا في معارك حلب وريفها: معارك الراعي، معاركُ السيطرة على مشفى الكندي الذي تحصّنت فيه قوّات النظام السوري لمدة عام كامل، ومعارك السيطرة على مخيّم حندرات والقرية التي تحمل الاسم نفسه. وشاركوا - قبل ذلك - في معارك انتهت بإحكام قبضة المعارضة على المدينة الصناعية ومنطقة الشيخ نجار. اعتزل "لواء السلطان مراد" القِتال عندما بدأ تنظيم داعش حربه على "المُفسدين" في حلب، كما أسماهم، ولم يشارك مع "كتائب غرباء الشام" و"الفرقة ١٦" في قتال التنظيم الإسلامي المتشدّد خوفاً من تمدّد التنظيم باتجاه قُراهم في ريف حلب، ولقلّة ذخيرتهم، في ذلك الوقت. وينتشر مقاتلو اللواء - الآن - على جبهات حندرات وبستان الباشا والشيخ نجّار وكرم الطرّاب، أما مقرّاتهم؛ ففي أحياء الهلّك والشيخ فارس وبعيدين والميسّر.

يتبع "لواء السلطان مراد" تنظيمياً للمجلس العسكري الثوري بقيادة العميد زاهر الساكت؛ أي أنه فصيل من فصائل الجيش السوري الحر، وهو فصيل مُعتدل؛ إذ لا يُلاحظ في بياناته أي اتّجاه إسلامي سلفي واضح. يرفع "لواء السلطان مراد" علم الثورة السورية وبعض الرايات الإسلامية، التي يبدو أنّها مُحرّفة قليلاً (راية إسلامية بلون أحمر وخط ذهبي) كيلا يُحسبُوا على الفصائل الإسلامية الأُخرى. ويهدف "لواء السلطان مُراد" إلى إسقاط النظام، وبناء دولة المؤسسات، ولم يُسجّل له أي اتجاه تركماني انفصالي قومي، رغم تلقّيه أغلب تمويله من الحكومة التركية مباشرةً سلاحاً، ذخيرة، رواتب، لوجستيات غير فتّاكة.

- لواء السلطان محمد الفاتح

شُكّلت كتيبة السلطان محمد الفاتح في منتصف عام ٢٠١٢ بقيادة "أبو فيّاض"، قائد الكتيبة ومؤسّسها الذي قُتل في اشتباكات حي سليمان الحلبي. انطلقت الكتيبة من القُرى التركمانية في ريفي حلب الشمالي والشرقي، وخاصة في قرية الغندورة، وانضمّت إلى لواء التوحيد مع بداية معركة حلب، وشاركت معه في السيطرة على أحياء الشيخ خضر والصاخور والشيخ فارس وباب النيرب. كما شاركت في معارك، جرت في أحياء سليمان الحلبي والميدان عندما حاولت كتائب المعارضة في حلب اقتحامها. انسحبت الكتيبة من لواء التوحيد في تشرين الأول ٢٠١٢، وتمركزت في الأحياء التركمانية الحلبية حتى تم الإعلان عن تشكيل لواء السلطان محمد الفاتح في كانون الثاني ٢٠١٣ بقيادة "أبو كمال" الذي عُيّن قائداً عاماً، وعُيّن "أبو توفيق" المنشق عن جيش النظام قائداً عسكرياً، لكنه قُتل في إحدى المعارك.

ضمّ تشكيل لواء السلطان محمد الفاتح عدة كتائب: "كتيبة الشهيد أبو عبدالله، كتيبة الباز، كتيبة المهام الخاصة، كتيبة الشهيد يلماظ علي، كتيبة الشهيد حسن دحل، كتيبة الشهيد أحمد كريّم، كتيبة علي بن أبي طالب، كتيبة زين العابدين، كتيبة الملك شاه، كتيبة الشهيد نورس، كتيبة

الدفاع الجوي، سرية الهندسة". ووصل عدد مقاتلي لواء السلطان محمد الفاتح إلى قرابة ١٠٠٠ مقاتل بعد استقطاب عدد كبير من المقاتلين التركمان والعرب نتيجة كمية ونوع السلاح والذخيرة التي كانت لديه، إضافة إلى تلقّي مقاتليه رواتب شهرية ثابتة وحصص شهرية من المعونات الغذائية. وشارك اللواء في عدد كبير من المعارك والعمليات العسكرية في حلب وريفها، مثل معركة مشفى الكندي، ومعركة السيطرة على مدرسة المُشاة، والمعركة التي انطلقت في حلب القديمة، التي انتهت بالسيطرة على الجامع الأموي.

استقرّ مقاتلو اللواء في الأحياء ذات الغالبية التركمانية، وتقتصر جبهاتهم - الآن - على منطقة حندرات بعد تناقص كبير في أعداد مقاتلي اللواء، بسبب انقطاع التمويل عنهم، لفترة طويلة، ما خفّض عدد مقاتليه من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠ مسلّح. ولعل أبرز الانسحابات كانت من جانب "كتائب الباز"، الذين كانوا يشكّلون غالبية مقاتلي اللواء. ينتمي "لواء السلطان محمد الفاتح" تنظيمياً إلى المجلس العسكري الثوري، وإلى هيكلية الجيش السوري الحر. يرفع علم الثورة السورية، ويؤمن بالديموقراطية والدولة المدنية ولا يوجد في بياناته ومقاطعه على يوتيوب أي خطاب إسلامي متشدّد. حظي اللواء بدعم تركي بحت بعد انشقاقه عن لواء التوحيد. فلدى مقاتلي اللواء أسلحة جيدة وذخائر بكميات كبيرة، كما حصل على رواتب شهرية لمقاتليه.

- كتائب الباز

ينتمي مقاتلو كتيبة الباز التي تشكّلت في ٢٠١٢ إلى قرية سد الشهباء؛ حيث أسسها هناك شخص، يُدعى "الأستاذ محمود". انضمّت إلى "لواء السلطان محمد الفاتح" مع تشكيله بداية ٢٠١٣، وشاركت في تحرير الجامع الأموي في حلب القديمة ومدرسة المُشاة، كما شاركت في أولى المعارك التي جرت في منطقة مشفى الكندي.

انشقت كتائب الباز عن "لواء السلطان محمد الفاتح" في منتصف

عام ٢٠١٣، وشكّلت ما سمّته "كتائب الباز الإسلامية" التابعة لهيئة أركان الجيش السوري الحر، ووصل عدد مقاتليها إلى ٤٠٠، قاتلوا إلى جانب داعش في عملية السيطرة على مطار منّغ العسكري في ريف حلب الشمالي قرب أعزاز. كما شاركوا في معظم المعارك التي اندلعت ضد وحدات حماية الشعب الكُردية YPG، في قرى ريف مدينة الباب شرقي حلب. انضمت "كتائب الباز" - فيما بعد - إلى قوّات النخبة التي شكّلها العقيد عبد الجبار عكيدي، الرئيس السابق للمجلس العسكري الثوري لحلب وريفها. يتواجد مقاتلو "كتائب الباز" على جبهة حي الصاخور في مدينة حلب، إضافة إلى خط جبهة القتال ضد داعش في ريف حلب الشمالي وكوباني، كما تتواجد مقرّاتهم في أحياء الشيخ خضر والصاخور.

حظيت "كتائب الباز" بدعم تركي طوال فترة انضمامها إلى "لواء السلطان محمد الفاتح". ثم بدأت بتلقي الدعم من غرفة عمليات "الموم"، مع انضمامها لقوّات النخبة، بقيادة عبد الجبار عكيدي. أما إيديولوجياً؛ فيبدو أنها تتّخذ توجهاً إسلامياً معتدلاً، فهي تعترف بعلم الثورة السورية، وتؤمن بسورية ديموقراطية، وتنتمي إلى هيكلية الجيش السوري الحر.

س. جبهة الأصالة والتنمية

شُكّلت "جبهة الأصالة والتنمية" في أنطاكيا أواخر ٢٠١٢. كان هدفها المُعلن جمع الكتائب والألوية ذات الفكر المعتدل. تتوزّع كتائبها على الخارطة السورية: الجبهة الشمالية في حلب وريفها، إدلب وريفها. الجبهة الغربية في ريف اللاذقية. الجبهة الوسطى في ريف حمص. الجبهة الجنوبية في القلمون وريف دمشق. وكان لها تواجد كبير في الجبهة الشرقية: دير الزور والرقّة ممثلاً بـ"جيش أسود الشرقية"، قبل خروجهم من المنطقة، إثر تمدد تنظيم "الدولة الإسلامية"، وانتقالهم للعمل في منطقة القلمون.

يُعتبر حضور جبهة الأصالة والتنمية ضئيلاً في حلب. فهو ممثل - فقط - بفصيل "كتائب ابن تيمية"، التي لها حضورها في ريف حلب الغربي، وتعدادها ٢٠٠ مقاتل، ينتمون في معظمهم إلى منطقة دارة عزّة، ويقاتلون

على جبهة حندرات والسجن المركزي. شاركت "كتائب ابن تيمية" سابقاً في عملية السيطرة على كتيبة الهندسة ومدرسة المُشاة ومعسكر الشبيبة في ريف حلب. كما شاركت في معركة القادسية في منتصف ٢٠١٣، التي انتهت بسيطرة المعارضة على حيّ الراشدين الاستراتيجي غربي مدينة حلب.

خاضت "جبهة الأصالة والتنمية" عدداً كبيراً من المعارك في مختلف مناطق الجغرافيا السورية. منها مشاركة مقاتليها في معركة "الجسد الواحد" في ريف حماه، ومعركة "التوحيد" في القصير، وساهمت في السيطرة على مطار الضبعة العسكري في المنطقة الوسطى، وفي معركة الفرقان في ريف دمشق الجنوبي وجزء من درعا. وكانت للفصيل التابع لها في اللاذقية اليد الرئيسية في معارك النبي يونس وكفريا في ريف اللاذقية. في المنطقة الشرقية، ساهم "جيش أسود الشرقية" في عدد كبير من المعارك ضد قوات النظام في دير الزور وريفها والرقة وريفها. وعند بدء محاولات تنظيم "داعش" للسيطرة على المنطقة الشرقية كان هذا الجيش من أول الفصائل التي واجهت التنظيم عسكرياً.

يبلغ عدد مقاتلي "جبهة الأصالة والتنمية" في سورية حوالي ٢٠٠٠ مقاتل. وتبدو على "جبهة الأصالة والتنمية" نزعة إسلامية واضحة في بياناتها على يوتيوب، لكنها دون النزعة السلفية الجهادية، ويُعزى ذلك إلى ارتباط الجبهة بجماعة الإخوان المسلمين الذين يقدّمون لها الدعم من طريق وزارة الدفاع في الحكومة السورية المؤقتة.

ش. الجبهة الشامية: التطوّر الأخير

بتاريخ ٢٥-١٢-٢٠١٤ أعلنت كُبرى الفصائل المعارضة في حلب وريفها الاندماج تحت قيادة واحدة، أُطلقَ عليها اسم "الجبهة الشامية"، وضمّت مجموعة من كبريات الفصائل الثورية في حلب وريفها، هي: الجبهة الإسلامية، جيش المجاهدين، حركة نور الدين زنكي، تجمّع فاستقم كما أُمِرت، جبهة الأصالة والتنمية. سُمي عبد العزيز سلامة قائداً عاماً للجبهة

الشامية، وهو القائد السابق للجبهة الإسلامية في حلب، وسُمي المقدّم محمد جمعة بكّور (أبو بكر) نائباً له، وهو قائد جيش المجاهدين.

قال الناطق باسم الفصائل المتوحدة في البيان المصوّر: "امتثالاً لأمر الله تعالى، ونزولاً لمطالب شعبنا العظيم بوحدة الفصائل الثورية، نعلن عن الاندماج الكامل براية واحدة وقيادة موحّدة، تحت مسمّى "الجبهة الشامية"، سائلين المولى عزّ وجلّ أن يكون هذا التوحد نواة لاندماج كل الفصائل الثورية المجاهدة على أرض الشام، وسبباً لخلاص شعبنا من الظلم الذي لحق به، بسبب إجرام النظام الشمولي الطائفي الحاقد، والحفاظ على وحدة سورية أرضاً وشعباً، معاهدين الله، ثمّ أهلنا في سورية، بأننا سنبذل الأرواح والأموال رخيصة للدفاع عنهم، وتحرير هذا البلد من رجس الميليشيات الطائفية المجرمة".

جاء هذا الإعلان بعد تأسيس "مجلس قيادة الثورة السورية" بتاريخ ٢٩-١١-٢٠١٤ في مدينة غازي عنتاب التركية؛ حيث انتُخب القاضي قيس الشيخ رئيساً للمجلس، الذي انبثق عن مبادرة "واعتصموا" التي أُعلنت قبل تشكيل المجلس بثلاثة أشهر في الداخل السوري، بمشاركة نحو مئة فصيل عسكري معارض. وقد توافقت الفصائل المنضوية على آليات الحفاظ على الهوية الوطنية، وإنهاء ما وصفته بـ "مخلفات النظام الفاسد"، إضافة إلى التصدي للإرهاب والممارسات المضرة بالثورة السورية. وضم ميثاق المجلس، وله صفة إلزامية لجميع الأعضاء، أهدافاً أساسية للمجلس، وأهمّها "إسقاط النظام، التشاركية في بناء الدولة، استقلالية القرار السوري، التأكيد على العدالة، وحرية كافة مكوّنات النسيج الاجتماعي السوري".

تتضمّن "الجبهة الشامية" غرفة عمليات عسكرية مشتركة بين كل الفصائل الموقّعة على بيان الاندماج، إضافة إلى دمج الذخيرة والسلاح ضمن مستودعات موحّدة، باسم "الجبهة الشامية". تمّ سنّ قانون داخلي، وافقت عليه الفصائل الموقعة، يقضي بوجوب الالتزام براية الجبهة الشامية

فيما يخص الذخائر والأسلحة، ولا يستطيع مَن يريد الانسحاب أن يسحب معه أسلحته أو ذخائره التي تم دمجها جميعاً؛ لتكون تحت تصرف القيادة العسكرية للجبهة. حصل الاندماج بعد ضغوطات كبيرة على الفصائل المعتدلة في حلب لتشكيل كيان عسكري واحد، يتبع لقيادة مركزية، ما يمكّنها من الصمود في وجه الضغط العسكري الذي تواجهه الثورة في حلب، سواء التي تتسبب بها هجمات قوات النظام الساعية لحصار حلب، أو هجمات "داعش" في الريف الشرقي، ومحاولته المرور عبر اخترين ودابق في اتجاه أعزاز. وهنالك الضغط الذي تمثله سيطرة جبهة النصرة على جبل الزاوية ومعظم مناطق ريف إدلب بعد معركتها مع "جبهة ثوار سورية"؛ حيثُ يُتوقّع بروز المزيد من الأهداف التمدّدية لجبهة النصرة في سبيل إقامة الإمارة الإسلامية، لوقف نزيف مقاتليها الذين ذهب عدد كبير منهم لمبايعة تنظيم الدولة الإسلامية.

لم تنشر "الجبهة الشامية" حتى الآن أيّ ميثاق أو رؤية سياسية أو منهج فكري وأهداف مُعلنة، فيما يُعتقَد أن تشكيل "الجبهة الشامية" هو نتيجة اتفاق أمريكي- قطري للمحافظة على حلب بين أيدي المعتدلين، مجتمعين في فصيل، يضمن لهم التوحّد العسكري ضدّ محاولات تمدد جبهة النصرة باتجاه حلب. وهذا ما قد يفسّر قرار "حركة حزم" حلّ نفسها، وضم قوّاتها إلى الجبهة الشامية بعد عودة المعارك بين حزم وجبهة النصرة في ريف حلب الغربي.

يتوزّع مقاتلو "الجبهة الشامية" على جميع جبهات حلب وريفها ضد قوّات النظام في المدينة والريف الجنوبي وجبهات حندرات والبريج والملاح قُرب المدينة. كما يتوزعون على جبهات القتال ضد تنظيم داعش في مناطق احتيملات وحور العين قُرب مارع وأعزاز في الريف الشمالي، وعلى خطوط التماس - الملتهبة أحياناً والهادئة أحياناً- مع مقاتلي جبهة النصرة في الريف الغربي لحلب كالأتارب ودارة عزّة. تحمل الجبهة الشامية توجهاً إسلامياً معتدلاً، يهدف إلى استمرار القتال ضد النظام السوري في حلب

وريفها، إضافة إلى التأكيد العملي على القتال ضد تنظيم "داعش". وشكّلت الجبهة الشامية "سرايا الدفاع الجوي في حلب وريفها"، وذلك بعد نجاحها في تصنيع صواريخ محلية. والسرايا هي: عمر، الشام، القدس، أحرار الشرق. وذلك للتصدي لطائرات النظام التي تشكّل عامل الحسم في الكثير من المعارك، خاصة تلك التي تجري على جبهات قتال مفتوحة في الأرياف وأطراف حلب.

أبرمت الجبهة الشامية مؤخراً اتفاقاً مع وحدات حماية الشعب الكردية YPG ينص على عدة بنود وأمور تنظيمية، كتوحيد القضاء بين الطرفين؛ ليشمل جميع المحاكم، والحكم بشرع الله، وفتح مكاتب شرعية ودعوية، ومتابعة أمور المساجد، وملاحقة المفسدين والمسيئين أينما كانوا لمحاسبتهم، وإعادة الحقوق لأهلها، وتأمين الأمن والأمان في المناطق المحرّرة من قبل الموقعين على هذا الاتفاق، كما جاء في نصّ الاتفاق.

على صعيد التمويل، لم تتلقّ "الجبهة الشامية" حتى الآن أي دعم باسمها الجديد، بسبب عدم اكتمال هيكليتها التنظيمية؛ حيث تجري في تركيا والداخل السوري اجتماعات مكثّفة ومستمرة بين قادة الفصائل للوصول إلى صيغ مشتركة حيال كافة المواضيع، ومنها موضوع الدعم المادي. وإلى ذلك الحين، ستستمرّ الفصائل المنضوية تحت راية "الجبهة الشامية" باستلام الدعم المعتاد الخاص بها، إما من القطريين، أو من غرفة عمليات "الموم"، إضافة إلى مصادرها الخاصة. ويواصل قادة الجبهة الشامية محاولة ترتيب البيت الداخلي تمهيداً لتنظيم الأمور المتعلقة بالتمويل العسكري واللوجستي والمادي.

ص. كتائب ثوّار الشام

شُكّل هذا الفصيل الجديد في حلب في ٧ نيسان٢٠١٥ بقيادة النقيب ناجي المصطفى. وضمّ كلاً من حركة النور الإسلامية، لواء أمجاد الإسلام، وكتائب الهُدى التي تضمّ عدداً من الفصائل، وكانت تعمل تحت اسم "لواء الأنصار".

وجاء في بيان التأسيس الذي قرأه النقيب ناجي المصطفى والذي بُثّ على مواقع التواصل الاجتماعي، أنّ هذه الخطوة اتّخِذت "لنكون صفاً واحداً في التصدي لنظام الأسد المجرم وأعوانه، وتحرير كامل سورية الحبيبة من رجس الاحتلال الإيراني وميليشياته وعصاباته المُجرمة". ثمّ أضاف: "إن كتائب ثوار الشام تعاهد الله تعالى، ثمّ أهلنا، على أن تبذل كلّ جهدها في الدفاع عنهم ولتحرير بلدنا من الطغيان، وألا تنشغل عن هذا الهدف، بشيءٍ آخر".

كانت الفصائل المذكورة تنتمي إلى الجبهة الشامية قبل الإعلان عن التشكيل الجديد. كما كانت تنتمي فصائل "حركة النور، لواء أمجاد الإسلام" إلى فصيل جيش المجاهدين قبل الإعلان عن تشكيل الجبهة الشامية. اعتبرت الجبهة الشامية الإعلانَ عن كتائب ثوار الشام، خروجاً عن بيعة قائدها عبد العزيز سلامة. خُطفَ عدد من قادة التشكيل الجديد، وهم المقدّم أبو عبد الرحمن، والنقيب وائل الجمعة، ورائد العبدو عضو مكتب العمليات في الفصيل، ثم أُفرج عنهم بعد بضعة أيام، بعدما سلّمَ الفصيل الجديد معظم سلاحه الثقيل إلى الجبهة الشامية. وقامت عناصر من حركة نور الدين الزنكي، مع الكتيبة الأمنية التي يقودها حسام الأطرش، وعناصر من لواء الأنصار لم ينضمّوا إلى لتشكيل الجديد، قام هؤلاء بمحاصرة قرية أورم معقل كتائب ثوار الشام في الريف الغربي لمدينة حلب قبل خطف القادة المذكورين.

يعود السبب في تشكيل كتائب ثوّار الشام إلى عدم رغبة الجهات الغربية وتركيا، بالعمل مع الجبهة الشامية التي قُطعَ الدعم عنها، بسبب عدم رغبة الدول المانحة في التعامل مع قائدها الحالي عبد العزيز سلامة، والذي سبّبَ - على الدوام - الكثير من الإشكاليات في الفصائل التي كان يتزعّمها، بسبب عدم رغبة أيّ من الدول في العمل معه، بسبب نواياه القياديّة، واعتباره نفسه "أميراً" للجبهة الشامية بُعيد تشكيلها، وبدئه باستقبال البيعات. هذا ما حمل الفصائل التي انخرطت في كتائب

ثوار الشام على الانفصال عن الجبهة الشامية، وتشكيل الفصيل الجديد بأيديولوجية معتدلة، تنال ثقة الداعمين والدولة الوسيط، تُركيا.

يبلغ عدد مقاتلي كتائب ثوّار الشام حوالي ١٥٠٠ مقاتل يتوزّعون - في الغالب - على جبهة حيّ الراشدين في القسم الشمالي الغربي لمدينة حلب. وينتمي مقاتلوها في غالبيّتهم إلى مناطق الريف الغربي وبعض من مناطق الريف الشمالي وحلب المدينة.

تُحسب قيادات كتائب ثوّار الشام أيديولوجياً على التوجّه المعتدل المحسوب على الجيش السوري الحر. وهي تعتمد علم الاستقلال السوري، على ما بدا في فيديو البيان التأسيسي، كما استُخدمَت مصطلحات: "إسقاط النظام، الحرية، العدل، وتقرير المصير".

خاتمة

في النهاية، يبدو جليّاً أن العسكرة هي أكثر الجوانب تعقيداً في المناطق المحررة وتجربتها الخارجة عن سيطرة النظام وقوى جيشه وأمنه. فكما انبثق الحراك الشعبي في حلب من قلب المجتمعات الأهلية، تطوّر؛ ليصل إلى مرحلة حمل السلاح وتكوين المجموعات والفصائل المسلّحة المتباينة التوجّه والعقيدة والأفكار والخطط والاستراتيجيات. ولعبت الدول المانحة دوراً كبيراً في مصير هذه المجموعات. وهو لعبٌ على مصير ثورة بلد.

إنّ ما قيل عن تأسلُم الثورة في سورية يمكن أن يكون صحيحاً، لكنّ هذه الأسلمة لم تُبنى - فقط - على إرادات الإسلاميين في سورية، بل بُنيت - بشكلٍ كبير - على إرادة المموّل صاحب المال والقرار.

وكما بيّن عرض تكوّن الفصائل المسلّحة وتناسلها في حلب، فإنّ عدداً لا بأسَ به من الفصائل بدأ نشاطه المسلّح بعيداً من أيّ عقيدة وأدلجة، وكان قتال النظام وتحرير المناطق من قبضته وحماية المتظاهرين من الأهداف الأولى لحمل السلاح.

اضطرت هذه الفصائل تدريجاً، ومع طول أمد الصراع، إلى أن تبحث عن طرقٍ لتمويلِ مقاتليها ومدهم بالسلاح والذخيرة والإعانات الغذائية لعائلاتهم. ولأنّ مَن تصدّى لهذه المهمّة أولاً، كانت الشخصيات المحسوبة على التيار السلفي الجهادي في دول الخليج العربي خاصّة، وضعت هذه الفصائل مشاريع المأسسة الأيديولوجية الدينيّة. بدأ الأمر بالتقليل من إشهار علم الثورة كراية للقتال وتحرير البلد، واعتماد الرايات الإسلامية

بديلاً عنه. ومع بدء افتتاح المكاتب والمحاكم الشرعيّة، ظهرت الإسلاموية واضحة، وتغيرت شعارات الفصائل العسكرية بما يتناسب مع فكرة الجهاد. في الوقت، وبعدما كانت دول "مجموعة أصدقاء سورية" ترسل السلاح غير الفتّاك للفصائل المحسوبة على الجيش السوري الحر، انضم الكثير من مقاتليها إلى التشكيلات الإسلاميّة أيضاً، فانتهى - بذلك - وجود الكثير من تلك الفصائل، جراء استنزاف طاقاتها. لعبتْ قطر دوراً كبيراً في جرّ الصراع العسكري أيديولوجياً إلى جانبها، إثر الدعم منقطع النظير الذي قدّمته إلى الفصائل التي أضحت إسلامية، كلواء التوحيد وتجمّع فاستقم كما أُمرت، وجبهة الأصالة والتنمية.

لقد أتى التحرّك الحكومي ل"مجموعة أصدقاء سورية" متأخّراً عن طريق غرفة عمليات "الموم" التي استطاعت بصعوبة أن تعدّل في موازين القوى، وتحافظ على بعض فصائل الجيش الحر والكتائب المعتدلة. لكنّ هذه الفصائل لم تستطع الدفاع عن نفسها أمام هجمات الفصائل السلفيّة الجهادية. انتهت حركة حزم بعد هجمات النصرة إثر توجيه تُهم "العلمانية" و"تلقّي الدعم من الغرب". سبقها في التشتت والاضمحلال تشكيل "ثوار سورية" في إدلب، بعد هجمات تنظيم جبهة النصرة عليه. وفي حلب وريفها الشمالي، تمكن تنظيم داعش من القضاء على ألوية "عاصفة الشمال" و "غرباء الشام".

ما يهمّ الآن هو ما سيؤول إليه التوزّع العسكري والأيديولوجي لفصائل المعارضة المسلّحة في ريف حلب الغربي، بعد سيطرة النصرة على مساحات واسعة منه، وبعد الإعلان عن تشكيل الجبهة الشامية هناك، وقد انضوت تحتها كُبرى فصائل المدينة من دون مشروع واضح. فعدم الوضوح هذا يبعث توجّساً غربياً، تزيده نوايا قائد الجبهة الشامية، عبد العزيز سلامة، في تحويل الأجزاء المحرّرة من حلب وريفها الشمالي، إلى ما يشبه الغوطة الدمشقية في قبضة زهران علّوش، التي تحاول بعض الكتائب الإفلات منها، والظهور بتشكيلات جديدة، كما في حالة "كتائب

ثوّار الشام". وهذه قد تشكّل نموذجاً وحيداً لمقاومة محاولات عبد العزيز سلامة السيطرة على القرار العسكري في حلب الشرقية وريفها الشمالي.

وهناك - أيضاً - محاولات النظام المستمرّة في التقدّم من عدّة محاور لإحكام الحصار على الأقسام التي تسيطر عليها المعارضة في مدينة حلب. هذا إلى جانب استمرار تنظيم داعش في محاولاته لاختراق الريف الحلبي الشمالي، بضربات صاروخية وتفجيرات، تستهدف منطقة مارع، وما حولها. أما جبهة النصرة؛ فتبدو راضية مرحلياً بما حقّقته من مكاسب وانتصارات، مكنتها من إحكام قبضتها على مناطق واسعة من ريف إدلب وريف حلب الغربي. وفي انتظار ما ستؤول إليه الأمور عسكرياً في حلب المدينة - حيث للنصرة حضور واضح أيضاً، من دون سيطرتها المُطلقة على مناطق بعينها - بات يقتصر وجود الفصائل المُرتبطة بهيكلية الجيش السوري الحر في حلب، على الفرقة ١٦ وبعض الكتائب الصغيرة. تشكّل الكتائب المعتدلة نسبة كبرى من فصائل الجيش السوري الحر، لكنّها غير مرتبطة تنظيمياً بالمجلس العسكري الثوري لحلب وريفها. وتبدو الكتائب ذات التوجّه السلفي الجهادي، والمرتبطة بتنظيمات جهادية عالمية صاحبة ثقل كبير في المرحلة الحالية. فتنظيم داعش يسيطر على كامل الريف الشرقي للمدينة، فيما تحظى جبهة النصرة بسيطرة كبرى في ريفها الغربي، إضافة إلى سيطرتها على بعض مناطق الريف الشمالي، إلى جانب جبهة أنصار الدين. وهذه لها حضورها مع النصرة والجبهة الشامية في المناطق الخاضعة لسيطرة المعارضة في مدينة حلب.

فهرس المحتويات

مقدمة ٥

الفصل الأول: المدينة المتثاقلة بين الجامعة والريف..... ١٣

١. تمهيد..... ١٥

٢. الشبيحة وتمويلهم ١٧

٣. التريث والأمل ٢٢

٤. مزاج حلب الخاص ٢٦

٥. حلقات التعبير وأشكاله ٢٩

أ. التصوف ٢٩

ب- مشجّعو فرق كرة القدم ٣٠

ت- الإسلاميون غير «الإخوانيين»..... ٣٣

ث- موقع «عكس السير» الإلكتروني ٣٣

ج- حلقات الميول الأدبية ٣٧

٦. الجامعة والأحياء الفقيرة..... ٣٨

٧. المظاهرة والتنسيقية والطالبات ٤٢

٨. حلم ساحة سعد الله الجابري..... ٤٥

٩. حلب وثورة الريف الحلبي ٤٨

أ. إجلاء العلويين والأرمن..... ٥٠

ب. حال الكرد ٥١

ت- بستان القصر: العلمانيون والسلفية ٥٢

ث- سيف الدولة وصلاح الدين ٥٣

ج- الهجوم على الجامعة وإفراغها ٥٤

١٠. بين السلمية والسلاح ٥٩

الفصل الثاني: المدينة تُخرِجُ أثقالها ٦٥

١. ظهور الشبيحة ٧٦
٢. البيوت قلاعاً حصينة ٨٦
٣. الخوف البيولوجي ٧٠
٤. قوادون وعاهرات، ومخابرات ٧١
٥. فيروس الخوف والعنف ٢٧
٦. المدينة والريف ٧٥
٧. دبيب الأزمة المعيشية ٧٦
٨. الكتائب في حلب ٧٧
٩. الانتفاضة المسلحة ٧٩
١٠. باعة الترف القديم ٨١

الفصل الثالث: فوضى الإدارة المحلية والقضاء الشرعي ٨٣

١. مصائر الطلاب بعد الحراك السلمي ٨٥
٢. العسكرة وانقسام المدينة ٨٥
٣. هيئات وكتائب محلية متناسلة ٨٧
٤. لجان لتأمين الخدمات اليومية ٨٨
٥. حال القطاع التربوي ٩٨
أ. تدمير المدارس ٩٠
ب. مناهج التعليم وشركاؤه ٩١
ت. مديرية جديدة للتربية والتعليم ٩٢
ث. مؤسسات تعليمية خاصة ٩٣
ج. خلاصة ٩٤
٦. المجلس المحلي ولجان الأحياء ٩٥
٧. فوضى القضاء الشرعي ٩٦
أ. مجلس القضاء الموحد ٩٨
ب. الهيئات الشرعية الإسلامية ١٠٠
ت. قضاء عشوائي شبه عسكري ١٠١
ث. القضاء العسكري للواء التوحيد ١٠٣
ج. ضياع العدل ١٠٣

الفصل الرابع

يوميات ورسائل من حلب الشرقية والغربية ١٠٥

١) يوميات التحرير... والنهب الشرعي ١٠٧

أ. اليومية الأولى ١٠٧

ب. اليومية الثانية ١١٠

ت. اليومية الثالثة ١١٢

ث. اليومية الرابعة ١١٣

ج. اليومية الخامسة ١١٤

ح. معبر بستان القصر ١١٦

٢) الكتائب المسلحة والأهالي ١١٩

أ. الرسالة الأولى ١١٩

ب. الرسالة الثانية ١٢١

ت. الرسالة الثالثة ١٢٤

ث. الرسالة الرابعة ١٢٥

ج. الرسالة الخامسة ١٢٥

ح. الرسالة السادسة ١٢٧

خ. الرسالة السابعة ١٣٠

٣) بستان القصر معبر للقتل اليومي ١٣٥

أ. رحلة عوليسية ١٣٥

ب. المعبر وأسماؤه ١٣٦

ت. هدوء كمشرحة ١٣٧

ث. بقعة دم صغيرة ١٣٩

ج. طرائد يومية ١٤٠

ح. احتمالات الموت ١٤٢

خ. «داعش» والهيئة الشرعية ١٤٣

د. الغموض والتعاسة ١٤٦

٤) الحياة اليومية في حلب الغربية ١٤٩

الفصل الخامس: في انتظار الموت في حلب ١٥٧

١) حياة وآلام مجانين الدفاع المدني في حلب ١٥٩

أ. أسبوع الـ٥٠٠ قتيل ١٧٢

ب. حب البنات..... ١٧٢
ت. براميل متفجرة ومتاعب إدارية ١٧٥
ث. جغرافيا الحرب..... ١٧٩
ج. داخل الركام..... ١٨٠
ح. غدر الهليكوبتر..... ١٨٢
خ. التستوستيرون والأدرينالين..... ١٨٤

٢- الموت يهطل من السماء..... ١٨٧

أ. مدينة الأشباح..... ١٨٨
ب. امرأة الجسر ١٨٩
ت. سمر، أوهانس، وزكريا ١٩١
ث. مأوى القديس إيليا ١٩٢
ج. شرفة مائلة..... ١٩٣
ح. الأنفاق والكهرباء ١٩٥
خ. لا تفروا من الموت ١٩٦
د. رحلة المحجبات والفودكا ١٩٧

٣- الأفغان الشيعة... مرتزقة إيرانيون في حروب الأسد ٢٠١

أ. نفاد الجنود ٢٠٢
ب. تجار البؤس ٢٠٣
ت. محاربون كالآلات..... ٢٠٥
ث. وقت البراميل..... ٢٠٦
ج. ما وراء اليأس والأمل..... ٢٠٧
ج. بين البؤس والرعب ٢٠٧

الفصل السادس: التشكيلات والألوية العسكرية ٢٠٩

١- تحرير الريف..... ٢١١

٢- كتائب مسلحة في حلب..... ٢١٣

أ. الجبهة الإسلامية ٢١٤
- لواء التوحيد ٢١٤
- حركة أحرار الشام الإسلامية..... ٢١٨
- لواء أحرار سورية ٢٢٢
- ألوية صقور الشام ٢٢٧
ب. جبهة النصرة ٢٢٧

ت. تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" ٢٣١
ث. جبهة أنصار الدين ٢٣٤
- جيش المهاجرين والأنصار ٢٣٤
- حركة شام الإسلام ٢٣٦
- حركة "فجر الشام الإسلامية" ٢٣٧
ج. جيش المجاهدين ٢٣٩
ح. كتائب أبو عمارة ٢٤١
خ. حركة نور الدين زنكي ٢٤٤
د. تجمّع ألوية فاستقم كما أُمرت ٢٤٨
ذ. حركة حزم ٢٥١
ر. الفرقة ١٦ ..... ٢٥٥
ز. ألوية التركمان ٢٥٨
- لواء السلطان مُراد ٢٦٠
- لواء السلطان محمد الفاتح ٢٦١
- كتائب الباز ٢٦٢
س. جبهة الأصالة والتنمية ٢٦٣
ش. الجبهة الشامية: التطوّر الأخير ٢٦٤
ص. كتائب ثوّار الشام ٢٦٧

خاتمة ٢٧١

محمد أبي سمرا: روائي وصحافي من لبنان، ولد سنة ١٩٥٣. يعمل في الصحافة الثقافية والتحقيقات منذ عام ١٩٧٧، وهو الآن يحرر ويدير قسم التحقيقات الأسبوعي لصحيفة «النهار». صدر له: بولين وأطيافها (رواية)، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٠. الرجل السابق (رواية)، دار الجديد، بيروت ١٩٩٥. سكان الصور (رواية)، دار النهار، ٢٠٠٣. بلاد المهانة والخوف (رحلات)، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٤. طرابلس - ساحة الله وميناء الحداثة، دار الساقي، بيروت، ٢٠١١. موت الأبد السوري - شهادات جيل الثورة والصمت، دار رياض الريس، بيروت، ٢٠١٢.

صبر درويش: إعلامي وصحافي من سوريا، عمل في مجال الإعلام أثناء الثورة السورية، وساهم بتأسيس مركز شرارة آذار الاعلامي، والذي صدر عنه جريدة شرارة آذار. ساهم مع فريق «شرارة آذار» في إنتاج عدد من الأفلام الوثائقية، ومنها فيلم «حكايات من شرق العاصمة»، إنتاج ٢٠١٤. وفيلم «منمنمات خلف خطوط الجبهة»، إنتاج ٢٠١٥. كما ساهم في إطلاق سلسلة كتب «تجربة المدن المحررة» والتي صدر عنها الكتاب الأول «تجربة المدن المحررة»، مع دار رياض الريس للنشر، بيروت ٢٠١٥. لصبر العديد من الأبحاث الميدانية، ومنها: «السوريون وتجربة النزوح، العلاقة بين سكان مدينة السلمية والنازحين إليها قسراً، نشر في مركز الجمهورية الديموقراطية للدراسات، ٢٠١٤». ««داعش» السوري البطالة، اليأس، عدوى العنف، نشر في مجلة بدايات اللبنانية، ٢٠١٥». «بحث في أحوال التلامذة السوريّين اللاجئين في لبنان، نشر في مركز الجمهورية الديموقراطية للدراسات، ٢٠١٥».

لا يسعى هذا الكتاب إلى تقديم «آراء» حول ما يجري وما جرى في حلب. بل يحاول قدر الإمكان، عرض التجربة على لسان شهودها من دون تدخل من المعدَّين اللذين جمعا المادة وحرّراها. وقدر الامكان يعرض سيراً وشهادات ومشاهدات ومعلومات عن طبيعة الأحداث ومساراتها وتحولاتها في المدينة. وذلك بأسلوب سردي استقصائي. وتحت عنوان كل فصل من الكتاب، يُذكر أسماء أصحاب السير والشهادات، واسم من جمع المادة وكتبها كتابة أولية. وهو بهذا المعنى كتاب جماعي عن حلب في زمن الثورة.

ISBN 978-91-87373-68-8
9 789187 373688
المتوسط